الإحيـاء في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

إعداد

بعول صلاح الخالدي



الإحياء في القرآن الكريم

دراسة موضوعية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الإحياء في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

إعداد

بتول صلاح الخالدي

الطبعة الأولى
٢٠٠٨







228

الخالدي ، بتول

الإحياء في القرآن الكريم: دراسة موضوعية / بتول صلاح الخالدي

ـ عمان : مؤسسة الوراق ، 2007 .

(   ) ص.

ر. أ : (2007/7/2265)

الواصفات : /قصص القرآن ///الوعظ والارشاد ///الاسلام ///القرآن/

تم أعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN : 978-9957-33-130-6 (ردمك)



مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع

ص.ب 1527 عمان 11953 الأردن / تلفاكس 5337798

البريد الإلكتروني E-mail : halaraq@hotmail.com

www.alwaraq-pub.com

info@alwaraq-pub.com

إهـــداء

إلـــى...

الشمعتان اللتـــان أضـــاتا لـــي طريقـــي،

وتحملن عني مـــسؤولية تربيـــة أولادي.

حتى خرجت بهذ العمل الباهر

إلى أخواتي عروب ورابعة

إلـــى...

والدي الحبيبين الغاليين، أدام الله فضلهما

ورحمهما كما ربياني صغيرا.

إلى...

زوجي ورفيق دربي، المخلـــص الـــوفي

الغالي، الذي شاركني الجهد والعناء.

إلى...

أبنائي الأحباء، الذين حرموا كثيرا من

الحب والعطاء بسبب انشغالي عنهم.

إلى...

إلى هؤلاء جميعاً، أهدي ثمار هذا البحث

المتواضع.



شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل، والتقدير العظيم إلى أستاذي الأستاذ الكريم الدكتور محمد عبدالتواب حامد -رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد- الذي تكرم بالإشراف على بحثي منذ أن كان فكرة إلى أن أصبح ثمرة فأسدى لي النصح الخالص والتوجيه الصادق، والذي لم يبخل عليّ بوقته أو علمه، أسأل الله جزيل الأجر والثواب، وأن يرفع مقامه في الجنة.

وأتقدم كذلك بالشكر والتقدير، لوالدي الفاضل الغالي الأستاذ الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي، الذي كان له دور كبير في توجيهي وإرشادي سواء أكان ذلك من خلال كتبه ومؤلفاته، أو من خلال حديثه ورسائله وملاحظاته، فقد كان يدفعني ويشجعني كلما حدثته، ويقدم لي الزاد الذي ساعدني على مواصلة هذا الطريق الشاق.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان، لزوجي المخلص الوفي، الدكتور يحيى محمد الخلايلة، الذي لولا إخلاصه وصبره وتشجيعه لما وصلت إلى هذه المرحلة، فقد كان يحضني على المواصلة والمتابعة كلما أُصبت بالضعف والتعب، وتحمل الكثير والكثير، كي أكمل هذا الطريق الذي رسم معالمه وأقام قواعده، فله عظم الشكر والتقدير.

وإلى كل أخواتي وزميلاتي اللواتي شجعنني وأحببن لي الخير.

وإلى كل من قدم لي العون في إخراج هذا البحث بهذه الصورة، التي أسأل الله عز وجل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
المطلب الأول: مجمل القصة	٦٧
المطلب الثاني: هل القصة واقعية أم مجرد مثل؟	٦٨
المطلب الثالث: الإسرائيليات الواردة في القصة والرد عليها	٧١
المطلب الرابع: فوائد ولطائف	٧٤
المبحث الرابع: قصة إحياء الذي مر على قرية	٧٧
المطلب الأول: مجمل القصة	٧٧
المطلب الثاني: المقصود بالعظام في الآية الكريمة	٧٨
المطلب الثالث: الإسرائيليات الواردة في القصة والرد عليها	٨٠
المطلب الرابع: لطائف وفوائد	٨٣
المبحث الخامس: قصة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام	٨٦
المطلب الأول: مجمل القصة	٨٦
المطلب الثاني: لماذا طلب إبراهيم عليه السلام رؤية ذلك	٨٧
المطلب الثالث: هل امتثل إبراهيم أمر ربه فقام بتقطيع الطير ؟	٩٠
المطلب الرابع: الإسرائيليات الواردة في القصة وموقف المفسرين منها	٩٥
المطلب الخامس: لطائف وفوائد	٩٧
المبحث السادس: معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام	٩٩
المطلب الأول: مجمل الآية	٩٩
المطلب الثاني: خلق الطير من الطين معجزة لعيسى عليه السلام	١٠٠
المطلب الثالث: إحياء الموتى بإذن الله	١٠٢

الموضوع	رقم الصفحة
المطلب الرابع: لماذا خُص عيسى عليه السلام بهذه المعجزات	١٠٣
المطلب الخامس: الإسرائيليات الواردة في تفسير هذه الآية	١٠٥
وموقف المفسرين منها	١٠٨
المطلب السادس: فوائد ولطائف	١١٠
المبحث السابع: بعث أصحاب الكهف	١١٠
المطلب الأول: مجمل القصة	١١٣
المطلب الثاني: قبسات من الآيات	١١٧
المطلب الثالث: مبهمات في القصة	١١٨
المطلب الرابع: لطائف وفوائد	١٢٣
الفصل الثاني: الإحياء المعنوي في القرآن الكريم	١٢٣
المبحث الأول: إحياء القلوب بالإيمان	١٢٦
المطلب الأول: المراد بإحياء القلب بالإيمان	١٢٦
أولا: تعريف القلب	١٢٦
ثانيا: تعريف الإيمان	١٢٨
ثالثا: معنى إحياء القلب بالإيمان	١٣٠
رابعا: أهمية إحياء القلب	١٣٢
المطلب الثاني: طرق إحياء القلب وآثاره	١٣٨
أولا: طرق إحياء القلب	١٣٨
ثانيا: آثار إحياء القلب	١٥٢
المبحث الثاني: إحياء النفوس بالقصاص	١٥٤
المطلب الأول: مدخل لفهم القصاص	١٥٤
أولا: تعريف القصاص	١٥٤

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة



مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الإسلام في هذا العصر، يمر بغربة شديدة تشبه الغربة التي عاشها في بدايته عند بدء الدعوة في مكة.

فلقد سيطر الغزو الفكري والثقافي، من كلا الجانبين اليهودي والصليبي على هذه الأمة، وتمكن من إفساد أبنائها، وتضييعهم، وإبعادها عن الكثير من الأصول الإسلامية، وإلهائهم وشغلهم بأمور دنياهم، حتى أصبح الكثير منهم ينتمي للإسلام بالاسم والهوية، لا بالعقيدة والسلوك، يعيشون حياتهم في لهو ولعب، منشغلين في شهوات الدنيا وملذاتها عن الإعداد للموت، والحياة السرمدية الأخرى.

فأضحى حالهم كحال النائم في الغاب، غير مدرك لما يحيط به من مخاوف وأخطار.

وأضحت قلوبهم ميتة لا يعمرها الإيمان...

وأضحت عقيدة اليوم الآخر مجرد نظريات، تقرأ في الكتب وتدرس في المدارس والجامعات، دون أن يكون لها أي تأثير عملي على حياتهم وواقعهم...

وأضحى تفكيرهم في الموت تفكيراً لحظياً، لا ينبني عليه سلوك عملي أو واقعي...

بل إن بعضهم قد سيطرت عليه ثقافة الغرب وأفكاره، فأنكر المعاد وقيام الأجساد، فخرجوا بذلك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر وقالوا مثل ما قال أسلافهم المشركون: ﴿وما هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[1].

ورغم ما يكيده الأعداء لهذه الأمة رغبة في القضاء عليها، إلا أن الله عز وجل قد تكفل بحفظ هذه الدعوة حتى قيام الساعة، فلا يستطيع هؤلاء النيل منها أو إخمادها ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

فبرغم الفساد والضياع الذي يعيشه الكثيرون من أبناء هذه الأمة، نجد بالمقابل صحوة إسلامية عظيمة في مختلف بقاع الأرض، ونجد الكثير من الدعاة والعلماء الذين يقفون في وجه أعداء الدين...

ونجد العودة إلى حقائق الإسلام وقيمه ومبادئه، يزداد يوما بعد يوم...

ونجد أن الكفر والشر قد بدأ يتعرى ويظهر شيئا فشيئا، وسيأتي اليوم الذي ينكشف فيه زيفه وكذبه للناس، وعندها ستكون الغلبة للحق وأهله، وسترجع راية الحق خفاقة عالية من جديد.

فما هذه الغربة التي يعيشها الإسلام والمسلمون إلا بداية لتمكينه وتثبته في حياة الأمم والشعوب، وتمهيدا للنصر الكبير الذي سيحققه إن شاء الله.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: "بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[3].

1- سورة الجاثية، الآية: ٢٤

2- سورة الصف، الآية: ٨

3- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، ١/١٣٠، حديث رقم: ١٤٠، دارإحياء التراث العربي - بيروت (بدون تاريخ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.

ومن باب المساهمة في هذه الصحوة الإسلامية، فقد قررت بعد الاستعانة بالله عز وجل، دراسة موضوع "الإحياء في القرآن الكريم" دراسة موضوعية، لعلها تسهم في إحياء هذه الأمة، وإحياء قلوب أفرادها، وإيقاظهم من غفلتهم وتحذيرهم لما ينتظرهم في الآخرة، فتستعد لذلك اليوم خير استعداد، وتقبل على الطاعات أيما إقبال.

وقد قمت من خلال هذه الدراسة، باستعراض الآيات التي اشتملت على كلمة الإحياء، ومرادفاتها، وقسمتها إلى موضوعات متعددة حسب معانيها وما ترمي إليه ألفاظها.

فما هو الإحياء؟ وما هي قصصه في القرآن الكريم؟ وما هو إحياء القلب بالإيمان؟ وما هو إحياء النفوس بالقصاص؟ وهل هناك إحياء في القبر؟ وما هي طبيعة الحياة في البرزخ؟ وما هو البعث والإحياء في الآخرة؟ وما هي هيئة العباد عند البعث والإحياء؟ وما هي الأدلة التي ساقها القرآن الكريم لإثبات البعث في الآخرة؟

هذه الأسئلة وغيرها، قدمت الإجابة عليها، وناقشتها من خلال صفحات هذه الرسالة المتواضعة.

ولا أخفي المشقة والجهد الذي بذلته في هذا البحث، والصعوبات التي واجهتها خاصة من ناحية ارتباط المواضيع، بموضوعات علمية أخرى، مما حملني على العودة إليها وأخذ المعلومات من مصادرها الأصلية.

كما أن كوني مسؤولة عن أسرة وأولاد، أضاف المزيد من المعاناة والمجاهدة وزاد من التكاليف والأعباء والمسؤوليات، بالإضافة إلى صعوبة ظروف الغربة والبعد عن الأهل والوطن.

غير أني احتسب هذه الصعوبات عند الله عز وجل، وأرجو منه أن يثيبني

عليها خير الثواب.

وأخيرا أسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع، ويجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، فإن أصبت فمن الله عز وجل وتوفيقه، وإن أخطأت فمن نفسي، وكوني بشر أتصف بالضعف والقصور، وصدق الشاعر إذ يقول:

وما أبرئ نفسي إنني بشر أسهو وأخطي ما لم يحمني قدر

ولا ترى عذرا أولى بذي زلل من أن يقول مقرا إنني بشر[٤]

أهمية الموضوع:

تتضح أهمية موضوع الإحياء في القرآن الكريم في النقاط التالية:

١- إن الإيمان باليوم الآخر، وبما يكون فيه من بعث الخلق وإحيائهم للحساب والمجازاة على الأعمال، له أهمية كبيرة في التصور الإسلامي، فهو قاعدة أساسية تقوم عليها العقيدة الإسلامية. والإيمان به كذلك يعطي للفرد قوة تدفعه للعمل الصالح، والنهوض بالخير والبذل والعطاء. أما إذا ضعفت هذه العقيدة، لدى الأفراد، فلن يكونوا قادرين على النهوض بالعمل والدعوة، وبالتالي ستضعف هذه الأمة وتفقد الكثير من عزتها ومنعتها أمام أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر، ويكيدون لها على الدوام.

٢- تنبيه الغافلين من المسلمين إلى أهمية إحياء القلب بالإيمان، وتحذيرهم من

٤- انظر: الخطط المقريزية: ١٣/١، تقي الدين أحمد بن علي المعروف بالمقريزي، مطبعة النيل - مصر، ١٣٢٥هـ.

فعل الذنوب فإن الذنوب والمعاصي، إذا كثرت تسببت في موت القلب وهلاكه، فلا يحزن على فعل معصية ولا يندم على فوات طاعة. وإحياء القلب بالإيمان ضروري في حياة الفرد، للحفاظ على حالته الإيمانية وحتى لا يتردى بصاحبه إلى أسفل سافلين.

٣- بيان أهمية حد القصاص وضرورة تطبيقه في المجتمع، لتحقيق الحياة الهادئة للجماعة المسلمة، وصيانة أمنها واستقرارها، وتحقيق الأمن والهدوء لأفرادها، ومنع انتشار الفوضى والظلم والعدوان بينهم، ففي إقامة حد القصاص على القاتل إحياء للنفوس الأخرى، لكونه يدفع سبب الموت عن أولياء القاتل والمقتول، ويمنع القاتل من القتل، وفي هذا تحقيق لحياة الأمة بكاملها.

٤- بيان أن الموت ليس هو نهاية المطاف، وإنما هو مرحلة انتقالية من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وأن الميت في قبره يحيا حياة برزخية وأن العذاب أو النعيم فيها إنما هو نتيجة ما قدمه في دنياه من خير أو شر.

وعند قيام الساعة ترد الأرواح إلى الأجساد، ليكون الحساب والجزاء العادل، ومن ثم الجنة أو النار.

٥- بيان الأدلة التي ساقها القرآن الكريم لمنكري الإحياء، والأساليب المختلفة التي أكد بها هذه القضية كإحياء الأرض بالمطر، وإحياء الجنين في الرحم، وقضية النوم واليقظة التي ما هي إلا صورة مصغرة للموت والإحياء، وبعث أصحاب الكهف بعد نومهم ثلاثمائة وتسع سنين وازدادوا تسعا. فهذه أدلة عملية واقعية محسوسة لاينكرها منازع أو مكابر.

٦- التأكيد على بعض صفات الله عز وجل من الوحدانية، والقدرة، والإرادة،

والعلم، والحياة، وغيرها من الصفات التي توجب استحقاقه تعالى وحده للعبادة والطاعة، والاستسلام والانقياد لأوامره ونواهيه.

٧- تصوير الإحياء في الآخرة، وتقريبه للأذهان، عن طريق ذكر قصص الإحياء التي حدثت بالفعل مع بيان ما يشتمل عليه هذا القصص من حكم وعظات.

أسباب اختيار الموضوع:

١- لعل الدافع الحقيقي والأساس في اختياري لهذا الموضوع هو حبي لمادة التفسير، فلقد كانت رغبتي منذ الصغر أن أحذو حذو والدي -الذي قضى حياته في خدمة كتاب الله تفسيرا وتعليما- وأتخصص في التفسير وعلوم القرآن.

وإنه لشرف كبير لي أن وفقني الله عزّ وجلّ إلى تحقيق مرادي باختيار تخصص التفسير على غيره من التخصصات كما وفقني الله عز وجل لاختيار هذا الموضوع وللكتابة فيه.

إن العيش مع الآيات القرآنية وتفسيرها، ودراسة الموضوعات القرآنية دراسة شاملة وكاملة، هو نعمة عظيمة لا يدركها إلا من عاش في ظلالها.

٢- رغبتي الملحة في معرفة كيفية الرد على منكري البعث والإحياء في الآخرة، وإثبات وقوعه يوم القيامة، وإقامة الدليل القاطع على المعاد الجسماني وإظهار قدرة الله عزّ وجلّ على ذلك من خلال قصص واقعية وعملية، وقع فيها الإحياء لأجساد ميتة فارقتها الحياة لفترة من الزمن.

٣- لأن التفسير الموضوعي له أهميته كبيرة، فهو وسيلة ضرورية لتقديم القرآن بطريقة علمية منهجية، وإبراز عظمة هذا القرآن من خلال عرض أبعاد

ومجالات جديدة لموضوعاته مما يزيد من إقبال المسلمين عليه ويوثق صلتهم به.

وقد صدر العديد من الدراسات القرآنية الموضوعية إلا أن كنوز القرآن وجواهره لاتنفذ مهما اغترف من معينه، ويبقى المجال مفتوحا لمن أراد الاغتراف.

٤- لأن موضوع "الإحياء في القرآن الكريم" لم يتناوله أحد من طلاب ولا طالبات هذه الجامعة، بالإضافة إلى رغبتي للكتابة فيه لما فيه من ذكرى وموعظة وتربية لنفسي.

٥- أن لفظ الإحياء ومشتقاته قد ورد كثيرا في القرآن الكريم مما يدل على أهميته ووجوب العناية به.

٦- لأن من ينظر إلى الأمة الإسلامية في هذا العصر يصاب بالهول والذهول، ويعتصره الألم لما يجده من حال أفرادها، ولما يعيشونه من ضياع وانحراف وبعد عن معاني وقيم إسلامية راقية، استبدلت بقيم ومبادئ الغرب الساقطة، فأحببت أن أكتب في هذا الموضوع لعله يسهم ولو قليلا في إيقاظ ضمائر المسلمين وإحياء قلوبهم بالإيمان من جديد.

منهجي في البحث:

١- قسمت هذا البحث إلى مقدمة -سبق ذكرها- وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

أما التمهيد، فقد بينت فيه المراد بالإحياء في القرآن الكريم، من خلال دراسة لغوية لمادة "حيي" وبينت المراد بـ"الإحياء" في الاصطلاح.

وأما <u>الفصل الأول</u>: فق ذكرت فيه قصص الإحياء في القرآن الكريم وذلك في ستة مباحث:

المبحث الأول: عرضت فيه قصة إحياء بني إسرائيل بعد الصعق والمراد بأخذ الصاعقة، والمراد من بعثهم بعد صعقهم، والإسرائيليات الواردة في قصتهم، وقمت بتفنيد هذه الروايات، وبيان موقف المفسرين منها.

المبحث الثاني: تحدثت فيه عن قصة إحياء قتيل بني إسرائيل، بضربه بجزء من بقرة مذبوحة، وبينت العلاقة بين الضرب بهذه الطريقة وإعادة الحياة للميت. وهل كان ذلك الإحياء حقيقيا أم معنويا، وذكرت بعض الإسرائيليات الواردة في القصة وموقف المفسرين منها.

المبحث الثالث: عرضت فيه قصة إحياء الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الموت، وهل كانت قصتهم واقعية أم مجرد مثل، والإسرائيليات الواردة في تلك القصة مع تفنيدها تفنيدا علميا.

المبحث الرابع: تحدثت فيه عن قصة إحياء الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها فاستبعد إعادة الحياة إليها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وأمره أن ينظر إلى العظام كيف يحييها الله عز وجل ويكسوها لحماً، وذكرت اختلاف المفسرين في المراد بالعظام التي أمر أن ينظر إليها، والإسرائيليات الواردة في القصة وموقف المفسرين منها.

المبحث الخامس: تناولت الحديث فيه عن قصة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام، ولماذا طلب إبراهيم عليه السلام رؤية ذلك، وهل القصة وقعت بالفعل أم هي على سبيل التوجيه والتنبيه، وذكرت الإسرائيليات الواردة في القصة وموقف المفسرين منها.

المبحث السادس: تحدثت فيه عن معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام بإذن الله تعالى، ومعجزة خلق الطير من الطين بإذن الله، ولماذا خص عيسى عليه السلام بهذه المعجزات، ثم ذكرت الإسرائيليات الواردة في ذلك وموقف المفسرين منها.

وقد ختمت كل مبحث من هذه المباحث بذكر بعض اللطائف والفوائد التي يمكن استخلاصها من القصة.

أما الفصل الثاني: فقد تناولت فيه الحديث عن الإحياء المعنوي في القرآن، وذلك في مبحثين:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن إحياء القلوب بالإيمان، من خلال تعريف القلب والإيمان، لغة واصطلاحا، وبينت معنى إحياء القلب بالإيمان، وأهمية إحيائه، وذكرت طرق إحياء القلب، وثمرات إحيائه.

المبحث الثاني: بينت فيه كيفية إحياء النفوس بالقصاص، وذلك بعد التعريف بالقصاص لغة وشرعا، وحكمة مشروعيته، والآيات الواردة في ذلك.

الفصل الثالث: تحدثت فيه عن الإحياء بعد الموت في القرآن الكريم، وذلك في مبحثين:

المبحث الأول: بينت فيه المقصود بالإحياء في البرزخ، بتعريف البرزخ لغة واصطلاحا، وتعريف الموت، وأنه لا يُراد منه العدم، وبيان المراد بهذا الإحياء. ثم ذكرت مراتب الحياة في البرزخ بدءا من حياة الأنبياء عليهم السلام، فالشهداء، فالمؤمنين، فالعصاة، كما ذكرت حال الكفار.

المبحث الثاني: بينت فيه الإحياء في الآخرة، بتعريف البعث لغة وشرعا، وذكر مرادفاته في القرآن الكريم، وبيان حكمة البعث وغايته. ثم تحدثت عن نفختي الصور وما يحدث بينهما ثم عرضت الآيات التي تحدثت عن هيئة العباد عند البعث.

الفصل الرابع: تناولت الحديث فيه عن الأدلة القرآنية على الإحياء في الآخرة، وذلك في أربعة مباحث:

المبحث الأول: إحياء الأرض بالمطر، عرضت فيه نماذج من الآيات القرآنية

التي تحدثت عن هذا الموضوع، وتناولتها بشيء من التفصيل.

المبحث الثاني: إحياء الجنين في الرحم، بينت فيه المراد من الموتتين والحياتين للإنسان، كما بينت المراد بإخراج الحي من الميت، ثم عرضت مراحل تكوين الإنسان كما صورتها الآيات القرآنية، ثم بينت كيفية الاستدلال بإحياء الجنين في الرحم على الإحياء في الآخرة.

المبحث الثالث: الإحياء بالقيام من النوم، ذكرت فيه تعريف النوم لغة واصطلاحا، وتعريف الوفاة لغة واصطلاحا، والعلاقة بين النوم والوفاة، ثم عرّفت بالنفس والروح لغة واصطلاحا، ثم تناولت الآيات الواردة في الإحياء بالقيام من النوم بشيء من التفسير والإيضاح.

المبحث الرابع: بعث أصحاب الكهف، تحدثت فيه عن مجمل قصتهم ثم تناولت الآيات القرآنية الواردة في قصتهم بشيء من التفصيل، ثم بينت المبهمات في القصة وموقفنا منها، ثم ذكرت بعض الفوائد واللطائف المستنبطة من قصتهم.

ثم ختمت البحث بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها.

٢- اعتمدت على أمهات كتب التفسير في بيان المعنى المراد، وما ذكره الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين، بالإضافة إلى الرجوع إلى كتب التفسير الحديثة كالظلال وتفسير المراغي والتفسير المنير ... الخ.

٣- اعتمدت أساسا على ما ورد في الصحيحين من أحاديث، ولم ألجأ إلى غيرهما إلا في حالة عدم وجود الحديث بهما، وعند ذلك أذكر درجة الحديث وأقوال العلماء فيه إن وجدت.

٤- لم اعتمد على ما جاء في كتب التفسير من روايات وإسرائيليات مسكوت

عنها، وإن ذكرت شيئا من ذلك فمن باب تفنيدها والتحذير من تفسير الآيات بها.

٥- لم أقتصر على ما ورد في كتب التفسير، بل رجعت في بعض المسائل إلى كتب الفقه والعقيدة والتصوف وغيرها التي تناولت هذه المسائل بشيء من التفصيل. كما رجعت إلى الكتب العلمية الحديثة لتوفية الموضوع حقه.

٦- قمت بتخريج الآيات القرآنية الواردة في البحث بذكر اسم السورة ورقم الآية، واعتمدت على الرسم العثماني في كتابة الآيات.

٧- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، وعزوت الأحاديث إلى من أخرجها من أصحاب الكتب وبينت اسم الكتاب والباب، ورقم الحديث والصفحة وذكرت درجة الحديث المخرجة في غير الصحاح قدر المستطاع.

٨- ترجمت لبعض الأعلام ممن جاء ذكرهم في البحث، ولم أترجم للمشاهير من الصحابة والتابعين وأشهر المفسرين، ممن تغني شهرتهم عن التعريف بهم، واقتصرت في ترجمة الأعلام على ذكر اسم العلم وتاريخ مولده ووفاته إن وجد، ونبذة مختصرة عن حياته ومؤلفاته، وذلك خوف الإطالة.

كما اعتمدت في ذكر ترجمة الأعلام على كتب التراجم القديمة، ولم ألجأ إلى الكتب الحديثة إلا في حالة عدم وجود الترجمة في الكتب القديمة.

٩- عند ذكر المصدر أو المرجع لأول مرة، اذكر بيانات تفصيلية عن الطبعة، ودار النشر، ومكان الطبع وزمانه، وعند إعادة ذكر المصدر أو المرجع أكتفي بذكر اسم الكتاب والمؤلف والجزء والصفحة.

١٠- حليت البحث بفهارس عدة: فقد ألحقته بفهارس للآيات القرآنية، والأحاديث

النبوية، وفهارس الأعلام، وفهارس المصادر والمراجع، وفهرس المحتويات.

هذا ما يسره الله تعالى لي، فإن أصبت فمن الله وتوفيقه، وإن أخطأت فمــن نفسي والشيطان.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



تمهيد

أولا: دراسة لغوية لمادة " حيي"

لفظ "الإحياء" هو مصدر مشتق من الفعل "حيي" حيي حياة، وحيّ يحيا، ويحيّ فهو حي، وللجميع حيّوا بالتشديد.

وأحياء الله فحيي وحيّ،

والحي من كل شيء: نقيض الميت، والجمع أحياء.

والحي: كل متكلم ناطق، والحي من النبات: ما كان طرياً يهتز.

وأحياءه: جعله حيا، وفي التنزيل:﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [1][2]

واستحياه: أبقا حيا، وبه فسر قوله تعالى:﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[3] . أي يستبقونهن[4].

ويقال: حاييت النار بالنفخ كقولك احييتها،و حيّت النار تحيّ حياة، فهي حية.

وإحياء الليل السهر فيه بالعبادة وترك النوم.

والتحية: البقاء، وهي تفعله من الحياة.

---

[1] سورة القيامة، الآية: ٤٠.

[2] أنظر: لسان العرب لجمال الدين أبي الفضل المعروف بابن منظور:٢١١/١٤، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى، والقاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي:١٦٤٩/١، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي.

العين للخليل بن حمد الفراهيدي: ٣١٧/٣، دار الهلان (بدون تاريخ) تحقيق: د. مهدي المخزومي.

[3] سورة البقرة، الآية: ٤٩.

[4] معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأطفهاني: ١٤٠، دار الكاتب العربي، عنيت بنشره المكتبة المرتضوية لإحياءالجعفرية. تحقيق: نديم مرعشلي.

وحياك الله أي أبقاك من الحياة وهو البقاء. يقال: أحياء الله وحيّاة بمعنى واحد.

وأرض حية: مخصبة. كما قالوا في الجدب ميتة، وأحيينا الأرض، وجدناها حية النبات غصنة.

وأحيا القوم: أي صاروا في الحيا وهو الخصب.

وأتيت الأرض فأحنيتها أي وجدتها خصبة، وأحييت االأرض إذ استخرجت.

وفي الحديث" من" **أحيا مواتاً فهو أحق به**"[٥]. الموات: الأرض التي لا يجر عليها ملك أحد، وإحياؤها مباشرتها بتأثير شيء فيها من إحاطة أو زرع او عمارة ونحو ذلك، تشبيها بإحياء الميت[٦].

والحيا: المطر والخصب، وحيا الربيع، ما تحيا به الأرض من الغيث، وسمي المطر "حيا" لاحيائه الأرض[٧].

وفي حديث عمر: "لا آكل السمين حتى يحيا الناس"[٨]، أي حتى يمطروا ويخصبوا فإن المطر سبب الخصب.

---

[٥] ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٥٧/٤، وقال رواه الطبراني في الكبير ورجاله الصحيح، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن ابي بكر الهيثمي، دار الريان، ودار الكتاب العربي – القاهرة. ١٤٠٧هـ.

[٦] أنظر: لسان العرب لابن منظور: ٢١١/١٤ – ٢١٧، القاموس المحيط للفيروز آبادي: ١٦٤٩/١، والعين للفراهيدي: ٣١٧/٣.

[٧] أنظر: معجم مفردلات ألفاظ القرآن للراغب الأصفاهي: ١٣٨، بصائر ذوي في لطائف الكتاب العزيز: للفيروز آبادي:٥١٤/٢، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية – القاهرة، ١٣٨٥ هـ، تحقيق: محمد على النجار.

وعمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ لشهاب الدين أحمد بدر يوسف المعروف بالسمين الحلبي، ١٤٨، دار السيد للنشر – استنبول، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، تتحقيق: محمد السيد الدغيم.

وأحيا القوم: إذا مُطروا، فأصابت دوابهم العشب حتى سمنت، وأحيا الله الأرض: اخرج فيها النبات، وأحياها بالغيث[9].

فلفظ "حيي" في اللغة، يدل على معنى الحياة، سواء أكان متعلقاً بنبات بأن يكون طرياً يهتز...

أو بنار بان تكون مشتعلة متقدة...

أو بنار بأرض بأن تكون خصبة... أو بليل بان يسهر فيه العبادة والقيام.

كما يدل على معنى البقاء والحفاظ على الحياة ، كما في لفظي الاستيحاء والتحية.

وهذا اللفظ يجيء على شيء ما، يكون فد فقد شيئاً أو أختل فيه شيء فأعاده إليه،

فإحياء الميت إعادة الروح إليه، وجعله حيا من جديد

وإحياء النبات ... جعله أخضر نديا بعد أن كان جافاً يابساً.

وإحياء النار... إعادة الاشتعال والاتقاد إليها.

وإحياء الأرض.. إعادة الخصب والعمار إليها بعد أن أقحلت وجف زرعها وصارات مواتا، حتى أنه أطلق على المطر والغيث لفظ "الحيا" لما له من دور في إحياء الأرض، ومن ثم أحياء الحيوان والناس.

---

[8] أخرجه الإمام لمالك في موطأة كتاب ما جاء في صفة النبي صلى الله عليه وسلم"، باب "جامع ما جاء في الطعام والشراب": ٩٣٢/٢، حديث رقم: ١٦٦٧، دار إحياء التراث العربي – مصر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بدون تاريخ.

[9] أنظر: لسان العرب لابن منظور: ٢١٧/٤، والقاموس المحيط للفيروز آبادي: ١٦٤٩/١.

ثانيا: الاحياء في الاصطلاح:

لفظ الحياة المشتق من الفعل "حي"، يستعمل في القرآن الكريم على أوجه:

الأول: القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان، ومنه قيل بات حي، قال تعالى: **﴿ اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها﴾** [10] ، وقال تعالى **﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾**[11].

الثاني: للقوة الحساسة، وبه سمي الحيوان حيواناً، قال تعالى : **﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾** [12]، وقوله : **﴿ إِنَّ الَّذي أحياهَا لَمُحْيي الْموتَى﴾**[13].

الثالث: للقوة العاملة العاقلة، قال تعالى : **﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فأَحْيَيْنَا ﴾**[14]. وقال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

الرابع: عبارة عن ارتفاع الغم، وإليه أشار من قال:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفاً باله قليل الرجاء

ومن قوله تعالى: **﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذين قُتلوا في سبيل اللهِ أمْوَاتاً بَلْ أحياءٌ عِندَ ربِّهِمْ يُرزقُون﴾**[15]،أي يتلذذون لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشهداء.

---

[10] سور الحديد، الآية: ١٧.

[11] سورة الفرقان، الآية: ٤٩.

[12] سورة فاطر، الآية: ٢٢.

[13] سورة فصلت، الآية: ٣٩.

[14] سورة الأنعام، الآية:١٢٢.

[15] سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

الخامس: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال تعالى: وقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ[16]﴾، ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[17] يعني بها الحياة الأخروية الدائمة.

السادس: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل في شأنه تعالى: ﴿ هو حي﴾ فمعناه لا يصح عليه الموت وليس ذلك إلا الله.

والحياة باعتبارعه الدنيا والآخر ضربان: الحياة الدنيا، والحياة الآخر، قال تعالى: ﴿ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾[18]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا إلا مَتَاع﴾ [19]، أي الأعراض الدنونية[20]

السابع: الحياة بمعنى الخلق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [21]، أي خلقكم[22].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [23].

الثامن: الحياة بمعنى البقاء. قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [24].

---

[16] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

[17] سورة الفجر، الآية: ٢٤.

[18] سورة البقرة، الآية : ٨٦.

[19] سورة الرعد، الآية: ٢٦.

[20] أنظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الاصفهاني: ١٢٨-١٤٤، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي: ١٤٦-١٤٧، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي: ٢/٥١٥-٥١٤.

[21] سورة الحج، الآية: ٦٦.

[22] تفسير القرآن العظيم ابن كثير:٣/٢٣٤، مطبعة الاستقامة – القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م.

[23] سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

[24] سورة المائدة، الآية ٢٣.

وقال تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ....﴾[٢٥]، أي بقـــاء[٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُـذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .... .﴾ [٢٧]. أي يستبقونهن[٢٨].

وقد ورد هذا الفعل بمشتقاته ومعانيه مائة وسبع سبعين مرة، وعلى المعنـــى الأول للحياة القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان، ورد في القرآن الكريم ستة وعشرين مرة.

وورد بمعنى القوة الحساسة خمس وثلاثين مرة، وورد بمنعى القوة العاملـــة العاقلة عشر مرات، وورد بمعنى ارتفاع الغم مرتين، وبمعنى الحيـــاة الأخرويـــة الأبدية مرتين وورد بمعنى الحياة التي يوصف بها الباري خمس مرات.

بينما ورد بمعنى الخلق أربع مرات، وورد لفظ الحياة بمعنى البقـــاء ثمـــان مرات.

وورد لفظ الحياة الدنيا أكثر من سبعين مرة[٢٩].

---

[٢٥] سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

[٢٦] جامع البيان في تأويل أي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري: ١١٥/٢، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٥ هـ.

[٢٧] سورة البقرة، الآية: ٤٩.

[٢٨] زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمـد الجـوزي: ٧٨/٦، المكتـب الاسلامي للطباعة والنشر، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٦٤م.

[٢٩] أنظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي: ٢٢٣ – ٢٢٥، سهيل أكيدمي، لاهور – باكستان، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.

وقد جاء في تعريف الأحياء ما يلي:

الأول: "الاحياء: إعادة الحياة إلى كل من كان حياً فأميت"[30].

ويؤخذ على هذا التعريف ما يلي:-

أولا: إنه اشترط وجود الحياة، فخص الإحياء بمن كان يتمتع بالحياة من قبل، ثم فقدها بالموت، فيكون الأحياء بإعادتها إليه من جديد.

ثانيا: قصوره وعدم شموله، فهو مختص بالإنسان دون غيره من الجماد والحيوان، بدليل حرف "من" الذي يستعمل للعاقل فقط.

وبهذا فإن هذا التعريف لا ينطبق على جميع أشكال الإحياء، كإحياء الحيوان والنبات، وإحياء الأرض بالماء أوإحياء النطفة في الرحم، أو إحياء القلب بالإيمان والنفس بالقصاص.

الثاني: جعل الشيء حياً[31]: وقد شرحه صاحبه فقال: "فالمادة الترابية أو النطفية إذا افيضت عليها الحياة، صدق أنهاصارت ذات حياة على الحقيقة، إذا لا يحتاج إلى سبق كون على الحقيقة بل إلى سبق عدم الحياة، فهناك إحياء حقيقة"[32].

وأرى أن هذا التعريف يختلف عن التعريف السابق بأن جعل الإحياء يطلق على أي شيء اتصف بالحياة بمعنييها الحقيق والمجازي، دون اشتراط لوجود الحياة من قبل.

بينما خص سابقة الإحياء بمن كان يتصف بالحياة من قبل ثم فقدها.

---

[30] شعب الإيمان أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: ١/٢٤٠، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد بسيوني زغلول.

[31] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع الثاني لأبو الفضل محمود الآلوسي: ٢٤/٥٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت (بدون تاريخ).

[32] المرجع السابق.

وبناء على التعريف، فإن كل شيء كان عندما ثم جعل حياً، فهو داخل ضمن مفهوم الإحياء، وهذا يعطي للتعريف شمولاً وعمقاً، بحيث يندرج تحته جميع اشكال الإحياء.

فهو لا يختص بالإنسان فقط، بل يعم الحيوان والنبات والجماد، وأي شيء يملك اتصافه بالحياة.

وإن كان معنى إعادة الحياة لمن فقدها هو العنى الأشهر والأكثر استعمالاً في اللغة، إلا أن المعنى الآخر هو الأعم والأكثر شمولاً، والله أعلم.

وعلى هذا فلفظ "الإحياء" يمكن إطلاقه على المعنيين:

الأول: إعادة من جديد إلى كل مخلوق كان حياً فأميت.

الثاني: جعل الشيء متصفاً بالحياة، سواء سبق بحياة ام لا.

الفصل الأول

قصص الإحياء في القرآن الكريم



تمهيد

القرآن الكريم كتاب الله تعالى أنزله هداية للناس كافة، يبين لهم الحق، ويهديهم إلى ما هو خير لهم في دينهم ودنياهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ...﴾[١].

ومن هداية القرآن أنه اشتمل على العديد من القصص، الذي قصه الله عزوجل للعبرة والغطة، لا لمجرد التسلية والمتعة.

وفي عرض قصص السابقين تربية للمكلفين وتنشئة لهم أيما تنشئة، يقول الأستاذ سيد قطب: "إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى ... ولكنه دستور شامل ... دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن بصفة خاصة تجارب البشرية، بصورة موحية على الجماعة المسلمة التي جاء لينشئها ويربيها، وتضمن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية في الأرض، من لدن آدم عليه السلام، وقدمها زادا للأمة المسلمة في جميع أجيالها، تجاربها في الأنفس، وتجاربها في واقع الحياة، كي تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهي تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع.

ومن ثم جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء[٢].

كما أن القرآن الكريم يتخذ من هذا القصص وسيلة لعرض حقائق الدين وإقرارها، حيث يقرنها بالدليل المنتزع من الواقع، والمأخوذ مما يعيشه الناس، ويتعاملون به، وبهذا يكون للدليل القرآني سهولته ويسره، وتأثيره وحيويته، ونجاحه في تقرير الحقائق التي يتحدث عنها، فالقصص القرآني لا يراد لذاته، ولا يراد منه مجرد

١- سورة الإسراء، الآية: ٩

٢- في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٢٦١، دارالشروق، الطبعة التاسعة، ١٩٨٠م

المتعة القصصية، واللذة النفسية، لأن هذا متحقق فيه، ولكن القرآن الكريم يوظف هذا القصص وسيلة إلى غاية شريفة، وهي إقرار الحقائق والتدليل عليها"[٣].

ومن قصص القرآن الكريم قصص الإحياء، حيث عرض القرآن قصص أناس أحياهم الله بعدما أماتهم، مما يدل على اهتمام القرآن بقضية البعث وتقريره، لارتباطه بالإيمان بالله وتوحيده، لذلك نجد أن القرآن قد برهن على الإحياء والبعث بأساليب متنوعة، وكان من بين هذه الأساليب، البرهنة الحسية على الإحياء، من خلال عرض قصص واقعية، تم فيها إعادة الحياة لأجساد ميتة فارقتها الحياة.

وقد قدم من خلالها دليلا على المعاد، وردا على مزاعم منكري البعث، الذين ينكرون عودة الحياة إلى الجسد بعد الموت **﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾**[٤].

إن البعث يدل على العدل الإلهي، حتى لا تكون حياة الإنسان بلا غاية أو بلا هدف. فالبعث حق، وهو واقع لا شك، وقد أكد الله عزوجل على ضرورة البعث بقوله -ردا على من أنكره-: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**[٥].

طبيعة الموت في قصص الإحياء:

إن الموت الذي وقع للأجساد في قصص الإحياء في القرآن، ليس موتا نهائيا، انتهت عنده الآجال، وإنما هو موت خاص، حيث ردت إليهم الحياة من جديد ليستكملوا آجالهم التي قدرت لهم.

٣- انظر: مع قصص السابقين في القرآن الكريم، د. صلاح الخالدي: ٢٤٦/١، دارالقلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٨م

٤- سورة الإسراء، الآية: ٤٩

٥- سورة النحل، الآية: ٣٨

ذلك لأن الإنسان إذا انتهى أجله، وفارقت روحه جسده، فإن الحياة لا ترد إليه من جديد إلا يوم القيامة، ولم يثبت أن إنسانا مات موتا نهائيا ثم أعاد الله له الحياة في الدنيا.

والأمثلة المذكورة في القرآن الكريم كان الموت فيها، موتا خاصا وليس موتا نهائيا، والدليل على ذلك ما رواه الترمذي عن جابر بن عبدالله قال: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: يا جابر، ما لي أراك منكسرا، قلت يا رسول الله، استشهد أبي، قتل يوم أحد، وترك عيالا ودينا، قال: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: ما كلم أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحا، فقال: يا عبدي تمن علي أعطك، قال: يا رب تحييني فاقتل فيك ثانية، قال الرب عزّ وجلّ: "إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون" قال: وأنزلت هذه الآية: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا﴾**[6][7].

فلو شاء الله إعادة روح ميت إلى جسده، للبى رغبة الشهداء وأعاد أرواحهم إلى أجسَادهم، ولكن سنة الله أن لا يكون ذلك في الدنيا، ولهذا تركهم يسرحون في الجنة إلى قيام الساعة.

والشاهد من هذا الحديث في قول الله عز وجل للعبد "إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون" أي هذه سنة الله في الذين ماتوا وغادروا الدنيا، لا يرجعون إليها ثانية[8].

٦- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن الرسول، باب: ومن سورة آل عمران، حديث رقم: ٣٠١٠، ٢٣٠/٥، وقال حديث حسن غريب، دارإحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون

٧- سورة آل عمران، الآية: ١٦٩

٨- انظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث د. صلاح الخالدي ٢١٦/٣، دارالقلم – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨

روى الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[٩]، قوله: "مقتهم الله على فرارهم من الموت، فأماتهم الله عقوبة، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها، ولو كانت آجالهم جاءت ما بعثوا بعد موتهم"[١٠].

فموتهم لم يكن موتا نهائيا، بدليل رجوعهم للحياة مرة أخرى. يقول ابن عطية[١١] في ذلك: وهذا الموت ظاهر الآية، وما روي في قصصها أنه موت حقيقي فارقت فيه الأرواح، وإذا كان كذلك، فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاء كمرض حادث مما يحدث للبشر"[١٢].

وذكر ابن أبي بكر الرازي[١٣] هذه المسألة، فقال: "فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[١٤]، وقوله: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ

٩- سورة البقرة، الآية: ٢٤٣

١٠-جامع البيان للطبري: ٥٨٩/٢

١١- ابن عطية: هو عبدالحق بن غالب بن عطية المحاربي من محارب قيس، أندلسي من أهل غرناطة، ولد سنة إحدى وثمانين وأربع مائة، مفسر فقيه، توفي سنة اثنان وأربعون وخمس مائة، (انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي: ٥٣/٤، دارالعلم للملايين – بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م؛ وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة: ١٦١٣/٢، طبع بعناية وكالة المعارف، ١٩٤٣م).

١٢-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: ٢٤٧/٢، تحقيق المجلس العلمي – فاس، ١٩٩٢م

١٣-هو زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر بن عبدالمحسن الرازي الحنفي، أصله من الري، ولد سنة اثنان وخمسين وتسعمائة، كان عظيم الشأن صاحب تحقيق وإتقان، بارعا في علوم كثيرة، غاية في الورع، بصيرا بالعربية، إماما في اللغة، صنف في التفسير والفقه واللغة والوعظ، زار مصر والشام، توفي في قوينة سنة ست وستين وستمائة، (انظر: الأعلام للزركلي: ٥٥/٦)

١٤-سورة البقرة، الآية: ٢٤٢

﴿إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾[١٥]، قلنا: المراد بالآية الأولى إماتة العقوبة مع بقاء الأجل، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل،..."[١٦].

فلا تعارض بين هذه القصص، وبين النصوص التي قررت أن الإنسان عندما يموت لا يعود للحياة الدنيا، كقوله تعالى: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾**[١٧].

لأن مثل هذه النصوص في الإنسان الذي يموت، وينتهي أجله المقدر له في الدنيا، ويستوفي ذلك الأجل الذي كتبه الله له قبل خلق الكون.

أما إذا قدر الله لرجل أو جماعة أن يموت موتا خاصا، وقدر له أن يستكمل أجله الذي قدره الله منذ الأزل، فإن ذلك الموت الخاص يكون لإظهار القدرة ولإثبات البعث بعد الموت[١٨].

وهكذا فقد كان الموت في هذه القصص موتا خاصا، توقفت الحياة الظاهرية في الجسد فترة زمنية محددة، ثم عادت من جديد.

موقفي من الإسرائيليات:

لفظ الإسرائيليات، جمع مفرده إسرائيلية، وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي. وهذا اللفظ –وإن كان يدل بظاهره على القصص الذي يروى أصلا من مصادر يهودية– يستعمله علماء التفسير والحديث ويطلقونه على ما هو أوسع وأشمل من القصص اليهودي.

فهو في اصطلاحهم يدل على كل ما تطرق إلى التفسير والحديث من أساطير قديمة منسوبة في أصل روايتها إلى مصدر يهودي أو نصراني أو غيرهما.

١٥- سورة الدخان، الآية: ٥٦

١٦- النموذج الجليل في أسئلة وأجوبة آي التنزيل، لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١٧، تحقيق وتصحيح: إبراهيم عطوه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦١م

١٧- سورة المؤمنون: الآيتان: ٩٩-١٠٠

١٨- انظر: مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي: ٦٩/٣

وإنما أطلق علماء التفسير والحديث لفظ الإسرائيليات على كل ذلك من باب التغليب للون اليهودي على غيره لأن غالب ما يروى من هذه الخرافات والأباطيل يرجع في أصله إلى مصدر يهودي[١٩].

وتقسم الإسرائيليات من حيث القبول والرفض إلى ثلاثة أقسام:

١- قسم جاء موافقا لما في شرعنا، وهذا القسم نصدقه وتجوز روايته.

٢- قسم جاء مخالفا لما في شرعنا، وهذا القسم نكذبه، ولا تجوز روايته إلا لبيان بطلانه.

٣- قسم سكت عنه شرعنا، وهذا القسم نتوقف فيه فلا نحكم عليه بصدق ولا بكذب، وتجوز روايته، لأن غالب ما يروى من ذلك راجع إلى القصص والأخبار لا إلى العقائد والأحكام[٢٠].

ولكني أميل إلى الرأي القائل بعدم جواز ذكر المسكوت عنه وروايته إلا من باب التحذير منه، لكونه يتعارض مع منهج القرآن في البحث والعلم والمعرفة.

يقول الأستاذ أحمد شاكر: "إن إباحة التحدث عنهم، فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن، وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل منها شيء آخر. لأن في إثبات ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه، مبين لمعنى كلام الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه وحاشا لله ولكتابه من ذلك"[٢١].

١٩- انظر: الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. محمد حسين الذهبي: ١٣-١٥، دار التوفيق النموذجية - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م

٢٠- انظر: المرجع السابق: ٥٤

٢١- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، لأحمد شاكر: ١٥/١، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة، (بدون تاريخ)

ويقول الدكتور الذهبي: "وأنا أميل إلى هذا الرأي حماية لكتاب الله عز وجل عن لغو الحديث، وصونا عن الفضول، والتزيّد بما لا طائل تحته ولا خير فيه"[٢٢].

والقرآن الكريم عندما يعرض قصص السابقين، لا يعنى بذكر تفاصيل الوقائع والأحداث، وإنما يركز على المشاهد التي تحوي دروسا ودلالات، وتقدم العبر والعظات.

وفي القرآن الكريم إشارات حول منهج البحث العلمي السليم، للنظر في قصص السابقين. ومن ذلك قوله تعالى في ختام قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[٢٣].

وقوله في قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٢٤].

إن هذه الجملة ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ..﴾ تقدم لنا توجيها تاريخيا، مؤداه أننا لم نكن مع السابقين وهم يعيشون أحداث قصصهم، فمن أين نعرف هذه التفاصيل. واليهود الكاذبون المحرفون لم يكونوا لدى من سبقهم من الأقوام، فكيف يعرفون أحداثهم ووقائعهم؟!

إن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ..﴾ دعوة لكل باحث ودارس للقصص القرآني أن يقف عند المصادر اليقينية الصحيحة في ذلك، وهي الآيات والأحاديث الصحيحة[٢٥].

ومن هنا فقد أجملت أشهر الروايات الإسرائيلية، وذكرتها، ليس من باب التصديق بها، وتفسير الآيات من خلالها، وإنما من باب التحذير من قبولها وروايتها، وتفسير كلام الله عز وجل بها، لذلك لم أتوسع في ذكرها، وأقتصرت على المشهور منها.

٢٢-الإسرائيليات في التفسير والحديث، د. ذهبي: ٢٠٣

٢٣-سورة يوسف، الآية: ١٠٢

٢٤-سورة آل عمران، الآية: ٤٤

٢٥-انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٧٥/١

ثم أوردت رد العلماء والمفسرين على مثل هذه الروايات، حتى وإن كانت من المسكوت عنه أحيانا، لأنه لا يمكن إقامة الدليل على صدقها، وهي بذلك لا تتفق مع المنهجية العلمية المطلوبة في مثل هذه الرسائل.

منهجي في عرض القصص:

أما منهجي في عرض قصص الإحياء فقد رتبت القصص على حسب ورودها في المصحف وبدأت كل قصة بذكر الآيات الواردة فيها، ثم ذكرت مجمل القصة مكتفية بحديث الآيات عنها، وحرصت على البقاء في جو النص القرآني، وعدم الخروج عنه.

كما اعتمدت على الأحاديث الصحيحة لأنهما المصدران الوحيدان اللذان يعتمد عليهما في معرفة أحداث القصص والوثوق في صحتهما، ثم أورد بشيء من التفصيل بعض المسائل التي لها تعلق بموضوع الإحياء.

ثم أذكر الإسرائيليات الواردة في كل قصة، بإيجاز واختصار للتنبيه عليها، والتحذير منها.

ثم أختم القصة ببيان الفوائد واللطائف التي تستنبط منها، والتي أخذتها من كتب التفسير المختلفة، سواء أكانت دروسا إيمانية أو دعوية أو علمية أو إنسانية أو حضارية أو جهادية ... الخ.

وقد صغتها على شكل فوائد ودروس مستخرجة من تلك القصص، باعتبارها أهم ما نحتاجه في هذا الزمان. وما عرضته من دروس وفوائد هو يسير قليل، وهو غيض من فيض وقد تركت منها الكثير خوف الإطالة.

المبحث الأول

قصة إحياء بني إسرائيل بعد الصعق

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٢٦]

المطلب الأول: مجمل القصة

حسد بنو إسرائيل موسى عليه السلام على تكليم الله له، فقالوا: لماذا يكلمك الله ولايكلمنا، ولا نسمعه ولا نراه؟ إنا لن نؤمن حتى نراه جهرة بعيوننا.

وهذا يدل على عنادهم وجهلهم بالله تعالى، حيث طلبوا رؤيته بالأبصار، وما دروا أنهم بذلك يطلبون ما لا يطيقون وما دروا أن موسى عليه السلام وهو النبي الكليم حينما طلب أن ينظر إلى ربه، قال له تعالى: (لن تراني)[٢٧]. وحينما تجلى ربه

٢٦-سورة البقرة: ٥٥-٥٦

٢٧-وقد ذهب المعتزلة ومنهم الزمخشري في تفسيره "الكشاف" إلى أن رؤية الله عز وجل محال وقوعها في الدنيا والآخرة، فقال: "وفي هذا الكلام دليل على أن موسى عليه السلام رد عليهم القول، وعرفهم أن رؤية ما لا يجوز عليه أن يكون في جهة محال، وأن من استجاز على الله الرؤية فقد جعله من جملة الأجسام أو الأعراض" (انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل لجار الله محمود بن عمر الزمخشري: ١٤١/١، دارالكتاب العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ).

فبين أن العقوبة سببها طلب ما لا يجوز على الله تعالى من الرؤية. والصحيح أن رؤية الله تعالى لاتحصل إلا في الآخرة، حتى عندما طلب موسى عليه السلام رؤية ربه قال له: "لن تراني" فأخبره أنه لن يقدر ولن يتحمل رؤيته في الدنيا، أما في الآخرة فهي ثابتة ومتحققة. وقد وردت الآيات وتواترت الأحاديث على أن رؤية الله عزّ وجلّ واقعة في الآخرة. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، (سورة القيامة، الآية: ٢٢-٢٣) أي تنظر إلى ربها. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، (سورة يونس، الآية: ٢٦)

وقد وضح رسول الله صلى الله عليه وسلم الزيادة بأنها النظر إلى الله في الجنة، فعن صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة،

تبارك وتعالى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، وما كان سؤال موسى عليه السلام للرؤية إلا شوقا لله مع الإيمان به، وهؤلاء سألوا الرؤية تعنتا وكفرا، فعلقوا الإيمان بموسى على رؤيتهم لله جهرة فكان سؤالهم سؤال تعنت وعناد.

وهكذا أثبت قوم موسى عليه السلام أنهم لا يسلمون وجوههم لله تعالى إلا إذا لويت أعناقهم بمعجزة حسية باهرة، وهذا يشير إلى قسوة قلوبهم وشدة تمسكهم بالحسيات والماديات.

وتنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ.

(أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام إني أراه، وفي قوله رأيت نورا: ١٦٣/١، حديث رقم ١٨١)

وعن جرير قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة -يعني البدر- فقال: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب" (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العصر: ٢٠٣/١، حديث رقم ٥٢٩، دار ابن كثير للنشر - بيروت، ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا).

والأحاديث الصحيحة المثبتة لرؤية الله عز وجل يوم القيامة كثيرة. فهذه الأدلة صريحة في وقوع الرؤية في الآخرة، فلا ينبغي التحول عنها إلى غيرها. يقول الشوكاني "وزعموا أن العقل قد حكم بها -أي بعدم وقوع الرؤية في الآخرة-، وهي دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب". (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني: ٨٧/١، دارالفكر - بيروت، ١٩٨٣م).

والخلاصة أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة يوم القيامة، أما في الدنيا فهي متعذرة كما تقدم في الآيات (ولهذا قال الله عز وجل لموسى عليه السلام عندما طلب الرؤية "لن تراني") لأنه لا يتحمل ذلك، أما في الآخرة فالرؤية متحققة لمن شاء الله له ذلك من المؤمنين.

وسأكتفي بهذا الرد المختصر حتى لا نخرج عن موضوعنا، ولمن أراد الزيادة فعليه بالرجوع إلى مظانه.

وقد عوقبوا على هذا الطلب المتعنت بالصاعقة، وكان ذلك انتقاما منهم على تكذيبهم لموسى عليه السلام وتحديهم له، وقد أذهبت هذه الصاعقة عنهم الحياة فترة من الوقت، ثم رد الله إليهم الحياة من جديد ليعرفوا فضل الله عليهم ويشكروه على نعمه الجليلة[٢٨].

المطلب الثاني: المراد بأخذ الصاعقة:

قال تعالى: ﴿...فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

جاء في تعريف الصاعقة لغة: صَعِق الإنسان صعقا وصعقًا فهو صعِقٌ: غشي عليه، وذهب عقله، من صوت يسمعه كالهزة الشديدة، وصعِق صعقا: مات، والصعق مثل الغشي يأخذ الإنسان من الحر وغيره.

والصاعقة والصعقة: الصيحة يغشي فيها على من يسمعها أو يموت[٢٩].

وقال الأصفهاني[٣٠] في تعريف الصاعقة: "قال بعض أهل اللغة الصاعقة على ثلاثة أوجه: الموت... والعذاب... والنار، وما ذكروه فهو أشياء حاصلة من

٢٨- انظر: جامع البيان للطبري: ١/٢٨٩-٢٩٣، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٩٤.
أنبياء الله لأحمد بهجت: ٢٤٠-٢٤١، دارالشروق - القاهرة، الطبعة الثانية عشر، ١٩٨٤م؛ والقصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٣/٢١٠-٢١٣.

٢٩- انظر لسان العرب لابن منظور: ١٠/١٩٨

٣٠- الراغب الأصفهاني هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء من أهل "أصبهان" سكن بغداد واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي.
من كتبه: محاضرات الأدباء، الأخلاق، تفصيل النشأتين، توفي سنة خمسمائة واثنتين هجرية.
(انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي: ٢/٢٥٥؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: ٤/٥٩، مطبعة الترقي- دمشق ١٩٥٧م).

الصاعقة، فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها"[٣١].

وهذا المعنى الذي ذكره الراغب الأصفهاني هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، فذكروا أن المراد بالصاعقة هنا هو ما أدى إلى موتهم وما تسبب فيه، واختلفوا في ذلك السبب على ثلاثة آراء: الأول: أنها نار وقعت من السماء فأحرقتهم.

الثاني: صيحة جاءت من السماء.

الثالث: أن الله عز وجل قد أرسل جنودا سمعوا بحسيسها فخروا صعقين[٣٢].

والصاعقة قد تصيب الإنسان فيصعق ويموت، وقد تصيب فيصعُق ولا يموت بل يغشى عليه.

يقول الطبري: "وأصل الصاعقة هي كل أمر هائل رآه الإنسان، أو عاينه أو أصابه، حتى يصيب من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فهم، أو فقد بعض آلات الجسم، صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفا"[٣٣].

فهي لا تؤدي دائما إلى الموت، فقوله تعالى: ﴿**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**﴾[٣٤] المراد من صعق موسى عليه السلام هو الغشي وليس الموت، لأنه قال بعد ذلك "**فَلَمَّا أَفَاقَ**" والإفاقة لا تكون عن الموت، بل عن الغشي[٣٥].

٣١-معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني: ٨٣٣

٣٢-انظر: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: ٨٦/٧، دارإحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة

الكشاف للزمخشري: ١٤٢/١؛ وفتح القدير للشوكاني: ٨٧/١

٣٣-جامع البيان للطبري: ٢٩٠/١

٣٤-سورة الأعراف، آية ١٤٣

٣٥-انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي: ١٠٣/١، دارإحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، فتح القدير للشوكاني: ٨٧/١

ذكر المفسرون أن هذه الصاعقة قد أدت إلى موتهم، يقول الطبري: "من بعد موتكم" أي من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم، وتدل الآية على أن القوم ماتوا بالصاعقة ثم أحياهم الله بعد موتهم، وكان موتهم موتا خاصا عقوبة من الله على طلبهم، ولم يكن موتا حقيقيا انتهت به آجالهم، لأن من انتهى أجله فمات، لا ترد له الروح إلا يوم البعث"[٣٦].

ونحن لا نشك في قدرة الله المطلقة، ونؤمن بأنه فعال لما يريد ولكن موتهم هذا لم يكن موتا نهائيا وهو يختلف عن الموت الذي تنتهي عنده الآجال، كما أن بعثهم يختلف عن بعث الخلائق يوم القيامة، يقول الشيخ ابن عاشور: "فإن قلت إن الموت يقتضي انحلال التركيب المزاجي، فكيف يكون البعث بعده في غير يوم إعادة الخلق؟ قلت: الموت هو وقوف حركة القلب، وتعطيل وظائف الدورة الدموية، فإذا حصل عن فساد فيها، لم تعقبه حياة إلا في يوم إعادة الخلق... وإذا حصل عن حادث قاهر منع وظائف القلب من عملها، كان للجسد حكم الموت في تلك الحالة، لكنه يقبل الرجوع، إن عادت إليه أسباب الحياة بزوال الموانع العارضة... والموت بالصاعقة إذا كان عن اختناق أو قوة ضغط الصوت على القلب قد تعقبه الحياة بوصول هواء صاف جديد، وقد يطول زمن هذا الموت في العادة ساعات قليلة، ولكن هذا الحادث كان خارق عادة فيمكن أن يكون موتهم قد طال يوما وليلة كما روي في بعض الأخبار، ويمكن دون ذلك"[٣٧].

وقد ذهب بعضهم[٣٨] إلى أن الصاعقة لم تؤد إلى موتهم، وإنما أغشي عليهم، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فالصاعقة لا تؤد إلى الموت وإنما للغشي، كما استدلوا بقوله تعالى: "وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" فقد أخذتهم الصاعقة عيانا

٣٦- انظر: تفسير الطبري، تقريب وتهذيب: ٢٣٥/١، د. صلاح الخالدي، دار القلم- بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م

٣٧- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ٥٠٨/١، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩م

٣٨- انظر: روح المعاني للألوسي: ٢٦٢/١؛ وزاد المسير لابن الجوزي: ٨٧/١

جهارا، وهم ناظرون إليها، فلو كانوا أمواتا ما نظروا إليها.

وقد رد ابن الجوزي على هذا الرأي فقال: "وهذا قول ضعيف، لأن الله تعالى فرق بين الموضعين، فقال هناك "فلما أفاق" وقال هنا: "ثم بعثناكم" والإفاقة للمغشي عليه، والبعث للميت"[٣٩]. وقوله تعالى "وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ" لا يدل على أنهم لو كانوا أمواتا ما نظروا إليها، بل المراد من ذلك أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم والواقعة عليهم، لا آخرها الذي ماتوا عنده[٤٠].

وجائز أن يكون القوم قد ناموا نوما عميقا، وضرب على آذانهم كما هو الحال في قصة أصحاب الكهف، حيث يقول تعالى: **﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾**[٤١].

ويكون المراد من "بعثناكم بعد موتكم" بعد نومكم، لأن النوم يعتبر موتا أصغر، كما في قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾**[٤٢].

يقول الراغب: "والنوم من جنس الموت، فجعل التوفي والبعث منهما سواء"[٤٣].

والراجح هو ما ذهب إليه جمهور المفسرين -كما ذكرنا سابقا- من أنهم قد ماتوا موتا خاصا وليس نهائيا انتهت به آجالهم. ولم يكن هذا الموت نوما أو غشيانا.

وخلاصة ذلك أن القوم قد ماتوا فعلا بالصاعقة، وذهبت عنهم الحياة لفترة من الوقت نجهلها لأن الآيات لم تحددها لنا، وهذه الصاعقة قد تؤدي إلى الموت كما في

٣٩-زاد المسير لابن الجوزي: ٨٣/١

٤٠-فتح القدير للشوكاني: ٨٧/١

٤١-سورة الكهف، آية: ١١-١٢

٤٢-سورة الأنعام، آية: ٦٠

٤٣-معجم مفردات ألفاظ القرآن: ٥٢

قصة هؤلاء، وقد تؤدي إلى الإغماء كما في قصة موسى عليه السلام عندما طلب الرؤية، فأمره الله عز وجل أن ينظر إلى الجبل فإن بقي مستقرا فسوف يراه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾[٤٤].

فالإنسان قد يصعق ويموت، كما في قصتهم لذلك قال: "ثم بعثناكم" أي أحييناكم بعد موتكم.

والإنسان قد يصعق ولا يموت، كما في قصة موسى عليه السلام الذي قال في شأنه "فلما أفاق" أي من الإغماءة. والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث: المراد من بعثهم

البعث في اللغة له عدة معاني: أحدهما الإرسال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾[٤٥] معناه: أرسلنا، والثاني: إثارة بارك أو قاعد، تقول: بعثت البعير فانبعث أي أثرته فثار.

والثالث: الإحياء من الله تعالى للموتى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٤٦] أي أحييناكم. وتأويل البعث: إزالة ما كان يحبسه عن التصرف والإنبعاث[٤٧].

البعث في الاصطلاح: قال الراغب في تعريفه: "أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه... ويختلف بحسب اختلاف ما عُلق به... وهو ضربان: بشري: كبعث البعير وبعث إنسان في حاجة، وإلهي: وذلك ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع ويختص به الباري تعالى ولم يقدر عليه أحد، والثاني: إحياء الموتى وقد خُص بذلك بعض أوليائه كعيسي وأمثاله..."[٤٨].

٤٤-سورة الأعراف، الآية: ١٤٣

٤٥-سورة الأعراف، الآية: ١٠٣

٤٦-سورة البقرة، الآية: ٥٦

٤٧- انظر لسان العرب لابن منظور: ٢/١١٧

٤٨- انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني: ٥٢

بينت أن المفسرين قد ذهبوا إلى أن هؤلاء القوم قد ماتوا وعلى ضوء ذلك فقد فسروا البعث هنا بالإحياء، فهم قد ماتوا فترة من الزمن ثم ردت الروح إلى أجسادهم[49].

قد ارتضى رشيد رضا ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده من أنهم قد ماتوا، ولكن الحياة لم ترد إليهم من جديد، بل المراد من البعث هنا كثرة النسل، فقال: "ذهب الأستاذ الإمام –محمد عبده– إلى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل، أي أنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظُن أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعد الشعب بالبلاء السابق، للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها"[50].

وذلك في محاولة منه لتفسير الغيبيات تفسيرا ماديا عقليا متأثرا بالإمام محمد عبده ومدرسته التي أعطت لعقلها حرية واسعة، وتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم[51].

وقد وافقه على ذلك الشيخ المراغي في تفسيره[52].

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالبعث هنا العلم، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أي علمناكم من بعد جهلكم[53].

٤٩– انظر: جامع البيان للطبري: ٢٩٣/١؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٠٣/١؛ وفتح القدير للشوكاني: ٧٨/١

٥٠– تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ٣٢٢/١، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، (بدون تاريخ)

٥١– انظر التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي: ٥٤٩/٢، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م (بدون دار النشر)

٥٢– تفسير ياغي لأحمد مصطفى المراغي: ١٢/١، دارإحياء التراث العربي – بيروت

٥٣– الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي: ٤٥/١؛ انتشارات ناصر خسرو، طهران – إيران، أعادت طبعه بالأوفست دارإحياء التراث العربي – بيروت، (بدون تاريخ)؛ وروح المعاني للآلوسي: ٢٦٢/١

والراجح ما ذهب إليه الجمهور من أنهم ماتوا ثم أحييوا مرة أخرى، ولكن موتهم لم يكن موتا نهائيا تنتهي به آجالهم وإنما كان موتا خاصاً لفترة زمنية محددة ثم أعاد الله الحياة إليهم ليكملوا أعمارهم التي حددها الله لهم.

المطلب الرابع: الإسرائيليات الواردة في القصة والرد عليها

تتوارد الروايات الإسرائيلية على أن موسى عليه السلام قد اختار من بني إسرائيل سبعين رجلا، الخير فالخير، وقال انطلقوا إلى الله، فتوبوا إليه مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يسمعهم كلام الله، فسأل الله ذلك فاستجاب إليه، فلما دنا موسى عليه السلام من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى من ذلك الغمام حتى دخل فيه، فقال لقومه ادنوا وادخلوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه الله عزّ وجلّ وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما تم الكلام وانكشف عن موسى الغمام، أقبل إليهم فقالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ولم يزل كذلك حتى رد الله إليهم أرواحهم[٥٤].

وما روي في ذلك إنما هو مجرد إسرائيليات مسكوت عنها فلا نثق بها، ولا نعتمد عليها في تفسير كلام الله تعالى. يقول الطبري في رفضه تعيين سبب طلبهم لذلك: "ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قيل في سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة، فتُسلّم لهم.

٥٤- انظر: جامع البيان للطبري: ١/٢٩٣؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٧/٨٤؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي: ٣/٥٦٧، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣م.

وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه، فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة، فالصواب من القول فيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ... ولا حاجة إلى معرفة السبب الداعي لهم إلى قيل ذلك"[٥٥].

ورد ابن كثير على من روى أنهم دعوا الله أن يجعلهم أنبياء فدعا بذلك وأجاب الله دعوته فقال: "وهذا غريب جدا إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوى هارون ثم يوشع بن نون"[٥٦].

وما دام لا يوجد خبر صحيح بين أيدينا، يدل على ذلك، فيكفينا ما جاء في القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا ريب فيه.

المطلب الخامس: لطائف وفوائد

١- تُظهر لنا هذه الحادثة الطبيعة اليهودية، وما هي عليه من كثافة حس ومادية فكر، واحتجاب عن مسارب الغيب، والآيات الكثيرة والنعم الإلهية، كلها لا تغير من تلك الطبيعة القاسية، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحل، ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا، وليس أشد إفسادا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد تحت سوط الجلاد، وتمردا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة، وهكذا كانت إسرائيل وهكذا هي في كل زمان[٥٧].

٥٥- جامع البيان للطبري: ٢٩٣/١

٥٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٩٥/١

٥٧- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ٧٢/١.

٢-كما بينت لنا النفسية اليهودية العجيبة في انحرافها ورخاوتها وتمردها وعصيانها، ففي هذه الآيات يذكر الله يهود المدينة بجرائم آبائهم وعصيانهم لأنبيائهم مع كثرة معاينتهم ومشاهدتهم لآيات الله لهم، بحيث لو شاهدوها أو شاهد أقل منها أقوام غيرهم، لأثلجت صدورهم، واطمأنت نفوسهم وصدقت قلوبهم، لكن لليهود شأن آخر، لقد قابلوا آيات الله لهم ونعمة عليهم وحججه وبراهينه إليهم بالتمرد على موسى عليه السلام...

وإخبار الله يهود المدينة بجرائم أسلافهم مع موسى عليه السلام ليعطيهم الدليل أنهم ليسوا خيرا من آبائهم الظالمين وأنهم إذا كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم وجحدوا نبوته، مع يقينهم أنه رسول الله فهم في هذا مثل آبائهم وأسلافهم، في ارتدادهم عن دينهم مرة أخرى وتوثبهم على نبيهم موسى عليه السلام، تارة بعد أخرى مع عظيم بلاء الله عندهم وسبوغ آلائه عليهم[٥٨].

٣- إنما قص القرآن علينا هذا القصص، ووجه الخطاب فيه إلى اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل، لبيان معنى وحدة الأمة، واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات، وما يجاريها به من النعم والنقم إنما يكون لمعنى موجود فيها، يسوغ أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق، كأنه وقع به، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة، يعتبر كل فرد منها أن سعادته بسعادة سائر الأفراد، وشقاءه بشقائهم، ويتوقع وقوع العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة، وإن لم يواقعها هو كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٥٩] وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقيها، لأنه يحمل الأمة على التعاون على الخير والمقاومة للشر، فتحوز قصب السبق بين الأمم[٦٠].

٥٨- انظر تفسير الطبري تقريب وتهذيب، د. صلاح الخالدي: ١/٢٣١-٢٣٢

٥٩- سورة الأنفال، الآية: ٢٥

٦٠- انظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ١/٣٢٢ وتفسير المراغي: ١/١٢١

المبحث الثاني

قصة إحياء قتيل بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ۞ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ۞ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ۞قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ۞ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ۞ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٦١].

المطلب الأول: مجمل القصة

تحدثت هذه الآيات عن قصة حدثت في زمن موسى عليه السلام، إذ وقعت جريمة قتل في بني إسرائيل، ولم يُعرف القاتل، وتدافعوا في القتل، بحيث صار بعضهم يتهم الآخر بأنه القاتل فرفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام ليحكم بينهم، فأوحى الله إلى موسى أن يأمرهم بذبح بقرة ولم يحدد لهم مواصفاتها، ولكن طبيعة اليهود الجدلية أبت أن تنفذ ذلك الأمر مباشرة، فطلبوا من موسى أن يبين لهم عمر هذه البقرة، فقال: إنها ليست صغيرة ولا كبيرة بل هي متوسطة العمر، ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل طلبوا من موسى عليه السلام أن يبين لهم لونها، فقال لهم: إنها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ثم طلبوا منه مزيد بيان عن حالها وصفتها وعملها، فقال لهم: إنها بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي

٦١-سورة البقرة، الآيات: ٦٧-٧٣.

الزرع، وأن تكون خالصة اللون لا يشوبها شيء. قالوا: الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. ثم أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا جزءا من البقرة الميتة، ويضربوا بها جسد القتيل، فدبت في جسده الحياة من جديد وأخبر عن قاتله.
وفي هذا دليل محسوس على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى يوم القيامة(٦٢).

المطلب الثاني: الحكمة من تأخير بيان سبب ذبح البقرة

من خلال الوقوف على معنى الآيات، نجد أن الله عزّ وجلّ قد أخّر ذكر السبب والحكمة من الأمر بذبح البقرة، حيث ابتدأت بتوجيه الأمر لبني إسرائيل بذبح البقرة، ثم بينت تعنتهم وطلبهم التفصيل في مواصفاتها، ثم أخرت ذكر الحكمة من ذلك الأمر، وهو قتلهم لرجل منهم واتهام كل واحد منهم للآخر بقتله.

والحكمة من هذا التأخير، كما ذهب إليه بعضهم هو تكرار للتوبيخ وتثنية للتقريع. فهاتان قصتان، كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع(٦٣).

وذهب البعض إلى أن العلة من ذلك هي تشويق السامع واستثارة فكره للبحث عن السبب، فقال: "وهذا الأسلوب أدعى إلى تشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب في ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى

٦٢- انظر: جامع البيان للطبري: ١/٣٣٧-٣٤٥؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٧/١١٤-١٢٧
وفتح القدير للشوكاني: ١/٩٨-١٠٠؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/١٠٨-١١٢
وروح المعاني للألوسي: ١/١٨٥

٦٣- انظر: الكشاف للزمخشري: ١/١٢٣، مفاتيح الغيب للرازي: ٧/١٢٣
إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/١١٤، روح المعاني للألوسي: ١/٢٨٥

وقومه، فإن الحكمة في أمر الله أمّة بأن تذبح بقرة قد تخفى، فيحرص السامع على طلبها، والكتاب الكريم لايراعي ترتيب المؤرخين في تنسيق الكلام بحسب الوقائع وإنما ينسق الكلام على الطريق الذي يستثير اللب، ويأخذ بمجامع القلب، ويستوحي شغف السامع بما يدور حوله الحديث"(٦٤).

وذهب الأستاذ سيد قطب إلى أن هذا أسلوب من أساليب العرض الفني في القرآن، والحكمة منه هي اختبار مدى الطاعة والاستجابة والتسليم، قال: "وأخيرا نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق، هذه القصة القصيرة نبدؤها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه نحن، لا نعرف في مبدأ عرض القصة لماذا يأمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة كما أن بني إسرائيل إذ ذاك لم يعرفوا(٦٥)، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم. ثم تتابع الحوار في عرض القصة بين موسى وقومه فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى وربه على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله ثم يعود إليهم بالجواب، ولكن سياق القصة لا يقول أنه سأل ربه، ولا أن ربه أجابه، إن هذا السكوت هو اللائق بعظمة الله التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل ثم تنتهي إلى المباغتة في الخاتمة -كما بوغت بها بنو إسرائيل- انتفاض الميت مبعوثا ناطقا، على ضربة من بعض جسد بقرة بكماء مذبوحة ليس فيها من حياة ولا مادة حياة.

ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية، في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل"(٦٦).

وأرى أن ما ذكره المفسرون جائز ومحتمل. والله أعلم.

٦٤-تفسير المراغي: ١/١٤١-١٤٢.

٦٥-المقصود أنهم لم يعرفوا العلاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل، وليس المراد أنهم لم يعرفوا العلة من أمر الله لهم بذبح بقرة، بل كانوا يعرفون أن الله أمرهم بذلك لمعرفة القاتل.

٦٦-في ظلال القرآن لسد قطب: ١/٨٠.

فالله عزّ وجلّ قد أخر بيان السبب زيادة في التوبيخ وتثنية للتقريع وتشويقا للسامعين واستثارة لأفهامهم ليحرصوا على معرفة ذلك.
كما أخر بيان ذلك لاختبار مدى الطاعة والاستجابة والتسليم لديهم.
وهو بالإضافة إلى هذا وذاك، أسلوب من أساليب القرآن الكريم في عرض القصة بطريقة التصوير الفني كما قال سيد قطب آنفا، بحيث يلتقي جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية.

المطلب الثالث: العلاقة بين الضرب بجزء ميت وإعادة الحياة للميت

إن قيل: ما فائدة الضرب ببعض البقرة بعد ذبحها، لتعود الحياة للميت مع أن الله قادر على أن يحييه ابتداءً؟ ولماذا كانت بقرة ولم تكن شيئا آخر؟
ويجاب على ذلك بأن ذبح البقرة لا يراد لذاته، وإنما هو وسيلة لإقامة الدليل العملي المحسوس على قدرة الله عزّ وجلّ على إحياء الموتى. يقول سيد قطب: "وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل، وما في هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء، إنما هي مجرد وسيلة ظاهرة، تكشف لهم عن قدرة الله التي لا يعرف البشر كيف تعمل، فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها، ولا طريقتها في العمل"[٦٧].

أجل، إنه من غير المعقول أن تتولد الحياة من جسدين ميتين إلا بقدرة قدير عليم هو المسبب الأول والأخير في هذا الإحياء. يقول الزمخشري: "وليعلم بما أمر من مس الميت بالميت، وحصول الحياة عقيبه، أن المؤثر هو المسبب لا الأسباب، لأن الموتين الحاصلين في الجسمين لا يعقل أن تتولد منهما حياة"[٦٨].

٦٧- في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٨٠
٦٨- الكشاف للزمخشري: ١/٧٣.

كما أن في ذلك نفيا للشبهة والحيلة وتأكيدا على قدرة الله تبارك وتعالى، وحتى لايقول قائل إنه أحياه بضرب من السحر والحيلة، يقول الرازي: "والفائدة فيه لتكون الحجة أوكد، وعن الحيلة أبعد، فقد كان يجوز لملحد أن يوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة، فإنه إذا حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة، انتفت الشبهة في أنه لم يحي بشيء انتقل إليه من الجسد الذي ضرب به"[٦٩].

لأجل هذا نجد أنه قد أمرهم بالضرب ولم يضربها هو نفيا للتهمة، ولكيلا ينسب للسحر أو الشعوذة.

المطلب الرابع: هل ذلك الإحياء حقيقي أم معنوي؟

ذكر المفسرون أن الإحياء في هذه القصة هو إحياء حقيقي وإن اسم الإشارة "ذلك" يرجع إلى ما شاهدوه من إعادة الحياة إلى الجسد الميت، أي مثل ذلك الإحياء العجيب يحيي الله الموتى يوم القيامة. بينما ذهب محمد رشيد رضا إلى أن المراد من الإحياء المذكور هو الإحياء المعنوي وليس الحقيقي، ومعناه هنا الاستبقاء، فقال: "والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل -ضرب القتيل ببعض البقرة- كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل، إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رُسم لذلك في الشريعة بريء من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية. ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام. وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾**[٧٠]، **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من

٦٩-مفاتيح الغيب للرازي: ١٢٥/٧.

٧٠-سورة المائدة، الآية: ٣٢

أسباب الفتن والعداوات"[71].

ومذهبه هذا مخالف لما ذهب إليه المفسرون، كما أنه مخالف لما تدل عليه الآيات الكريمة:

1- فعندما طلب منهم موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة لمعرفة القاتل، تعجبوا من العلاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ ولو كان ذلك وسيلة عندهم للفصل في الدماء ومعرفة القاتل لما قالوا ذلك، ولما تعجبوا من أمر الذبح، ولما تعنتوا في تفصيل مواصفاتها ومعرفة عمرها ولونها وعملها.

2- كما أن قوله تعالى: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يدل على أنهم لم يقبلوا الأمر بسهولة، لأنهم لم يعرفوه من قبل، وإنما عرفوه للتو، ولو كان سائدا بينهم لخضعوا للأمر من أول مرة.

3- كما أن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يدل على الاستشهاد بحدوث شيء معروف ومحسوس، عليه يرجع اسم الإشارة "ذلك" ولو لم يكن شيئا واقعيا ومحسوسا لهم لما أشار إليه باسم الإشارة مما يدل على أن إحياء القتيل قد حدث بالفعل، وليس هو إحياءً معنوي بمعنى الاستبقاء.

المطلب الخامس: الإسرائيليات الواردة في القصة وبيان الرد عليها

ذكر بعض المفسرين عدة روايات إسرائيلية في هذه القصة، فذكروا أن القاتل شاب من بني إسرائيل، وكان له عم غنيّ جدا، وله ابنة حسناء جميلة، فأراد هذا الشاب أن يتزوجها ولكن عمه رفض ذلك، فقتله حتى يرث ماله ويتزوج ابنته، ووضعه على باب رجل منهم، وادعى أنه قاتله، ولما رفعوا الأمر إلى موسى عليه السلام أمرهم أن يذبحوا بقرة دون تحديد لعمرها أو لونها أو عملها فلما سألوه عن هذا، أجابهم بذكر مواصفاتها، فذهبوا يبحثون عن بقرة بهذه المواصفات.

71- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: 1/351

وقد ورد في تلك البقرة روايات إسرائيلية أيضا، فذكروا أنها كانت لشاب فقير ويتيم، وكان بارا بأبيه وأمه فعرضوا عليه بيعها، وساوموه عليها، ثم أخذوا هذه البقرة وذبحوها وأخذوا جزءا منها، واختلفت الروايات في تعيين هذا الجزء وهل كان العظم الذي يلي الغضروف، أم الفخذ، أم البضعة التي بين الكتفين، أم الذنب، أم اللسان، إلى غير ذلك من الروايات، فضربوا القتيل به، فعادت له الحياة، وقال: قتلني فلان ابن أخي ثم مات. فحرم الشاب من الميراث عقوبة له على ذلك، ومن ذلك اليوم لم يورث قاتل قط[٧٢].

وقد رفض بعض المفسرين هذه الروايات لأنه لم يصح شيء منها عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ابن كثير: "وهذه السياقات فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب، فلهذا لا يعتمد عليها، إلا ما وافق الحق عندنا. والله أعلم"[٧٣].

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: "هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن. وقد كان معينا في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا، لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن المعصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه"[٧٤].

وقال الطبري: "وقد اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل... والصواب أن يقال أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب، ولا

٧٢- انظر: جامع البيان للطبري: ١/٣٣٧-٣٦٠، والدر المنثور للسيوطي: ١/١٨٦-١٨٩ وفتح القدير للشوكاني: ١/٩٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/١٠٨-١١٠ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/١١٣. وزاد المسير لابن الجوزي: ١/٩٩-١٠٢ وروح المعاني للألوسي: ١/١٨٥-١٩٥

٧٣- تفسير القرآن العظيم: ١/١١٠

٧٤- تفسير القرآن العظيم: ١/١١٢

توجد دلالة في الآية، ولا خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به، وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوا به هو الفخذ وجائز أن يكون الذنب، أو غضروف الكتف، أو غير ذلك من أبعاضها، ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها، فأحياه الله"[٧٥].

وقال الآلوسي: "والظاهر أن المراد بالبعض أي بعض كان إذ لا فائدة في تعيينه ولم يرد به نقل صحيح"[٧٦].

وقال الشوكاني بعد أن أورد بعض هذه المرويات: "وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة"[٧٧].

فنحن نقف أمام هذه الروايات موقف أهل الحق، فما جاء منها موافقا لما ورد في الكتاب والسنة جزمنا بصحته وما جاء فيها مسكوتا عنه فيهما ضربنا عنه صفحا، وجزمنا بأنه لا يتعلق به كبير فائدة.

المطلب السادس: فوائد ولطائف

١- تظهر لنا هذه القصة قدرة الله عزّ وجلّ على إحياء الموتى وتقيم الدليل العملي على ذلك، فكما أحيا الله هذا القتيل في الدنيا فكذلك يحيي الموتى بعد مماتهم يوم القيامة[٧٨].

هذه القصة تقدم آية من آيات الله عز وجل ومعجزة من معجزاته فلم يحصل أن بعث ميت حيا بضربة من قطعة لحم ميت إلا عن طريق معجزة ربانية.

٢- بينت لنا هذه القصة الطبيعة الجدلية لدى اليهود، وما هم عليه من كفر

٧٥-جامع البيان للطبري: ٣٦٠/١

٧٦-روح المعاني للآلوسي: ١٩١/١

٧٧-فتح القدير: ٩٩/١

٧٨- انظر: تفسير المراغي: ١٤٥/١، في ظلال القرآن لسيد قطب: ٧٩/١

وتكذيب، والتواء ولجاجة، وكيد ودس، وتمرد وفسوق. وفي هذا تحذير للمؤمنين من التخلق بأخلاق اليهود أو الحذو حذوهم(٧٩).

٣- إن قصة البقرة قد قدمت لنا حقيقة قاطعة نتعرف من خلالها على طريقة اليهود في المفاوضات فنقف أمامها طويلا لنستخلص منها ما ينفعنا، وتعرفنا على الطريقة الناجحة في مواجهة اليهود والتعامل معهم، فهم يتقنون فن التهرب والتملص والتحايل، وهم مستعدون لأن يضيعوا الكثير من الجهود والأوقات في المفاوضات وأن يعودوا من حيث بدأوا مرات ومرات، لأنهم لا يهتمون بحل القضية وإظهار الحق فيها، والخروج بنتائج وقرارات، بل هم حريصون على تعطيلها وتأخيرها، وإبقائها غامضة، حتى يبقى خصومهم في ضياع وفراغ.

ما يفعله اليهود الآن في فلسطين لهو أكبر دليل على ذلك فعندما احتل اليهود الضفة الغربية عام ٦٧، اتخذ مجلس الأمن الدولي قرار رقم ٢٤٢، طالبهم فيه بالانسحاب من الأراضي العربية، ولكن اليهود تحايلوا على هذا القرار، وفهموه فهما يهوديا، وجرت معهم مفاوضات طويلة وشاقة ومضنية، وقالوا إن مجلس الأمن لا يطالبنا بالانسحاب من كل الأراضي المحتلة في الحرب، وإنما الانسحاب من أراض محتلة، وتحديد هذه الأراضي يحتاج إلى مفاوضات هل ينسحبون من الأراضي المحتلة حسب المفهوم العربي أو ينسحبون من أرض محتلة حسب المفهوم اليهودي. وها قد مر على هذه المسألة أكثر من ربع قرن في المفاوضات ولم تسفر حتى الآن عن نتيجة عملية في هذا الشأن.

فاليهود يجيدون فن المراوغات، والتحايل في المفاوضات ولن يستجيبوا إلا لصوت واحد هو صوت القوة(٨٠).

٧٩- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٨٠-٨١.

٨٠- انظر: مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي: ١/٢٥١-٢٥٣.

٤- إن الحكمة من كشف القاتل في هذه الواقعة مع أنه ليس بأول قتيل في بني إسرائيل هي إكرام لموسى عليه السلام، حتى لا يضيع دم المقتول وهو بينهم، فيشكوا في صدق نبيهم.

يقول ابن عاشور[٨١]: "وإنما تعلقت إرادة الله عزّ وجلّ بكشف حال قاتلي هذا القتيل، مع أن دمه ليس بأول دم في الأمم، إكراما لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه، وهو بينهم أظهرهم، وبمرأى منه ومسمع، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى عليه السلام، ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه، فلو لم يُظهر الله تعالى هذا الدم في أمة، لضعف يقينها برسولها، ولكان ذلك مما يزيدهم شكا في صدقه، فينقلبوا كافرين، فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى ورحمة بالأمة لئلا تضل"[٨٢].

٥- علينا أن نسارع بإطاعة أوامر الله عزّ وجلّ وأن نلتزم بها التزاما كاملا، وأن نشارك كياننا كله لذة التفاعل والرضى والتنفيذ، وهذا لا يتحقق إلا عند المسارعة في الأداء والمباشرة في التنفيذ بحيوية ونشاط. أما إذا حاولنا التهرب والتملص والتحايل فإن الرغبة تفتر والهمة تضعف، والرضى والقبول يزول، والحواس تفقد لذة المشاركة فإذا ما اضطرنا للتنفيذ، كان تنفيذا باردا ميتا وأداءً آليا جامدا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٨٣].

٦- عدم الانشغال بالأمور الثانوية والمسائل الهامشية، لأن البحث فيها لا يجدي ولاينفع، ولأنها مضيعة للوقت والجهد.

٧- إن التنطع في الدين، والإلحاف في السؤال يؤدي إلى التشديد في الأحكام،

٨١- هو محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، نقيب أشراف تونس وكبير علمائها، ولي القضاء في تونس ١٢٦٧هـ ثم الفتيا ١٢٧٢هـ توفي في تونس سنة ١٢٨٤هـ. (انظر الأعلام للزركلي: ٤٣/٧)

٨٢- التحرير والتنوير: ٥٦١/١

٨٣- مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي: ٢٥٤/١-٢٥٥

ومن ثم فعلينا أن نترك التشدد في الأمور، وأن نسارع إلى الامتثال من غير تفتيش وكثرة سؤال[٨٤].

يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[٨٥].

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أ كلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم في أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"[٨٦].

٨- ذكر البيضاوي فائدة إشارية من الآيات فقال: "إن من رام أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه، التي هي قوته الشهوية، حين زال عنها شره الصبا، ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة رائعة المنظر، غير مذللة في طلب الدنيا، مسلمة من دنسها، لا سمة بها من قبائحها، بحيث يتصل أثره إلى نفسه، فيحيا بها حياة طيبة ويعرب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والجدال"[٨٧].

٨٤- انظر: الأساس في التفسير لسعيد حوي: ١٦١/١، دارالسلام، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م؛ وتفسير المراغي: ١٤١/١.

٨٥- سورة المائدة، الآية: ١٠١.

٨٦- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب "فرض الحج مرة في العمر": ٩٧٥/٢، حديث رقم: ١٣٣٧.

٨٧- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي: ٣٤٠/١، دارالفكر للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، تحقيق: الشيخ عبدالقادر حسونة.

المبحث الثالث

قصة إحياء الذين خرجوا من ديارهم

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٨٨).

المطلب الأول: مجمل القصة

قصت لنا هذه الآيات، قصة قوم تركوا ديارهم وأوطانهم في حالة هلع وجزع -سواء كان هذا الخروج خوفا من عدو سيهاجمهم، أو من وباء سيحل بهم- فلم يغن عنهم خوفهم وهلعهم من الموت شيئا، فقال لهم الله موتوا فماتوا موتة رجل واحد، بأمر الله ومشيئته، ثم أحياهم وأعاد الحياة لأجسادهم، ليعتبروا وليعلموا أنه لا مفر من حكم الله وقضائه، وليعلموا أن الحياة والموت بيد الله وحده، فلم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت ولم يبذلوا جهدا في استرجاع الحياة، وإنما هو قدر الله في الحالين.

وفي هذه الحادثة فضل كبير على الناس قاطبة، أما أولئك فقد أحياهم الله ليعتبروا بما جرى عليهم، فيفوزوا بالسعادة، وأما الذين سمعوا قصتهم فقد هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار، ورغم تفضله على الجميع ليشكروه، ولكن أكثرهم لا يشكرون(٨٩).

٨٨- سورة البقرة، آية: ٢٤٣

٨٩- انظر: الكشاف للزمخشري: ١/٢٩٠؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٢٩٨ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/٢٣٨

المطلب الثاني: هل القصة واقعية أم مجرد مثل؟

ذكر المفسرون أن هذه القصة قصة واقعية، وأنها قد حدثت في زمن من الأزمان، وإن اختلفوا في تعيينه، وتعيين هؤلاء القوم، وتعيين ديارهم.

وخالف الشيخ محمد رشيد رضا، وتابع شيخه في القول بأن هذه القصة تصح أن تكون قصة تمثيلية وليست واقعية، فقال: "ولا يشترط أن تكون هذه القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية، إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلوما حتى كأنه مرئي بالعينين"(٩٠).

واستدل على ذلك بما روي عن عطاء أنه قال: إن هذا مثل(٩١).

كما استدل على كلامه بعدة أدلة:

الأول: ذهب إلى تفسير الموت والحياة في الآية بحسب معناهما المجازي لاالحقيقي، فقال: **﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾** أي أماتهم بإمكان العدو منهم ... فمعنى موت أولئك القوم، هو أن العدو نكل بهم، فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم، ذلك أن من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس، أن يكون تأديبا لهم، ومطهرا لنفوسهم لما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة، أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والغش والتخاذل، بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية، فاغتروا وكثروا، إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها".

الثاني: إن القرآن قد أطلق الحياة على الحالة المعنوية الشريفة في الأشخاص والأمم، وأطلق الموت على مقابلها، كما في قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

٩٠-تفسير القرآن الحكيم محمد رشيد رضا: ٤٥٧/٢.

٩١-تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٩٨/١.

استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٩٢]، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[٩٣].

الثالث: إن الله عزّ وجلّ قد عطف الأمر بالموت على الخروج من الديار بالفاء، الدالة على اتصال الهلاك بالفرار من العدو، وإلى عطفه الإخبار بإحيائهم بثم الدالة على تراخي ذلك وتأخره، لأن الأمة إذا شعرت بعلة البلاء بعد وقوعه بها وذهابه باستقلالها، فإنه لا يتيسر لها تدارك ما فات إلا في زمن طويل.

الرابع: إن الموت الطبيعي لا يتكرر كما علم من سنة الله ومن كتابه إذ قال: ﴿لايَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾[٩٤].

ولو فرضنا صحة ما قالوه من أنهم هربوا من الطاعون، وان الفائدة في إيراد قصتهم بيان أنه لا مفر من الموت، فيكون المراد على هذا من إحيائهم بأن الباقين منهم تناسلوا بعد ذلك وكثروا وكانت الأمة بهم حية عزيزة، ليصح أن تكون الآية تمهيدا لما بعدها، مرتبطة به، والله تعالى لا يأمرنا بالقتال، لأجل أن نقتل ثم يحيينا، بمعنى أن يبعث من قتل منا بعد موتهم في هذه الحياة الدنيا[٩٥].

ويرد على ما ذكره رشيد رضا من عدة وجوه:

الأول: لا حاجة بنا إلى صرف اللفظ عن ظاهره والذهاب للمعنى المجازي إذ لا ضرورة تدعو إلى ذلك، فلا ضرورة هنا لتفسير الموت بموت الشعوب وتمكن العدو منها، والحياة بحياتها لاستعادتها قوتها ومكانتها.

الثاني: ما ذكره من العطف بالفاء الدالة على اتصال الهلاك بالفرار من العدو، والعطف بثم الدالة على تراخي إحيائهم وتأخره، لا يدل على أن هذه القصة لم

٩٢-سورة الأنفال، الآية: ٢٤

٩٣-سورة الأنعام الآية: ١٢٢

٩٤-سورة الدخان، الآية: ٥٦

٩٥- انظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ٢/٤٥٨-٤٦٠

تحدث، وأنها مجرد مثل، وأن المراد بإحيائهم إحياء الأمة التي جاءت بعدهم باستقلالها واستعادة قوتها.

وقد ذكر أبوالسعود فائدة العطف بالفاء، فقال: "إنما عطف بالفاء ليدل على أن إماتتهم كانت كميتة نفس واحدة، في أقرب وقت وأدناه، وأسرع زمان وأوحاه، ثم عطف بقوله "ثم أحياهم" وهي معطوفة على مقدر يستدعيه المقام، أي فماتوا ثم أحياهم، وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره"[٩٦].

الثالث: أما قوله أن الموت الطبيعي لا يتكرر بدليل قوله: **﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾**[٩٧]، فهذا الاعتراض لا يرد في هذا المقام لأن موتهم كان موتا خاصا وليس موتا نهائيا، لأن الميت لا يعود للحياة مرة أخرى إلا يوم القيامة، روى الطبري عن قتادة قوله: "مَقتهم الله على فرارهم من الموت، فأماتهم الله عقوبة ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها، ولو كانت آجالهم جاءت ما بعثوا بعد موتهم"[٩٨].

وقد أورد محمد بن أبي بكر الرازي هذه المسألة في مسائله، فقال: "فإن قيل كيف الجمع بين قوله تعالى: **﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾** وقوله **﴿لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾**، قلنا المراد بالآية الأولى إماتة العقوبة مع بقاء الأجل، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل، ونظيره قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾**، لأنها كانت إماتة عقوبة..."[٩٩].

قال ابن عطية في موت هؤلاء: "وهذا الموت ظاهر الآية وهو موت حقيقي فارقت فيه الأرواح الأجساد، وإذا كان كذلك فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاء كمرض حادث مما يحدث للبشر"[١٠٠].

٩٦- انظر: إرشاد العقل السليم لأبوالسعود: ٢٣٨/١

٩٧- سورة الدخان، الآية: ٥٦

٩٨- جامع البيان للطبري: ٥٨٩/٢

٩٩- النموذج الجليل في أسئلة وأجوبة آي التنزيل لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١٠٧

١٠٠- المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٤٧/٢

الرابع: استدلاله بما روي عن عطاء بأن هذا مثل، فلعل مراد عطاء أن هذه القصة تجري مجرى المثل في التعجب من حال هؤلاء، لا أن هذه الحادثة لم تقع، بـدليل أن ابن كثير قد استدل على وقوع المعاد الجسماني في الآخرة(١٠١).

ولقد استدل محمد رشيد رضا بعدد من الأدلة، على أن هذه القـصة وقعـت موقع المثل تجنبا من القول بأن القوم قد ماتوا ثم ردت لهم الحياة من جديد لأن من مات لا ترد له الحياة إلا يوم القيامة، وما أدري هل غفل عن أن موتهم كان موتـا خاصا أم أنه لا يريد القول بذلك؟!

وعلى فرض صحة وقوع القصة فقد فسر إحياء الباقين بأنهم تناسـلوا، قـال أنهم قد ماتوا وانتهت أعمارهم ثم كثروا وكانت الأمة بهم حية عزيـزة، لا أنهـم عادوا ليستوفوا آجالهم.

إن نفيه الموت عنهم يتفق مع عقليته الخاصة المتأثرة بشيخه محمـد عبـده، فعقليته تميل إلى تضييق نطاق المعجزات والغيبيات، وتأويل الآيات التي أخبـرت عنها تأويلا خاصا وتفسير الغيبيات بالأمور المادية والعقلية كما أنه يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه وذلك فيما يبـدو مستبعدا ومستغربا لو أجري على حقيقته(١٠٢).

المطلب الثالث: الإسرائيليات الواردة في القصة والرد عليها

ورد العديد من الروايات الإسرائيلية، في تعيين هؤلاء الذين خرجوا من ديـارهم، ومن أي ديار كانوا، وأنهم أمة كانت جهة واسط في قرية يقال لها داوردان، وقيـل هم أهل أذرعات، وقيل هم أهل بلدة في زمان بني إسرائيل.

كما تعرضت هذه الروايات إلى السبب الذي جعل هؤلاء يتركون ديارهم، فقيل إنهم هربوا من الوباء، وقيل هربوا من الطاعون، وقيل من الحمى، وقيـل أن ملكهـم

١٠١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٩٨/١

١٠٢- انظر: التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي: ٥٨٣/٢

حملهم على الجهاد فخافوا على أنفسهم وهربوا.

كما تعرضت إلى ذكر عددهم، واختلفت في ذلك اختلافا كبيرا، فروي أنهم كانوا أربعة آلاف، وقيل ثمانية، وقيل بضع وثلاثون ألفا. وقيل أربعون ألفا وقيل سبعون، وقيل تسعون وقيل غير ذلك[١٠٣].

وتفيد أن هؤلاء القوم عندما هربوا نزلوا في واد أفيح فملأوا ما بين جانبيه، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا، ثم حيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما مر عليهم الدهر، مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي لحما وعصبا وجلدا فكان ذلك، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجعي كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فقاموا أحياء ينظرون"[١٠٤].

وقد رفض أكثر المفسرين هذه الروايات، ونبه بعضهم على بطلانها كما فعل

١٠٣- ذهب بعض المفسرين إلى أن "ألوف" مأخوذ من الائتلاف، وأنه جمع ألف كقعود وقاعد والمعنى أنهم كانوا مؤتلفي القلوب، ولكنهم رجحوا أن يكون المراد من "ألوف" بيان عددهم وعللوا ذلك: فقالوا: أن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمة، يفيد مزيد اعتبار بحالهم، أما ورود الموت على قوم بينهم ائتلاف ومحبة فهو كوروده وبينهم اختلاف، في أن وجه الاعتبار لا يتغير ولا يختلف، (انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٦٣/٨؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ٢٥٠/٢، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م)
وأرى أن المراد من "ألوف" أنهم كانوا ألوفا في العدد وفي هذا تعبير عن الكثرة أي أن كثرتهم لم تدفع عنهم الموت رغم أن المعروف في أحوال الناس أن الكثرة والتعاضد يدفعان الأذى في الدنيا، ولكنه لم يدفع عنهم ما أراده الله بهم

١٠٤- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٩٩/١؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ١٦٢/٨؛ وجامع البيان للطبري: ٥٨٦/٢-٥٩٠؛ والدر المنثور للسيوطي: ٧٤١/١-٧٤٤

ابن عطية، حيث يقول: "وهذا القصص كله لين الأسانيد وإنما اللازم من الآيـة أن الله تعالى أخبر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إخبارا في عبارة التنبيه والتوقيف، عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم ومن خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر"(١٠٥).

كما فوض علم صحتها إلى الله أبوحيان، لأنه لا تعارض بينها، إذ من الممكن الجمع بينها، لأن الغاية والهدف من القصة هو أخذ العبرة والعظة من حال هؤلاء، فقال بعد أن أورد بعضها: "وقد كثر الاختلاف والزيادة والنقص في هذه القـصص والله أعلم بصحة ذلك، فلا تعارض بين هذه القصص، إلا أن عين الذين خرجوا من ديارهم هم من ذكر في القصة لا غير، وإلا فيجوز أن ذكرت كل قصة على سبيل المثال، إذ لا يمتنع أن يفر ناس من الجهاد، وناس من الطاعون، وناس من الحمى، فيميتهم ثم يحييهم ليعتبروا بذلك، ويعتبر من يأتي بعدهم، وليعلموا جميعا أن الإماتة والإحياء بيد الله، فلا ينبغي أن يخاف من شيء مقدر، ولا يغتر فطن بحيلة، أنهـا تنجيه مما شاء الله"(١٠٦).

كما امتنع الأستاذ سيد قطب من الخوض في مثل هذه الروايات، لأن المـراد من القصة هو مغزاها وما تهدف إليه لا أحداثها وتفصيلاتها، فقـال: "لا أحـب أن نذهب في تيه التأويلات عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهـم ألـوف حـذر الموت، من هم؟ وفي أي أرض كانوا؟ وفي أي زمان خرجوا فلو كان الله يريد بيانا عنهم لبين، كما يجيء القصص المحدد في القرآن إنما هذه عبـرة وعظـة يـراد مغزاها ولا تراد أحداثها وأماكنها وأزمانها، وتحديد الأماكن والأزمان لا يزيد هنـا شيئا على عبرة القصة ومغزاها(١٠٧).

١٠٥- المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/٢٤٦

١٠٦- البحر المحيط لأبي حيان: ٢/٢٥٠

١٠٧- في ظلال القرآن: ١/٢٦٤

فواجبنا تجاه هذه الإسرائيليات -كما تقدم في التمهيد- أن نتوقف عندها، ولا نقبلها ولا نأخذ بها، ما لم يرد فيها حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن نكتفي بما قصه القرآن علينا دون أن نزيد عليه شيئا، أو ندخل فيه ما ليس منه، حتى لانبتعد عن موضع العبرة والحكمة، ومعرفة هذا أو الجهل به، لا يؤثر على مغزى القصة في شيء، ولا يزيد شيئا على ما فيها من عبرة.

المطلب الرابع: فوائد ولطائف

١- إن العبرة الأساسية من هذه القصة حث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله والمواظبة عليه، والصبر على قتال الأعداء، لأن الإماتة والإحياء بيده وحده سبحانه، دون خلقه، وبيان أن الفرار من القتال والهرب من الجهاد ولقاء الأعداء، والتحصن في الحصون والاختباء في المنازل والدور لا ينجي أحدا من قضاء الله إذا جاءه، ولا يدفع عنه الموت إذا حضره كما لم ينفع أولئك الهاربين لما هربوا من أوطانهم وخرجوا من ديارهم إلى مواضع جديدة ظنوا فيها السلامة والنجاة من الموت فأتاهم أمر الله فماتوا.

ولو تدبرنا الآيات اللاحقة لوجدنا أنها بينت أن مرد الأمر أيضا في الغنى والفقر إلى الله عز وجل، فكما أن الحياة لا تذهب بالقتال إذا قدر الله لها البقاء، كذلك المال لايذهب بالإنفاق، وإذا كان كذلك فلا فزع من الموت، ولا خوف من الفقر ولا محيد عن الرجعة إلى الله. وإذن فليجاهد المؤمنون في سبيل الله، وليقدموا الأرواح والأموال وليستيقنوا أن أنفاسهم معدودة وأن أرزاقهم مقدرة، وأن الموت إذا لم يكن منه بد ولم ينفع منه مفر فأولى أن يكون في سبيل الله(١٠٨).

ويتضح ذلك جليا إذا علمنا أن من آيات هذه السورة -البقرة- ما نزل بعد

١٠٨- انظر: جامع البيان للطبري: ٢/٥٩٠، وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٢٦٤، والكشاف للزمخشري: ١/٢٩٠.

الهجرة[١٠٩]. ومن آياتها ما نزل في مدة صلح الحديبية تمهيدا لفتح مكة، وكان المشركون في مكة وما حولها في كثرة وقوة ومنعة، فأمرت السورة المسلمين بالجهاد في سبيل الله، وقصت عليهم من الأنباء ما يُرغب في الجهاد، ويُشجع عليه، وأنه لا يمنع حذر من قدر، وفي هذا تحريض على الجهاد في سبيل الله أيما تحريض.

٢- في هذه الحادثة دليل قاطع على وقوع الإحياء والمعاد الجسماني يوم القيامة وأنها ممكنة عقلا، فكما أعاد الحياة إلى أجساد هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم، بعد أن فارقتها فترة من الزمن فكذلك يعيد الحياة إلى أجساد الخلق كافة يوم القيامة، وفي هذا احتجاج على المنكرين للبعث، إذ دلهم عليه -أي البعث- بإحياء الموتى في الدنيا، ونبههم إلى إمكانه ووقوع النشأة الآخرة لجميع الخلائق[١١٠].

٣- اشتملت الآيات السابقة على العديد من الأحكام، ثم حفيت بذكر بعض أخبار السابقين وهذا على عادة القرآن في ذكر القصص بعد الأحكام، لمزيد من العظة والاعتبار من قبل السامعين بما تضمنته هذه الوقائع والآثار، وهذا يحملهم على ترك التمرد والعناد، ويبعثهم على مزيد من الخضوع والانقياد.

ولما كانت هذه الآيات قد أتبعت بآيات تتحدث عن حكم القتال في سبيل الله وحكم بذل المال وهما حكمان في أمر عام يتعلق بالأمة الإسلامية لذلك كان الأسلوب أشد تأثيرا وأعظم تذكيرا، فمن ثم سبقت بقصة هؤلاء زيادة في البصيرة ومبالغة في الحمل على الاعتبار، وبذلك جاءت هذه الآيات ببيان أجلى وأسلوب أفعل وأقوى[١١١].

١٠٩- انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢٨/١، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، تحقيق: عصام فارس الحرستاني.

١١٠- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٩٨/١

١١١- انظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ٤٥٤/٢؛ ومفاتيح الغيب للرازي:

٤- قدمت لنا هذه الآيات تصحيحا لتصور الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة وحقيقتهما المضمرة، ورد الأمر فيهما إلى قدرة الله وتدبيره والاطمئنان إلى قدر الله فيهما، والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع، لأن الحذر من الموت لايجدي كما أن الفزع والهلع لا يزيدان حياة ولا يمدان أجلا ولا يردان قضاء.

إن الله هو واهب الحياة وهو آخذها، وهو متفضل في الحالتين حين يهب وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، ومصلحة الناس متحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم متحقق في الأخذ والمنح سواء.

وما دام الهلع لا يرد قضاء، والفزع لا يحفظ حياة، وأن الحياة بيد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء ... إذن فلا نامت أعين الجبناء[١١٢].

٥- ذكر الأستاذ سيد قطب -إثر حديثه عن الآيات وما فيها من إيحاءات- التصوير الفني في الآيات وما فيها من جمال فني في الأداء، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ إن في التعبير استعراضا لهذه الألوف ولهذه الصفوف استعراضا ترسمه هاتان الكلمتان: "ألم تر" وأي تعبير آخر ما كان ليرسم أمام المخيلة هذا الاستعراض كما رسمته هاتان الكلمتان العاديتان في موضعهما المختار.

ومن مشهد الألوف المؤلفة، الحذرة من الموت، المتلفتة من الذعر، إلى مشهد الموت المطبق في لحظة، ومن خلال كلمة "موتوا" كل هذا الحذر وكل هذا التجمع وكل هذه المحاولة ... كلها ذهبت هباء في كلمة واحدة "موتوا"، ليلقي ذلك في الحس عبث المحاولة وضلالة المنهج، كما يلقي صرامة القضاء، وسرعة الفصل

١٦١/٨

١١٢- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٦٤/١

عند الله، "ثم أحياهم" هكذا بلا تفصيل للوسيلة ... إنها القدرة المالكة زمان الموت وزمام الحياة، المتصرفة في شؤون العباد، لا ترد لها إرادة ولا يكون إلا ما تشاء ... وهذا التعبير يلقي الظل المناسب على مشهد الموت ومشهد الحياة.

ونحن في مشهد إماتة وإحياء وقبض للروح وإطلاق ... فلما جاء ذكر الرزق كان التعبير ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ متناسقا في الحركة مع قبض الروح، وإطلاقها في إيجاز كذلك واختصار"[١١٣].

المبحث الرابع

قصة إحياء الذي مر على قرية

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١١٤].

المطلب الأول: مجمل القصة

تقص علينا هذه الآيات قصة رجل من بني إسرائيل، مر على قرية بعد أن أصابها الخراب والدمار، وسقطت جدرانها وسقوفها، وخليت من أهلها، فوقف متفكرا فيما آل إليه أمرها بعد العمارة العظيمة، فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي كيف يحيي الله هذه القرية ويعمرها بعدما جرى فيها ما جرى من



١١٣- في ظلال القرآن: ١/٢٦٥

١١٤- سورة البقرة، الآية: ٢٥٩

خراب ودمار ودثور، فأماته الله مائة عام ثم بعثه الله وأحياه[١١٥]، وهذا بعث خارق للعادة وهو غير بعث الحشر، فسأل عن المدة التي لبثها فقال: "لبثت يوما أو بعض يوم"، وذلك اجتهادا منه: فقال له: بل لبثت مائة عام، ثم أراه الدليل على قدرته عزّوجلّ على البعث، من نفسه وطعامه وحماره، فطعامه وشرابه لم يتغير طوال هذه السنوات، رغم سرعة ما يدب فيه من الفساد والعفن، مع مرور الزمن، بينما حماره صار رميما وعظاما، رغم أنه بقي دهرا طويلا، ثم أحياه له أمام عينيه فرأى عظامه كيف تركبت فوق بعضها البعض، وكيف كسيت لحما حتى عاد للحمار جسمه الذي كان له، ودبت فيه الحياة من جديد.

فلما تبينت له قدرة الله عز وجل بمعاينته ما عاين، قال: أعلم علم يقين ورؤية أن الله على كل شيء قدير، فإن من قدر على أن يكسو العظام لحما ويمدها بالحياة، قادر على أن يعيد الخصب والعمران لهذه القرية، كما أن من قدر على الإحياء بعد لبث مائة عام، قادر على الإحياء بعد لبث الموتى آلاف السنين[١١٦].

المطلب الثاني: المقصود بالعظام في الآية الكريمة

اختلف المفسرون في العظام التي أمر أن ينظر إليها أهي عظامه هو أم عظام حماره؟ ولهم في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أمر أن ينظر إلى عظام نفسه:

ذهب بعضهم إلى أن الله أمره أن ينظر إلى عظام نفسه وقالوا إن الله جعل

١١٥- وإنما قال: "ثم بعثه" ولم يقل: ثم أحياه، لأن قوله "بعثه" يدل على أنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا فهما مستعدا للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية ولو قال: "أحياه" لم تحصل هذه الفوائد، (مفاتيح الغيب للرازي: ٨/٣٢)

١١٦- انظر: جامع البيان للطبري: ٣/٣٣-٤١؛ والدر المنثور للسيوطي: ٢/٢٨-٣١؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٨/٢٨-٣٦؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٤؛ والكشاف للزمخشري: ١/٣٠٦-٣٠٨ والأساس في التفسير لسعيد حوى: ٢/٦٠٩-٦١٠.

الروح في رأسه وبصره، وجسده ميت، فرأى هيكله العظمي وهو يتركب، ثم رأى كسوته باللحم(١١٧).

الثاني: أمر أن ينظر إلى عظام نفسه وعظام حماره:

رجح الطبري أن يكون المراد بالعظام، عظامه هو وعظام الحمار أيضا، فقد لحقه من البلى مثل الذي لحق حماره، ولا يمكن جعل الأمر بالنظر إلى عظام الحمار فقط ولا إلى عظامه فقط، وجعل الأمر موجها بالنظر إلى عظامه وإلى عظام الحمار أولى، لأن الله عز وجل جعل جميع ذلك حجة عليه وعبرة وعظة له(١١٨).

الثالث: أمر أن ينظر إلى عظام حماره:

ذهب جمهور المفسرين(١١٩) إلى أن المراد بالعظام هو عظام الحمار لا عظامه هو.

وقال الرازي في رده على من قال بأن المراد بالعظام عظامه هو: "هو عندي ضعيف لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، إنما يليق بمن لا يرى أثر التغيير في نفسه فيظن أنه كان نائما في بعض يوم، أما من شاهد أجزاء بدنه متفرقة وعظام بدنه رميمة نخرة فلا يقول ذلك القول.

وثانيها: أنه تعالى أخبر أنه خاطبه وأجاب، فيجب أن يكون المجيب هو الذي أماته الله، فإذا كانت الإماتة راجعة إلى كله فالمجيب أيضا الذي بعثه الله يجب أن يكون جملة الشخص.

ثالثها: أن قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ يدل على أن تلك الجملة

١١٧- الدر المنثور للسيوطي: ٢/٣٠؛ والمحرر الوجيز لابن عطية: ١/٢٩٦

١١٨- انظر: جامع البيان للطبري: ٣/٤٢

١١٩- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٨/٣٦؛ و تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٤؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/٢٥٤؛ والكشاف للزمخشري: ١/٣٠٦.

أحياها وبعثها"[١٢٠].

والراجح هو ما ذهب إليه الجمهور، من أن الله أمره أن ينظر إلى عظام حماره ليرى قدرة الله على البعث والإحياء.

يقول الأستاذ سيد قطب: لذلك نرجح أن الحمار هو الذي تعرت عظامه وتفسخت ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوتها باللحم وردها إلى الحياة على مرأى من صاحبه الذي لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن. ليكون هذا التباين في المصائر والجميع في مكان واحد، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء، والتي تتصرف مطلقة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحيي هذه الله بعد موتها"[١٢١].

المطلب الثالث: الإسرائيليات الواردة في القصة والرد عليها

أورد كثير من المفسرين تفصيلات لهذه القصة، اختلفت فيها الروايات في تحديد اسم هذا الرجل وهل كان العزير أم كان أرميا بن حلقيا، أم كان حزقيال بن بوزي، أم هو رجل من بني إسرائيل؟

كما اختلفت في تحديد هذه القرية وهل كانت بيت المقدس بعدما دمرها "بختنصر" وأجلى اليهود منها، أم كانت دير هرقل، أم دير سابر آباد، أم ديار سلماباد.

كما ذكرت هذه الروايات تفصيلات القصة وكيف حدثت وأن هذا الرجل قد خرج ذات يوم وقت الظهيرة، ومعه حماره، وسلة تين وعنب، فوصل إلى خربة ودخلها، فوجدها خاوية على عروشها، فقال: **﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** فأماته الله مائة عام ثم أرسل له ملكا، فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما، فيعقل كيف يحيي الله الموتى، ثم ركب خلقه وهو ينظر.

١٢٠- مفاتيح الغيب للرازي: ٣٦/٨

١٢١- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٠٠/١

ثم نفخ فيه الروح، وقال له الملك: كم لبثت؟ قال: لبثت يوما أو بعض يوم فقال له الملك: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك فإذا هما على حالهما لم يتغيرا، ثم قال له: انظر إلى حمارك، فوجده عظاما نخرة، فنادى الملك عظام الحمار فأجابت ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم، ثم انبت عليها الجلد والشعر ثم نفخ فيه الملك، فقام الحمار ينهق، فلما تبين له ذلك قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فركب حماره حتى أتى منزله، فوجد فيه عجوزا عمياء مقعدة فسألها عن عزير، فقالت له: قد فقدناه منذ مائة عام، فأخبرها أنه هو عزير قد أماته الله مائة عام ثم بعثه، فلم تصدق، وقالت له: إن عزيرا مستجاب الدعوة، فادع الله أن يرد علي بصري حتى أراك، فدعا ربه ومسح يده على عينيها، ففتحتهما، وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله، فقامت صحيحة، وصدقت أنه عزير، ثم أخذته إلى محلة بني إسرائيل وأخبرتهم أن هذا عزير فلم يصدقوها، فقالت: أنا مولاتكم فلانة، دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي، فنهض الناس وأقبلوا عليه، فقال بنو إسرائيل لم يكن فينا أحد حفظ التوراة غير العزير، وقد حرق "بختنصر" التوراة فاكتبها لنا، فكتبها، فقالت اليهود عزير ابن الله[١٢٢].

وهذه الرواية هي أشهر الروايات الإسرائيلية وأكثرها ورودا في كتب التفسير.

وقد رفض الطبري هذه التفصيلات ونقدها نقدا علميا وبين المقصود من هذه القصة، فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عجب نبيه صلى الله عليه وسلم ممن قال -إذ رأى قرية خاوية على عروشها- ﴿أَنَّى

١٢٢- انظر: جامع البيان للطبري: ٣/٣٣-٣٩؛ والدر المنثور للسيوطي: ٢/٢٨-٣٠؛ و تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٤؛ وروح المعاني للآلوسي: ٣/٢٤؛ وفتح القدير للشوكاني: ١/٢٨٠-٢٨١

يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قِبَلِه البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك "عزيرا"، وجائز أن يكون "أورميا"، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك.

إنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت، من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب، وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته. إذ كانت هذه الأنباء التي أوحاها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه، من الأنباء التي لم يكن يعلمها محمد صلى الله عليه وسلم وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم منهم بل كان أميا وقومه أميون، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصبا يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه"[123].

كما رفض الأستاذ سيد قطب الخوض في اسم القائل لعدم أهميته فقال: "من هو الذي مر على قرية؟ ما هذه القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها إن القرآن لم يفصح عنهما شيئا، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن فلنقف نحن -على طريقتنا في هذه الظلال- عند تلك الظلال، إن المشهد ليرتسم للحس قويا واضحا موحيا، مشهد الموت والبلى

١٢٣- جامع البيان للطبري: ٣/٢٩

والخواء يرتسم بالوصف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ محطمة على قواعدها. ويرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية، هذه المشاعر التي ينضح بها تعبيره ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾[١٢٤].

وقال الشيخ سعيد حوى: "إن كثيرين من المسلمين، ولعوا في البحث عن المبهمات حتى أصبح الكلام عنها مقصودا، والسؤال عنها عادة مع أن كثيرا مما أبهمه القرآن إنما أبهمه لأن الفائدة فيما فصل، فتركت الاستفادة من الأصل، وصار الناس يبحثون عما لا فائدة فيه، إن العبرة في القصة الآتية عن الرجل الذي أحياه الله بعد ما أماته هي في معرفة قدرة الله على البعث، لتأكيد الإيمان باليوم الآخر فإذا غفل القلب عن هذا وبحث عن اسم الرجل ولون حماره فإنه يكون قد ترك ما من أجله خوطب إلى ما ليس مكلفا به"[١٢٥].

وواجبنا تجاه تلك الإسرائيليات التوقف ما دام لم يرد في بيانها حديث صحيح أو نص معتمد. وأن نكتفي بما جاءت به الآيات، لأن في ما ذكرته كفاية ولو كانت الحكمة تقتضي بيان هذه المبهمات لبينتها، ولما تركتها غامضة مبهمة.

فيجب أن لا نشغل عقولنا فيما لا فائدة من معرفته، وأن نترك الخوض بما لم نكلف البحث عنه، وأن نتجه إلى ما في تلك القصص من عبرة وفائدة، حتى لا نفسر كلام الله بما لا تقوم به الحجة.

المطلب الرابع: فوائد ولطائف

١- تظهر لنا هذه القصة قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، فالقادر على إحياء هذا الرجل بعد إماتته مائة عام، قادر على إحياء جميع الخلق بعد آلاف السنين، فالله قادر على فعل ما يشاء، من إماتة وإحياء، وإفناء وإنشاء وإنعام

١٢٤- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٩٩/١

١٢٥- الأساس في التفسير لسعيد حوى: ١٠٨/٢

وإذلال، وإقتار وإغناء[١٢٦].

٢- في الآية الكريمة تعجيب من حال من يستبعد قدرة الله عزّوجلّ على تقليب الأحوال، فيحيي قرية خربة ليجعلها عامرة، بما فعله الله بهذا الإنسان إذ أماته مائة عام ثم أحياه، ليرى أن ما استبعده قد حدث، فعلم من خلال المشاهدة لفعل الله في تغيير الأشياء من حال إلى حال، قدرة الله على كل شيء. وهذا الذي شاهده صاحب القصة، يشاهده كل واحد منا خلال التاريخ، برؤيته تقلب الأحوال أحيانا على حسب التوقعات، وأحيانا على خلاف التوقعات ضمن سنن الله، فمن لم ير قدرة الله من خلال مشاهداته لتصريف أمور خلقه تكون رؤيته كليلة[١٢٧].

٣- أظهرت لنا هذه القصة مشيئة الله عز وجل وقدرته، فما الذي يفسر أن ينال البلى شيئا، ويترك شيئا، في مكان واحد، وفي ظروف واحدة؟ إن خارقة خلق الحياة أول مرة، أو خارقة إعادتها كذلك، لا تفسر هذا الاختلاف في مصير أشياء ذات ظروف واحدة. إن الذي يفسره هو مشيئة الله وقدرته فتقرر هذه التجربة إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله حقيقة أخرى، هي حقيقة المشيئة المطلقة التي يعنى القرآن عناية فائقة بتقريرها في ضمائر المؤمنين به لتتعلق بالله مباشرة من وراء الأسباب الظاهرة والمقدمات المنظورة، فالله فعال لما يريد، وهكذا قال الرجل الذي مرت به التجربة ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٢٨].

٤- لو وقفنا أمام كلمة "كيف" في قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، حيث يدعى ذلك الرجل للوقوف على "الكيفية" ... كيفية رفع

١٢٦- انظر: جامع البيان للطبري: ٤٢/٣

١٢٧- الأساس في التفسير لسعيد حوى: ٦٩/٢

١٢٨- في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ٣٠١/١

العظام ... وكيفية الجمع بينها وترتيبها مع بعضها، وتوصيلها مع بعضها بتناسق وانسجام، حتى تكون هيكلا عظميا متكاملا. ثم تكسى بعد ذلك باللحم، وهو يدعى إلى الوقوف على "كيفية" كسائها باللحم.

وهذا التوجيه إلى إمعان النظر، وملاحظة "الكيفية"، يوحي لنا بأهمية معرفة "كيفية" الحقائق والظواهر المادية التي تحيط بنا، ومحاولة إنفاذ النظرات فيها، وتحليلها ماديا وعمليا. ولعل هذا التوجيه القرآني كان من أكبر الحوافر، على توجه علماء المسلمين نحو معرفة "كيفيات" العلوم المادية، والوقوف عليها وعلى تفصيلاتها وجزيئاتها، وإيثارهم الناحية العملية للعلوم، على الناحية النظرية الذهنية، وتأسيسهم للمنهج العملي التجريبي للعلوم، وسيرهم فيه خطوات، قبل أن تغرب شمس التقدم العلمي عندهم، لتشرق على العالم الغربي، الذي أخذ منهج المسلمين وجعله أساس النهضة العلمية الغربية المعاصرة. فالقرآن يحثنا على الناحية العلمية التجريبية، وعلى الوقوف على كيفية حدوث الظواهر الكونية والفلكية[١٢٩].

٥- عندما شاهد ذلك الرجل معجزات الله أمامه، وعرف أن الله أحياه بعد مائة سنة من موته، وتبين له الأمر قال: **﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**. ولو وقفنا لحظة أمام هذه الجملة، لوجدنا أن هذه التجربة العملية الميدانية، أوجدت هذه العلم اليقيني الواثق الجازم، وقد أخبرنا عن أثرها عليه بقوله: **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

ولعل هذا يقودنا إلى ملاحظة أثر الدليل العملي، والنموذج الواقعي، والمثال الحسي، في تثبيت الحقائق النظرية ورسوخها والإيمان بها، وهذا ملاحظ عند الناس، فالطبيب تبقى معلوماته الطبية نظرية ذهنية، ولا ترسخ وتثبت عنده إلا إذا ذهب للمعمل والمختبر، وقام بتجارب فيه، قام بها بيديه، ولاحظها بعينيه. وكأن هذه

١٢٩- انظر: مع قصص السابقين في القرآن د. صلاح الخالدي: ٣/٧٩-٨٠

القصة القرآنية تدعونا إلى الالتفات إلى الأمثلة والنماذج والتجارب العملية، التي تصدق وتثبت المعلومات النظرية الذهنية، وأن نستخدمها في عرضت حقائق الدين وقضاياه"[١٣٠].

المبحث الخامس

قصة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام

قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[١٣١].

المطلب الأول: مجمل القصة

سجلت لنا هذه الآية طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وبينت أن الباعث له على هذا الطلب هو زيادة الطمأنينة، وليس إزالة الشك والريب حيث قال له ربه: "أولم تؤمن؟ قال: بلى! ولكن ليطمئن قلبي". فأمره الله عزّوجلّ أن يأخذ أربعة من الطير، ويذبحهن ويقطعهن ثم يضع على كل جبل منهن جزءا، ثم يدعوهن، وسيرى أن الله عزّوجلّ قد جمع أجزاء الطيور الأربعة ونفخ فيها الروح فدبت فيها الحياة، وأتاه كل طائر منها سعيا حيا كأنه لم يذبح[١٣٢].

١٣٠- انظر: مع قصص السابقين في القرآن د. صلاح الخالدي: ٣/٨٠-٨١

١٣١- سورة البقرة، الآية: ٢٦٠

١٣٢- انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود: ١/٢٥٦؛ وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ١/٥٦٣؛ ومفاتيح الغيب للإمام الرازي: ٨/٤٠؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٥.

المطلب الثاني: لماذا طلب إبراهيم عليه السلام رؤية ذلك

ذهب العديد من المفسرين[١٣٣] إلى أن سؤاله عيه السلام إنما كان بهدف زيادة طمأنينة القلب، ذلك أن إبراهيم عليه السلام لفرط محبته للوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث، رام الانتقال من العلم النظري إلى العلم الضروري، بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال، ذلك أن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة، وإذا ما اجتمع علم الضرورة مع علم الاستدلال حصل عين اليقين.

فسؤاله عليه السلام لم يكن طلبا لبرهان، أو تقوية لإيمان، وإنما للارتقاء من علم اليقين إلى عين اليقين، يقول الأستاذ سيد قطب في ذلك: "إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلبا لبرهان أو تقوية للإيمان، إنما هو أمر آخر، له مذاق آخر، إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي، وليس وراء هذا إيمان أو برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى قدرة الله وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة، فيستروح بها ويتنفس في جوها ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان"[١٣٤].

وأغرب الطبري عندما ذهب إلى أن سؤاله عليه السلام إنما كان عن دخول بعض الشك في قدرة الله عز وجل، فأراد رؤية ذلك ليزول ذلك الوسواس.

فنقل في تفسيره عن بعضهم فقال: قال بعضهم: طلب ذلك لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى"، ثم ذكر قول عطاء فقال: قال عطاء: قد دخل قلب إبراهيم عليه السلام بعض ما يدخل قلوب الناس، فقال رب أرني كيف تحيي الموتى، فأراه الله ذلك، ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

١٣٣- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣١٥/١؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٣٩/٨؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢٥٦/١؛ وفتح القدير للشوكاني: ٢٨٢/١ ... وغيرها

١٣٤- في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ٣٠٢/١

قال: "نحن أحق بالشك من إبراهيم قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[١٣٥].

ثم رجح هذا القول وارتضاه فقال: "وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، أن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، فيعاين ذلك عيانا فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته[١٣٦] ما رأى"[١٣٧].

وقد رد المفسرون على هذا بما يأتي:

١- ما ذكره من قول عطاء: "دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، معناه من حيث المعاينة ولم يقصد الشك[١٣٨].

٢- قول النبي صلى الله عليه وسلم: "نحن أحق بالشك من إبراهيم..." معناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أولى ألا يشك، فليس فيه اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم عليه السلام، لكن فيه نفي الشك عنهما[١٣٩].

٣- أن إحياء الموتى يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به بدليل قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[١٤٠]، فالشك يبعد على من ثبت قدمه في

١٣٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب "وإذا قال إبراهيم ...، حديث رقم: ٤٢٦٣: ١٦٥٠/٤.

١٣٦- روي أن إبراهيم عليه السلام لما رأى الميت الذي تأكل منه دواب البر والبحر ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء، (انظر: جامع البيان للطبري: ٥٠/٣)

١٣٧- جامع البيان للطبري(بتصرف): ٥٠/٣

١٣٨- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٠٢/٢؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٩٨/٣

١٣٩- انظر: المصادر السابقة

١٤٠- سورة البقرة، الآية: ٢٥٨

الإيمان، فكيف بمنزلة النبوة والخلة[١٤١].

٤- الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود، متقرر الوجود عند السائل والمسؤول، نحو قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الثوب؟ فكيف في هذه الآية استفهام عن هيئة الإيحاء، والإحياء متقرر[١٤٢].

٥- لا يجوز على الأنبياء مثل هذا الشك فإنه كفر، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل، وإذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يشككهم[١٤٣]؟!

ويتخلص مما سبق أن طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، لم يكن بسبب دخول شيء من الشك في قلبه، وإنما هو طلب للطمأنينة، فيما تتزع إليه نفسه من معرفة خفايا وأسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة بالبعث إذ قد عرفه بالوحي والدليل.

ثم إن ما طلبه من رؤية إحياء الموتى لا يتوقف الإيمان على الإحاطة بصورته يقول الآلوسي: "وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها، فالخليل عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه"[١٤٤].

فمحال أن يصل إبراهيم عليه السلام إلى الشك الذي لا يجوز على المؤمنين فكيف بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

١٤١- المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/٣٠٣؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣/٢٩٩؛ وفتح القدير للشوكاني: ١/٢٨٢

١٤٢- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/٣٠٣؛ و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣/٢٩٩؛
وفتح القدير للشوكاني: ١/٢٨٢؛ وروح المعاني للآلوسي: ٣/٢٦.

١٤٣- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢/٣٠٣؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣/٢٩٩؛ وفتح القدير للشوكاني: ١/٢٨٢

١٤٤- روح المعاني: ٣/٢٦

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[145].

قال ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: "إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك، أي لو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك"[146].

المطلب الثالث: هل امتثل إبراهيم عليه السلام أمر ربه فقام بتقطيع الطير؟

ذهب جمهور المفسرين[147] إلى أن إبراهيم عليه السلام قد قطع أعضاء الطيور، وخلطهن، ووزعهن على الجبال، ثم دعاهن فأتينه سعيا بقدرة الله عز وجل. وقد أنكر أبومسلم الأصفهاني[148] هذا، وذهب إلى أن إبراهيم عيه السلام لما طلب إحياء الموتى من الله عزّوجلّ، أراه الله مثالاً قرب به الأمر عليه، وأن الغرض مما ذكر، إنما هو ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد، على

١٤٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: "فلما جاءه الرسول قال ارجع..": ٤/١٧٣١، حديث رقم: ٤٤١٧

١٤٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني: ٦/٤١٢، دارالمعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب

١٤٧- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٨/٤١، إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/٢٥٦، جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري: ٣/٥٦

١٤٨- هو أبومسلم محمد بن بحر الأصفهاني كان كاتبا، مترسلا، بليغا، متكلما، جدلا، له من الكتب كتاب "جامع التأويل لمحكم التنزيل على مذهب المعتزلة" في تفسير القرآن وكتاب "الشعر والشعراء" وكتاب "سنام المعالي" وكتاب "عبار الشعر"، توفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، (انظر: الفهرست لابن النديم: ١/١٩٦، دارالمعرفة - بيروت، ١٩٧٨م).. وغيرهم

سبيل السهولة، فقال: وليس في الكلام ما يدل على أنه فعل ذلك، وما كل أمر يقصد به الامتثال، فإن من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر، لا سيما إذا أريد زيادة البيان .. وفي القرآن كثير من الأمر يراد به الخبر، والكلام ههنا مثل لإحياء الموتى، ومعناه خذ أربعة من الطير، فضمها إليك، وآنسها بك، حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك، فإن الطيور من أشد الحيوان استعدادا لذلك، ثم اجعل كل واحد منها على جبل، ثم ادعها، فإنها تسرع إليك، ولا يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها من ذلك، كذلك أمر ربك إذ أراد إحياء الموتى، يدعوهم بكلمة التكوين "كونوا أحياء، فيكونوا أحياء".

ثم استدل على قوله هذا بعدة أدلة، منها:

١- إن المشهور في اللغة في قوله "فصرهن" أملهن، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه.

٢- لو كان المراد بقوله "صرهن": قطعهن، لما قال: "إليك"، فإن ذلك لا يتعدى بإلى، وإنما يتعدى بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة.

٣- إن الضمير في قوله، "ثم ادعهن" عائد إليها لا إلى أجزائها وإذا كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة، وكان الموضوع على كل جبل بعض تلك الأجزاء يلزم أن يكون الضمير عائدا على تلك الأجزاء لا عليها(١٤٩).

وقد مال إلى هذا القول من المفسرين الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره لهذه الآيات، حيث عرض كلام أبي مسلم، وذكر أدلته التي سبق ذكرها، ثم ذكر أدلة الجمهور، ففندها ورد عليها، ثم قال: "إن إتيان الطيور بعد تقطيعها وتفريق أجزائها في الجبال لا يقتضي رؤية كيفية الإحياء، إذ ليس فيها إلا رؤية الطيور كما كانت قبل التقطيع، لأن الإحياء حصل في الجبال البعيدة، وافرض أنك رأيت رجلا قتل وقطع إربا إربا، ثم رأيته حيا، أفتقول حينئذ أنك عرفت كيفية إحيائه؟..

١٤٩- نقلا عن مفاتيح الغيب للرازي: ٤١/٨-٤٢

وجملة القول أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم وهو الذي يجلي الحقيقة في المسألة، فإن كيفية الإحياء هي عين كيفية التكوين في الابتداء، وإنما تكون بتعلق إرادة الله تعالى بالشيء المعبر عنه بكلمة التكوين "كن" فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له إلا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى وكيفية تعلقها بالأشياء... وهذا غير ممكن فصفات الله منزهة عن الكيفية"(١٥٠).

ثم أورد رشيد رضا دليلين آخرين، وهما ما يأتي:

١- قوله تعالى: "ثم اجعل" يدل على التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها، على أن لفظ "صرهن" يدل على التأنيس، ولولا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطيور فقطعهن واجعل على كل جبل منهن جزءا، ولم يذكر لفظ الإمالة إليه ويعطف جعلها على الجبال بثم.

٢- أنه ختم الآية باسم العزيز الحكيم دون اسم القدير، والعزيز هو الغالب الذي لاينال(١٥١).

وقد رد المفسرون على أبي مسلم بردود عدة، ذكرها الإمام الرازي في تفسيره، وهي ما يأتي:

١- إن كل المفسرين الذين كانوا قبل أبي مسلم أجمعوا على أن إبراهيم عليه السلام ذبح تلك الطيور وقطع أجزاءها، فيكون إنكار أبي مسلم لذلك إنكارا للإجماع.

٢- إن ما ذكره أبومسلم غير مختص بإبراهيم عليه السلام فلا يكون له مزية على غيره.

٣- إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يريه الله عزّوجلّ كيف يحيي الموتى وظاهر الآية يدل على أنه أجيب لذلك، وعلى قول أبي مسلم لا تحصل الإجابة في

١٥٠- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رضا: ٢/٥٧-٥٨

١٥١- انظر: المرجع السابق: ٢/٥٧-٥٨

الحقيقة.

٤- إن قوله ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ يدل على أن تلك الطيور جعلت جزءا جزءا، قال أبومسلم في الجواب عن هذا الوجه: إنه أضاف الجزء إلى الأربعة فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة.

والجواب: إن ما ذكرته وإن كان محتملا إلا أن حمل الجزء على ما ذكرنا أظهر، والتقدير: فاجعل على كل جبل من كل واحد منهن جزءا أو بعضا(١٥٢).

ويضاف إلى ما ذكره المفسرون ما يلي:

١- إن الحامل لأبي مسلم على هذا القول هو عقليته الاعتزالية، فهو من أئمة المعتزلة.

والمعتزلة كثيرا ما يعتمدون في طريقتهم التفسيرية على الفروض المجازية، فإذا مروا بآية من الآيات التي تبدو في ظاهرها غريبة مستبعدة، نجدهم يحملون الكلام على التمثيل أو التخييل، ولا يقولون بالظاهر أبدا(١٥٣).

٢- إن أبا مسلم ذهب إلى أن المراد بـ"صرهن" أملهن ودربهن على الإجابة بحيث إذا دعوتهن أجابتك وأتتك. غير أن معظم المفسرين ذهبوا إلى أن المراد من "فصرهن" قطعهن وقد ذكر بعضهم القولين في معنى "صرهن"، لكنه رجح القول الثاني، أي قطعهن، كما هو عند الطبري(١٥٤) والرازي(١٥٥).

ومن ذكر منهم "فصرهن" بمعنى أملهن، وضح أن الإحياء قد وقع بالفعل، وأن المراد من الإمالة أن يتأملهن، ويعرف شياتهن مفصلة، حتى يعلم بعد الإحياء أن جزءا من أجزائها لم ينتقل من موضعه أصلا(١٥٦).

١٥٢- مفاتيح الغيب للإمام الرازي: ٤٢/٨

١٥٣- انظر: التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبي: ٣٨٢/١

١٥٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري: ٥٦/٣

١٥٥- مفاتيح الغيب للرازي: ٤١/٨

١٥٦- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٥٦/١، وأنوار التنزيل البيضاوي: ٥٦٣/١

ومعنى "فصرهن" في اللغة، مشتق من صرى يصري، وصرى الشيء صرياً قطعه ودفعه، يقال: صَرَيْتُ الشيء إذا قطعته ومنعته[١٥٧]، وقال الراغب في "صرهن": مأخوذ من صير، والصّير: الشق وهو المصدر منه[١٥٨]، فصرهن هنا بمعنى قطعهن كما ذهب إليه الجمهور لا بمعنى أملهن. وقد ذكر الإمام محمد بن أبي بكر الرازي هذه المسألة في مسائله فقال: "فإن قيل فما فائدة "فصرهن إليك" أي فضمهن إليك ولفظ الأخذ مغن عنه؟ قلنا: الفائدة فيه، إن تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنها غيرها"[١٥٩].

٣- ما استدل به الشيخ محمد رشيد رضا -من ختم الآية بلفظ "العزيز الحكيم" دون لفظ "القدير الحكيم" وان المراد بالعزيز هو الغالب الذي لا ينال. مما يدل على أن كيفية الإحياء لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها، ولا أن يقفوا على كنهها- فهذا غير مسلم به لأن لفظ العزيز شامل ولا يقتصر على المعنى الذي أورده، بل إن الإمام ابن كثير قد فسر معناه، فقال: "أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء"[١٦٠].

و"العزيز" بهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير يدل على أن كيفية الإحياء ممكنة وأن الله عزيز حكيم لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء، فإن شاء لأحد من البشر الوصول لذلك، أوصله بقدرته وإرادته دون أن يعجزه شيء لأنه القاهر لكل شيء وهو ما حدث مع إبراهيم عيه السلام بالفعل. ولو كانت رؤية كيفية الإحياء غير ممكنة ومستحيلة لبين الله ذلك لإبراهيم عليه السلام ولما أرشده لذبح الطيور

١٥٧- انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤/٤٦٠

١٥٨- معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني: ٢٩٠

١٥٩- الأنموذج الجليل في أسئلة وأجوبة آي التنزيل لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٢١.

١٦٠- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٥

وتفريقها. فعندما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل بين له أن الرؤية غير ممكنة بقوله تعالى: "لن تراني" فهذا يدل على أن كيفية الإحياء يمكن الوصول إليها والوقوف على كنهها لمن أراد الله ذلك لا كما ذكر الشيخ محمد رشيد رضا.

٤- أن الآيات قد اقتصرت على ذكر أوامر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام، دون أن تذكر امتثاله لهذه الأوامر، لكون ذلك الامتثال من الأمور المسلمة التي لا داعي لذكرها أصلا.

قال أبوالسعود في تفسيره، وإنما اقتصر على حكاية أوامره عز وجل، من غير تعرض لامتثاله عليه السلام، ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته ... للإيذان بأن ترتب تلك الأمور الجليلة واستحالة تخلفها عنها، من الجلاء والظهور، بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلا"[١٦١].

المطلب الرابع: الإسرائيليات الواردة في القصة وموقف المفسرين منها:

أورد المفسرون العديد من الروايات الإسرائيلية، في سبب طلبه عليه السلام لمعاينة الإحياء، فذكروا أنه قد مر برجل ميت على ساحل البحر، وقيل مر بجيفة حمار، فرأى دواب البحر تخرج فتأكل منها، وسباع الأرض تأتيه فتأكل منه، والطير يقع عليه فيأكل منه، فقال إبراهيم عند ذلك: رب هذه دواب البحر تأكل منه وسباع الأرض والطير، ثم تميت هذه فتبلى ثم تحييها، فأرني كيف تحيي الموتى، قال له: "أولم تؤمن؟" قال: ﴿بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، فقال له تعالى ذكره خذ أربعا من الطير واصنع ما صُنع ثم أتى إبراهيم أربعة جبال فوضع على كل جبل نصفين مختلفين، وترك رؤوسها تحت قدميه، ثم دعا باسم الله الأعظم، فرجع كل نصف إلى نصفه، وكل ريش إلى طائره، ثم أقبلت تطير بغير رؤوس إلى قدميه تريد رؤوسها بأعناقها، فرفع قدميه فوضع كل طائر منها عنقه في رأسه فعادت كما كانت.

١٦١- إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٥٧/١

كما نقلوا روايات تذكر أسماء هذه الطيور ومن أي الألواع كانــت، فقـالوا: كانت وزاً ورألاً[١٦٢]، وديكاً وطاووسا، وقيل: كانت ديكا وغرابا وطاووسا وحماما، وقيل كانت ديكا وبطا وغرابا وطاووسا، إلى غير ذلك من الأقوال.

كما ذكروا العلة من تخصيص الطير من بين سائر الحيوانـات دون غيـره، فقالوا: لأنه أقرب للإنسان وأجمع لخواص الحيوان، ولأن الطير همته الطيران في السماء، والخليل همته العلو ... إلى غير ذلك.

كما ذكروا العلة من تخصيص العدد بأربعة، مع أن الطمأنينة تحصل بإحياء واحد، فقالوا: أنها جعلت أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع، إلى غير ذلـك من الأقوال[١٦٣].

وقد رد بعض المفسرين على الروايات التي ذكرت السبب في طلبـه عليـه السلام لرؤية إحياء الموتى وبين أن مثل هذه الروايات لا تقبل إلا بالنقل الصحيح، ولا يحتاج إلى شيء منها في فهم الكلام[١٦٤].

كما رد البعض الآخر على من خصص هذه الأربعة أو بين أنه لا طائل تحت تعيينها، وأنه لو كان مهما لنص عليه القرآن. وأن كل هذه الروايات لا تـسمن ولا تغني من جوع، وليست إلا خواطر أفهام، وبوادر أذهان، لا ينبغي أن تجعل وجوها لكلام الله عز وجل وعلا لما يرد في كلامه[١٦٥].

فما جاء في هذه الروايات، لا فائدة من ذكره في هذا المقام، ولا يفيد العلم بها أية فائدة، وما يهمنا معرفته هو أنها كانت أربعة أنواع مختلفة من الطيور، وأنها قد

١٦٢- الرأل: ولد النعام (لسان العرب: لابن منظور: ١١/٢٦١).

١٦٣- انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني: ١/٢٨٣؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٨/٣٨-٣١؛ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٢/٣٢-٣٣

١٦٤- انظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ٢/٥٣

١٦٥- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣١٥؛ وفتح القدير للشوكاني: ١/٢٨٢

نبحت وقطعت وفرقت على الجبال، ثم عادت بقدرة الله عزّوجلّ إلى الحياة مرة أخرى، وهذا حاصل دون الحاجة إلى معرفة أسماء هذه الطيور ومن أي الأنواع كانت، وهو ما لم ينص عليه القرآن الكريم لعدم أهميته.

المطلب الخامس: لطائف وفوائد

١- إن قصة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام لهي دليل حسي على إحياء الموتى، فالقادر على إحياء تلك الطيور بعد أن تشتتت أجزاؤها، قادر على إحياء الموتى وجمع أوصالهم، يقول سيد قطب: "رأى إبراهيم عليه السلام السر الإلهي يقع بين يديه، وهو السر الذي يقع في كل لحظة، ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه، إنه سر هبة الحياة، الحياة التي جاءت أول مرة، بعد أن لم تكن، والتي تنشأ مرات لاحصر لها، في كل حي جديد[١٦٦].

٢- دلت هذه الآيات على فضل إبراهيم عليه السلام، ويمن الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال، حيث أثنى على الله أولا، فقال: "رب" ثم دعا فقال: "أرني" فأراه الله سبحانه وتعالى ما سأله في الحال، وجعل الإحياء والإماتة في الطيور، وسماه باسمه، بينما الذي مر على قرية لم يراع ذلك، ولم يتضرع في الدعاء، فأراه الله عزّوجلّ ذلك بعدما أماته مائة عام، وجعل الإحياء والإماتة في نفسه، ولم يسمه باسمه[١٦٧].

٣- وفي هذه القصة إشارة إلى أهمية التجربة العملية وأثرها في الإيمان والعلم والجزم واليقين. فمن المعلوم أن مشاهدة حادثة عملية بالعين، أو القيام بتجربة واقعية بالفعل، يقود إلى زيادة الإيمان والتصديق واليقين، ويزيد في تأكيد الحقيقة النظرية، وترسيخها وتثبيتها. ولهذا نرى أصحاب المناهج

١٦٦- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٠٢/١

١٦٧- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٣٨/٢، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٥٧/١؛ وروح المعاني للألوسي: ٣١/٣

والنظريات العلمية والتربوية، حريصين على قيام الدارسين بتجارب ميدانية عملية، يطبقون فيها عمليا ما أخذوه نظريا.

ومن هنا نفهم الباعث الذي حمل إبراهيم عليه السلام على أن يطلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وتعليله ذلك بقوله: ليطمئن قلبي. وإبراهيم عليه السلام يكثر من استخدام وسائل الإيضاح لتأكيد الحقائق النظرية، ويؤدي التجارب العملية لترسيخ القناعة النظرية. رأينا هذا عندما أبطل كون الكواكب آلهة أمام قومه، وعندما طلب من الملك الكافر تغيير حركة مسار الشمس، وعندما حطم أصنام قومه وترك الصنم الكبير ليسأله قومه ويعجز عن الجواب(١٦٨).

٤- ومن لطائف التفسير الإشاري، ما ذكره البيضاوي، وأحببت أن أورده هنا بغية الفائدة، قال: "وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية فعليه أن يقبل على القوي البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تتكسر سورتها، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع"(١٦٩).

وهل ما نحن فيه من ضعف وخوار، وما عليه المسلمون من تردد وانكسار، إلا نتيجة اتباع الأهواء والشهوات.



١٦٨- انظر: القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث د. صلاح الخالدي: ١/٤٤٦-٤٤٧.

١٦٩- أنوار التنزيل للبيضاوي: ١/٥٦٤

المبحث السادس

معجزة إحياء الموتى لعيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١٧٠).

المطلب الأول: مجمل الآية

أرسل الله عز وجل عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وقد أيده الله تعالى بمعجزات تدل على صدقه، وأنه مرسل من عنده تعالى، لكي يواجه بها بني إسرائيل، وقد سجلت هذه الآية بعض المعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام بني إسرائيل وهي: خلقه الطير الحي من التمثال الجامد، وإبراؤه الأكمه(١٧١) والأبرص(١٧٢)، وإحياؤه الموتى، وإخبارهم بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم.

وما يهمنا هنا هو خلقه للطير من الطين بإذن الله وإحياؤه الموتى بإذن الله، لذلك سنتناول هاتين المعجزتين بشيء من التفصيل.

١٧٠- سورة آل عمران، الآية: ٤٩

١٧١- كَمِهَ بصره كَمَهاً وهو أكمه، إذا اعترته ظلمة تَطْمِسُ عليه، والأكمه الذي يولد أعمى، (انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٣/٥٣٦، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١/٢٤١، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٩٥، تحقيق: محمود خاطر)

١٧٢- البرص: داء معروف وهو بياض يقع في الجسد، (انظر: لسان العرب لابن منظور: ٧/٥، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١/٢٠)

المطلب الثاني: خلق الطير من الطين معجزة لعيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام يصنع من الطين تمثالا على شكل طائر، ثم ينفخ فيه، فيتحول هذا التمثال إلى طائر حي بقدرة الله ومشيئة.

إن الآية تنسب الخلق إلى عيسى عليه السلام. ومعلوم أن "الخلق أصله التقدير المستقيم"، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾**[١٧٣]، أي أبدعهما، بدليل **﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾**[١٧٤]، ويستعمل الخلق بمعنى إيجاد الشيء من الشيء **﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾**[١٧٥].

وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه وبين غيره **﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾**[١٧٦]، أما الذي يكون بمعنى التحويل فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى عليه السلام **﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...﴾**[١٧٧][١٧٨].

إذن كان خلق عيسى عليه السلام الطير من الطين خلق تحويل أقدره الله عليه، وأذن له فيه ولم يكن خلق إبداع. فقد كان يأخذ ترابا ويجعله طينا فيضع منه تمثالا على هيئة طائر ثم ينفخ فيه فيصير طائرا، وليس في هذا إيجادا من العدم ولا إبداعا من لا شيء، إنما هو تحويل أشياء خلقها الله من العدم وأوجدها، فأخذها عيسى عليه السلام وحولها من حالة إلى حالة.

١٧٣- سورة الأنعام، الآية: ١

١٧٤- سورة الأنعام: الآية: ١٠١

١٧٥- سورة النحل، الآية: ٤

١٧٦- سورة النحل، الآية: ١٧

١٧٧- سورة المائدة، الآية: ١١٠

١٧٨- انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني: ٢٩٦

ثم هذا الخلق المنسوب إليه عليه السلام، فعله بإذن الله، فالله هو المقدر والمسبب الخالق في الحقيقة، وعيسى عليه السلام هو السبب الخارجي والوسيلة العملية، حقق الله على يده إرادته.

وكذلك الحال في النفخ، فالله هو الذي أذن له في النفخ في تمثال الطير، والله هو الذي شاء أن يوجد الحياة في التمثال وليس لعيسى عليه السلام دور في ذلك سوى النفخ، وهذه النفخة هي سبب مباشر مادي، والمسبب والمقدر والمريد هو الله تبارك وتعالى.

فما كان عيسى عليه السلام خالقا للطير، وما هو إلا صانع، والخالق هو الله تعالى...

وما كان عليه السلام واهبا للحياة في الطير إنما هو نافخ، وواهب الحياة هو الله سبحانه وتعالى.. [179].

يقول الإمام ابن كثير: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[180] أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك...

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾، فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيرا ذا روح تطير بإذن الله..."[181].

إن هذه المعجزة لهي دليل على أن عيسى عليه السلام رسول الله، لأنها خارقة للعادة، لا يستطيع أحد الإتيان بها، إلا أن يكون رسولا أجرى الله ذلك على يديه تأييدا له، وإظهارا لصدق نبوته.

١٧٩- انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٤/٣٠١-٣٠٤

١٨٠- سورة المائدة، الآية: ١١٠

١٨١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/١١٥.

المطلب الثالث: إحياء الموتى بإذن الله

كان عيسى عليه السلام يمر بالموتى، فيدعو الله أن يحييهم، فيستجيب الله دعاءه ويحييهم، فيخرجون من قبورهم أحياء بإذن الله.

وكما بينا آنفا أن الخلق والنفخ إنما هو سبب مادي، والمسبب الحقيقي هو الله عزّوجلّ، كذلك الحال في إحيائه عليه السلام للموتى، إذ هو مظهر عملي لإرادة الله عزّوجلّ، وهو سبب ظاهري، مكنه الله منه وأقدره عليه، والله هو المحي حقيقة، وهو المسبب والمقدر لإحيائهم[١٨٢].

وإحياء الموتى معجزة ودليل واضح على نبوته عليه السلام، فخروج الميت من قبره حيا بدعاء عيسى عليه السلام، دليل على أن الله هو الذي أحياه، وجعل حياته على يد عيسى عليه السلام، ليكون ذلك آية بينة على أنه رسول من عند الله، لأن البشر جميعا لا يستطيعون إحياء الميت، فالمحي والمميت هو الله عزّوجلّ.

فالخلق للطير، والإحياء للميت، إنما هي أسباب ظاهرية، والمسبب الحقيقي، والخالق والمحي بالفعل هو الله عزّوجلّ، لذلك نجد أن الآية قد أكدت هذه الحقيقة، فذكرت "بإذن الله" بعد كل معجزة من معجزاته وكررت ذلك زيادة في البيان، وليعلم أنه عبدٌ لله، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا.

يقول سيد قطب: "وجاء النص يؤكد على لسان المسيح عليه السلام، أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله، وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلا وتحديدا، ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط"[١٨٣].

١٨٢- انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٤/٣٠٧-٣٠٨

١٨٣- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ١/٣٩٩

المطلب الرابع: لماذا خُص عيسى عليه السلام بهذه المعجزات

من المعلوم أن المعجزة هي: "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة"[184].

أو هي أمر يعجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، أو هي أمر خارق للعادة، خارج عن حدود الأسباب المعروفة، يخلقه الله تعالى على يد مدعي النبوة، عند دعواه إياه شاهدا على صدقه[185].

ويؤيد الله عزّوجلّ أنبياءه بمعجزات تدل على صدقهم، وكانت المعجزة تجيء مناسبة لعصرها متفقة مع زمانها، بحيث تؤثر في نفوس القوم وتهز أعماقهم، وتجعلهم يؤمنون أن صاحب هذه المعجزة نبي أرسله الله تعالى، ورغم أن الأمر الخارق يكفي وحده للإقناع، إلا أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يجيء هذا الأمر الخارق مناسب لزمانه ومكانه وهكذا اختلفت معجزات الرسل، فكانت متناسبة مع ما مهر فيه أقوامهم[186].

يقول ابن كثير: "بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزات بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، أما عيسى عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟

١٨٤- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣٢٤/٢

١٨٥- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبدالعظيم الزرقاني: ٥٣/١، دارالفكر - بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٦م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات

١٨٦- انظر: أنبياء الله لأحمد بهجت: ٣٣٠

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم، بعث في زمان الفصحاء والبلغــاء والــشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلــه، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبدا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا أن كلام الرب عزّوجلّ لا يشبه كلام الخلق أبدا"(١٨٧).

فقد كان زمان عيسى عليه السلام، زمان الطب والمــداواة، واشــتهر قومــه بذلك، فجاءت معجزاته متفقة مع ما مهروا به، كما أنهم كانوا قوما ماديين، ينكرون الروح والبعث، فجاءت معجزاته عيه السلام لتؤكد وجود الروح، وتثبت وجود اليوم الآخر: "بعث عيسى عليه السلام لقوم ماديين ينكرون الروح تماما، وينكرون البعث كلية ... وسط هذا العصر المادي الذي أنكر الروح تماما، كان منطقيا أن تجــيء معجزات عيسى عليه السلام إعلانا لعالم الروح ... هناك معجزة تصوير عيــسى من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيها فتكون طيرا، هذه المعجزة تؤكد وجود الروح، لقد كانت قطعة الطين جمادا لا يمكن وصفه بالحياة، فلما نفخ فيها عيسى تحولــت قطعة الطين إلى طير فيها حياة، إن شيئا غير الجسم، وليس من جنسه فاض عليها، هذا الشيء المنفصل عن الجسم هو الروح، دبت الروح في الصلصال فصار طيرا، كأن الروح هي القيمة الحقيقة وليس الجسد"(١٨٨).



١٨٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣٦٤-٣٦٥.

١٨٨- انظر: أنبياء الله لأحمد بهجت: ٣٣٠-٣٣١

وهكذا فقد خص الله عيسى عليه السلام بهذه المعجزات[189]، لأنها وافقت عصره وزمانه، وكانت هذه المعجزات أكبر دليل على صدقه ونبوته، فعلاجه للأكمه والأبرص -وهما المرضان اللذان لا علاج لهما من قبل الأطباء- بدون علاج، وهو غير طبيب، دليل على صدق رسالته، وأنه مؤيد بها من عند الله.

المطلب الخامس: الإسرائيليات الواردة في تفسير هذه الآية وموقف المفسرين منها:

وردت إسرائيليات عديدة حول هذا الطائر الذي شكله ونفخ فيه عيسى عليه السلام، وأن بني إسرائيل قد طلبوا منه ذلك عندما ادعى النبوة، فأخذ طينا وصوره، ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، وكان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا.

وذكرت هذه الروايات أنهم قد طلبوا منه خلق الخفاش، لأنه أكمل الطير خلقا، ليكون أبلغ في القدرة، لأن له ثديا وأسنانا وأذنا، وهو يطير بغير ريش، ويلد كما

١٨٩- ذكر بعض العلماء أن محمد صلى الله عليه وسلم قد أعطى مثل معجزات الأنبياء وأكثر، فنقل ابن كثير عن ابن الزملكاني: "وأما معجزات عيسى عليه السلام فمنها إحياء الموتى، وللنبي من ذلك كثير، وإحياء الجماد أبلغ من إحياء الميت، وقد علم النبي الذراع المسمومة، وهذا الإحياء أبلغ من إحياء الإنسان الميت من وجوه:

أحدها: أنه إحياء جزء من الحيوان دون بقيته وهذا معجز.

الثاني: أنه أحياه وحده منفصلا عن بقية أجزاء ذلك الحيوان مع موت البقية.

الثالث: أنه أعاد عليه الحياة مع الإدراك والعقل ولم يكن هذا الحيوان يعقل في حياته...

قلت: -القائل ابن كثير- وفي حلول الحياة والإدراك والعقل في الحجر الذي كان يخاطب النبي، من المعجز ما هو أبلغ من إحياء الحيوان في الجملة، لأن الحيوان كان محلا للحياة في وقت، بخلاف= =هذا حيث لا حياة له بالكلية قبل ذلك، وكذلك تسليم الأحجار والمدر عليه، وكذلك الأشجار والأغصان، وشهادتها بالرسالة وحنين الجذع... (البداية والنهاية لابن كثير: ٦/٢٩١، مكتبة المعارف - بيروت).

يلد الحيوان، ولا يبيض كما يبيض الطير، ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين، بعد غروب الشمس وبعد طلوع الفجر.

كما ذكرت أن الأنفس التي أحياها عيسى عليه السلام، هي أربعة أنفس: العاذر وكان صديقا له، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح، أما العاذر فإنه كان قد توفي قبل ذلك بأيام، فدعا الله فقام بإذن الله وودكه[١٩٠] يقطر، فعاش وولد له، وأما ابن العجوز، فإنه مر به يحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه، ورجع إلى أهله، وأما بنت العاشر، فكان قد جاءها ودعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها، فلما رأوا ذلك قالوا إنك تحيي من كان موته قريبا، فلعلهم لم يموتوا، فأحيى لنا سام بن نوح، فذهب إلى قبره، ودعا الله فخرج من قبره، وقد شاب رأسه فقال له عيسى كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب؟ فقال يا روح الله إنك دعوتني فسمعت صوتا يقول: أجب روح الله فظننت أن القيامة قد قامت، فمن هول ذلك شاب رأسي[١٩١].

ومعظم هذه الروايات منقوله عن كتب أهل الكتاب يقول ابن عاشور: "وورد في الأناجيل أنه أحيا بنتا كانت ماتت فأحياها عقب موتها"[١٩٢].

ويقول د. صلاح الخالدي في كتابه القصص القرآني: "إن ما أخبر عنه القرآن من معجزة إحياء عيسى عليه السلام للموتى، كان مبهما ولم يرد في غير هاتين الآيتين، ولم يذكر الله لنا موتى معينين أحياهم عيسى عليه السلام، وكذلك كان إخبار القرآن عن الأكمه والأبرص مبهما، وبما أن السنة الصحيحة لم تبين لنا أشخاصا معينين، كان أحدهم أبرص فعالجه عيسى عيه السلام، أو كان ميتا فأحياه، فإننا لا نخوض في تعيين وتحديد من عالجهم أو أحياهم، ولا نذهب إلى الأناجيل

١٩٠- الودك: الدسم، وقيل اسم اللحم، (لسان العرب لابن منظور: ٥٠٩/١٠)

١٩١- انظر: جامع البيان للطبري: ٢٧٥/٣-٢١٦؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٥٦/٩-٥٧؛ والدر المنثور للسيوطي، ٢١٤/٢-٢١٦؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩٤/٤-٩٥

١٩٢- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٥٢/٢

لنأخذ منها أمثلة على ذلك لأن النصارى حرفوا الإنجيل"[١٩٣].

ونحي الشيخ محمد رشيد رضا هذا المنحى في رده على الإسرائيليات، ورفضه الخوض فيها، لكنه قال أن الآية لم تدل على وقوع الخلق والإحياء وأن ما يفهم من الآية، من أنه جعل فيه هذا السر، بحيث إذ طُلب منه ذلك أجاب، فقال: "ولا حاجة إلى هذه التفصيلات -الإسرائيليات- بل نقف عند لفظ الآية، وغاية ما يفهم منها، أن الله تعالى جعل فيه هذا السر، ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أن شيئا من ذلك وقع، وقد جرت سنة الله تعالى أن تجري الآيات على أيدي الأنبياء، عند طلب قومهم لها، وجعل الإيمان موقوفا عليها فإن كانوا سألوه شيئا من ذلك فقد جاء به ... أما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل، فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك"[١٩٤].

وما ذكره محمد رشيد رضا، وفق منهجه في فهم الغيبيات، ومحاولة تفسيرها تفسيرا عقليا ماديا، أو تأويلها تأويلا غير مقبول، وقد مر معنا سابقا ما يشير إلى ذلك المنهج الذي يخالف به جمهور المفسرين.

وأقول: إذا كان الله عز وجل قد أعطاه هذا السر، فما المانع من وقوع هذه المعجزات فعلا، ثم إن عيسى عليه السلام قد أرسل بها لتدل على صدقه، وكانت هي معجزاته لبني إسرائيل، فمن المنطقي أن تقع وأن يشاهدها بنو إسرائيل بأعينهم، حتى يتبين لهم صدقه، ويدركوا أنه من عند الله تعالى.

فإن قلنا إن هذا الخلق لم يقع بالفعل، فكيف صدقه بنو إسرائيل؟ وكيف كانت هذه المعجزات دالة على نبوته.

وإذا كنت لا أشك في وقوع هذه المعجزات بالفعل، فإنني لا أميل إلى ذكر القصص والروايات في ذلك كما فعل بعض المفسرين.

١٩٣- القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٣٠٩/٤

١٩٤- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ٣١١/٣

ولكنني أقول أن هذا الخلق للطير، وهذا الإبراء للأكمه والأبرص، وهــذا الإحيــاء للموتى، قد وقع فعلا لعيسى عليه السلام، ولكننا نجهل تفصيلات هذه المعجــزات، وكيف حدثت، ولا نعين الذين وقع لهم ذلك، بل نقف عند الآية، ونكتفي بما ذكرته لنا، دون أن نزيد على ذلك شيئا.

يقول سيد قطب: فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله -لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء- وإذا هو يبرئ المولود أعمى بــإذن الله، حيــث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر، ولكن الله الذي يهب البصر أصلا، قادر علــى أن يفتح عينيه للنور، ويبرئ الأبرص بإذن الله، لا بدواء والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة وعلى تحقيق الغايــة بــلا وسيلة(١٩٥).

المطلب السادس: فوائد ولطائف

١- لقد كانت معجزات عيسى عليه السلام متناسبة مع هدف رسالته، وهو الدعوة إلى تربية الروح، والإيمان بالبعث والنشور، وأن هناك حياة أخرى يُجــازى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

إن معجزة إحياء الموتى دليل على وجود الروح، ووجود اليوم الآخر، ووجود بعث وقيامة للأموات في الآخرة. فهذا ميت قد أكلته الأرض، تحللت أحشاؤه، وصارت عظامه رميما، فيناديه عيسى عليه السلام فإذا هو حي ينهض مــن موته، لو كان هذا الميت جسدا فقط -كما يقول اليهود- لما كــان ممكنــا أن ينهض من الموت لأن الجسد قد تحلل، فعندما استدعى عيسى عليــه الــسلام روحه بإذن الله عادت إلى جسده، وقام بقدرة الله، وفي قيــام المــوتى أمــام

١٩٥- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٩٩٧/٢

أعينهم بعد أن أحياهم عيسى بإذن الله، إثبات لقومه أن قيامة الأجساد من الموت حق، وأن اليوم الآخر حق. فمعجزة إحياء الموتى لا تدع مجالا لإنكار الآخرة، ولا تسمح بجحود البعث والنشور، خاصة وأن اليهود قد ساد في تفكيرهم عدم الإيمان باليوم الآخر، فكان إحياء الموتى صوتا قويا يحملهم على الإيمان، ولكنهم كانوا بآيات الله يجحدون[١٩٦].

٢- إن من لطائف التعبير القرآني عن آية إحياء عيسى عليه السلام الموتى أن فيه نوعا من التعاقب والمرحلية. ففي سورة آل عمران قال لبني إسرائيل: ﴿..وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وفي سورة المائدة قال الله ممتنا عليه: ﴿.. وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ فهو أولا أحياهم بإذن الله فدبت فيهم الحياة وصاروا أحياء، وهذا ما تكفلت بالإشارة له آية سورة آل عمران. وهو ثانيا أخرجهم من قبورهم أحياء، فبعدما دبت فيهم الحياة دعاهم إلى الخروج من قبورهم فخرجوا منها بإذن الله، وهذا ما تكلفت بالإشارة له آية سورة المائدة. فلا تكرار في إخبار القرآن عن الحالة الواحدة أكثر من مرة، وإنما هو التنويع في العرض وإفادة جديد في كل مرة[١٩٧].

٣- رغم ما جاء به عيسى عليه السلام من آيات واضحة تدل على صدقه، إلا أن كفرهم وعنادهم، حال دون تصديقهم لعيسى عليه السلام وإيمانهم به، فكم رأوا على يديه من آيات بينات، كانت لهم في كل منها موعظة ومزدجر.

ولكن الذي كان يحيي الموتى بإذن الله لم يستطع أن يحيي تلك القلوب الميتة المتحجرة. والذي كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، لم يستطع أن يبرئ هؤلاء مما كانوا يعانون منه من داء البغي. والذي كان يخلق من الطين كهيئة

١٩٦- انظر: أنبياء الله لأحمد بهجت: ٣٣١-٣٣٢

١٩٧- انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي: ٣٠٨/٤

الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، لم يستطع أن ينفخ فيهم روح الإيمان، فيسمو بأرواحهم من حضيض الشهوات إلى علياء مرضاة الله. بل على العكس فقد ازدادوا بغيا إلى بغيهم، وأرادوا أن ينفذوا فيه خطتهم الإجرامية والعياذ بالله[198].

٤- هذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها، أو رد العافية، وهي فرع عن الحياة، ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية، وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى ومنحه الوجود والحياة على غير مثال -إلا مثال آدم عليه السلام-. وإذا كان الله قادرا أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال، ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت من هذا المولد الخاص، متى رد الأمر إلى قدرة الله، ولم يقيد الإنسانُ اللهَ سبحانه وتعالى بمألوف الإنسان[199].

المبحث السابع
بعث أصحاب الكهف

المطلب الأول :مجمل القصة:

قال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا**

١٩٨- انظر: البرهان في نظام القرآن، د. محمد سبحاني: ٤٣٥، دارالكتب ودارالمجتمع، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٩٩- في ظلال القرآن لسيد قطب: ١/٣٩٩

بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى۝وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا۝هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا۝وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا۝وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا۝ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا۝ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا۝ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا۝وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا۝سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا۝وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا۝ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا۝وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا۝ قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ

أَحَدًا﴾[٢٠٠].

عرضت لنا هذه الآيات قصة أصحاب الكهف وهم فتية نظروا لما عليه قومهم من الشرك وعبادة الأصنام فانقدح في قلوبهم نور الإيمان، واطمأنت نفوسهم به، ورفضوا أن يؤمنوا إلا بالله عز وجل.

وقرر هؤلاء الفتية اعتزال قومهم وما هم عليه من الكفر والفرار بدينهم إلى الله، فخرجوا من مدينتهم واختاروا الكهف ليتجردوا بذلك من زينة ومتاع الحياة الدنيا، وطلبوا من الله عزّوجلّ أن ينشر عليهم من رحمته، فإذا بهذا الكهف الضيق الخشن المظلم، فضاء فسيح رحيب وسيع، تنتشر فيه الرحمة وتتسع.

ثم ضرب الله عز وجل عليهم النعاس، فناموا نومتهم الطويلة، وقد حفظ الله أجسادهم من البلى والعفن فأمر الشمس أن لا تمسها حتى لا تؤذيها فكانت عند الصباح تميل عن أجسادهم فلا تقع عليها وكانت عند الغروب تميل عنها كذلك.

وكان الناظر إليهم يحسبهم أيقاظا ينظرون إليه مع أنهم نائمون.

وكان الله عز وجل يقلبهم مرة على اليمين ومرة على الشمال، وكلبهم -الذي كان معهم- باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم.

وكي لا يعبث بهم عابث، قذف الله في قلب كل من ينظر إليهم الرعب بحيث لو اطلع عليهم لولى منهم فرارا ولمئ منهم رعبا.

وبقوا على هذه الصورة ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وبعد هذه المدة بعثهم الله من نومهم فصاروا يتساءلون عن مدة نومهم واختلفوا في تقديرها، فرأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها، ويدعوا أمرها لله عزّوجلّ، ثم كلفوا أحدهم بالذهاب إلى المدينة ليشتري لهم طعاما يأكلوه، وطلبوا منه أن يختار الطعام الطيب الحلال المباح، كما طلبوا منه أن يكون حذرا يقظا منتبها بحيث لا يفطن أحد إليه، ولايشعر أحد به، لأنهم كانوا يخشون أن يعرف قومهم مكانهم

٢٠٠- سورة الكهف، الآية: ٩-٢٦

فيقتلوهم أو يفتنوهم ويردوهم عن دينهم.

ذهب الرجل إلى المدينة ليشتري الطعام وحرص على التخفي والحذر والانتباه، لكن الله أراد أمرا آخر، فكشف أمرهم وأعثر عليهم قومهم وكان القوم مؤمنين بالله عز وجل، إذ زال ذلك الجيل الكافر الذي هرب منه الفتية إلى الكهف ونشأ جيل مؤمن بالله تبارك وتعالى.

فلما رأى أهل القرية ذلك الرجل، لحقوا به إلى الكهف، ولما وصلوه وجدوا الجميع قد ماتوا، فاختلفوا في أمرهم ماذا يفعلون بهم، فقرروا أن يبنوا عليهم مسجدا(٢٠١).

المطلب الثاني: قبسات من الآيات:

أولا:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

يُعرّض الله عز وجل بغفلة هؤلاء المشركين الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أصحاب الكهف ليعلموا ما فيها من العجب فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم: لا تحسبن قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة هي أعجب من بقية آياتنا، فإن آياتنا كلها عجب. وزينة الأرض وعجائبها أعظم وأبدع وأعجب من هذه القصة، فإن من قدر على تزيين الأرض ثم جعلها ترابا، وعلى خلق السموات والأرض، قادر على كل شيء، ومن قدرته أن يحفظ طائفة من الناس دون طعام وشراب زمانا معلوما.

٢٠١- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٧٤-٧٧، جامع البيان للطبري: ١٥/١٩٧-٢٠٠؛

ومفاتيح الغيب للرازي: ٢١/٨٣-١٠٢، في ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/٢٢٦١-٢٢٦٥؛

مع قصص السابقين في القرآن للدكتور صلاح الخالدي: ٢/٣١-٣٧

فإن كان هؤلاء المشركون قد سألوا عن عجيب فقد كفروا بما هو أعجب وهو انقراض العالم فإنهم كانوا يقولون: **﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾**(٢٠٢).

فقصتهم على ما فيها من غرابة ليست بأعجب آيات الله، بل إن في صفحات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف(٢٠٣).

ثانيا:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

الضرب هنا بمعنى الوضع، كما يقال: ضرب عليه حجابا، ومنه قوله تعالى: **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ﴾**(٢٠٤).

قال ابن عباس: "ضربنا على آذانهم بالنوم أي سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها"(٢٠٥).

والضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة، والمراد أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات(٢٠٦).

وقد يكون قوله تعالى: **﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾** استعارة بديعة للإنامة المستثقلة التي لا يكاد يسمع معها، وعبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، فالنائم ينتبه من جهة سمعه شبه لاستغراقه في نومه حتى لا ينتبه بمنبه بمن كان

٢٠٢- سورة الجاثية، آية: ٢٤

٢٠٣- انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١٧٤/٣؛ والتفسير المنير لوهبة الزحيلي: ٢١٦/١٥، والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٥٨/١٥؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٢٦١/٤

٢٠٤- سورة البقرة، الآية: ٦١

٢٠٥- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٦٣/١

٢٠٦- انظر: روح المعاني للألوسي: ٢١٢/١٥؛ و التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٥٨/١٥

خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه[٢٠٧].

وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم، لأنها الجارحة التي تفسد النوم وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع.

والأذن هي المحتاجة للحجب عادة، إذ هي الطريقة للتيقظ غالبا والصوت والتنبيه طريق من طرق إزالة النوم، فسدُّ طريقه يدل على استحكامه.

فالنوم الثقيل يستلزم عدم السمع،لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم، بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان[٢٠٨].

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رجل ذكر أنه نام ليلة حتى أصبح: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنه"[٢٠٩].

أي استثقل نومه جدا حتى لا يقوم بالليل، وهو مثل مضروب للغافل عن القيام بثقل النوم، كمن وقع البول في أذنه وأفسد حسه[٢١٠].

<u>ثالثا:</u>

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ﴾.

البعث: التحريك عن سكون إما في الشخص وإما عن الأمر المبعوث فيه، والمراد أيقظناهم من نومهم، يقال لكل من خرج من الموت إلى الحياة، أو من النوم

٢٠٧- انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١٠٢/٦، محاسن التأويل لمحمد جمال الدين القاسمي: ١٠/١١، دارإحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٧م.

٢٠٨- انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١٠٣/٦؛ و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٦٣/١٠؛

وروح المعاني للآلوسي: ٢١٢/١٥؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٠٦/٥

٢٠٩- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه: ٣٨٤/١، حديث رقم: ١٠٩٣

٢١٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر: ٢٩/٣

إلى الانتباه مبعوث، لأنه قد زال عنه ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث[٢١١].

وقد يكون البعث هنا بمعنى الإيقاظ أي أيقظناهم من نومتهم يقظة مفزوع كما يبعث البعير من مبركه، وحسَّن هذه الاستعارة هنا أن المقصود من هـذه القـصة إثبات البعث بعد الموت، فكان في ذكر لفظ البعث تنبيه على أن في هـذه الإفاقـة دليلا على إمكان البعث وكيفيته[٢١٢].

والكاف في قوله: "وكذلك" للتشبيه، والإشارة بـ "ذلك" إلى المصدر المفهـوم من ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي كما جعلنا في إنامتهم هذه المدة الطويلـة معجـزة ربانية، فكذلك الحال في إيقاظهم، فلقد أرقدنا هؤلاء الفتية فـي الكهـف، وحفظنـا أجسامهم من البلى على طول الزمان، وثيابهم من العفن على مر الأيـام، وكـذلك بعثناهم من رقدتهم وأيقظناهم من تلك النومة التي تشبه الموت، صـحيحة أبـدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئا ليعرفوا عظيم سـلطاننا وعجيب فعلنا في خلقنا، ليزدادوا بصيرة في دينهم وإخلاصهم لربهم عندما يتبينون طول الزمان عليهم وهم نائمون في رقدتهم لم يتغير منهم شيء، فيـزدادوا يقينـا بكمال قدرته تعالى وعلمه، ويستبصروا في أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمـؤمني زمانهم وآية بينة لكفارهم[٢١٣].

٢١١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٠/٣٦٣، ٣٧٤، والبحر المحيط لأبي حيـان: ٦/١٠٣، وزاد المسير لابن الجوزي: ٥/١١٤

٢١٢- التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٥/٢٦٩

٢١٣- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٧٧، و جامع البيان للطبري: ١٥/٢١٦، والبحر المحيط لأبي حيان: ٦/١١٠

رابعا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

أي وكما أنمناهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم، اطلعنا عليهم ليعلم الذين اطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث حق لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث، فإن من توفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا حافظا أبدانهم عن التحلل والتفتت، قادر أن يتوفى نفوس جميع الناس إلى أن يحشر أبدانهم فيردها.

فالعبرة في خاتمة هذه القصة هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس، يقرب إلى الناس قضية البعث فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها، وعلى هذا النحو بعث الله عز وجل الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم(٢١٤).

المطلب الثالث: مبهمات في القصة:

من خلال استعراضنا لأحداث هذه القصة نجد أن هناك أمورا كثيرة قد أبهمت ولم يرد في الآيات القرآنية توضيح لها.

فمثلا، لم توضح لنا الآيات الديانة التي كان عليها هؤلاء الفتية هل هي اليهودية أو النصرانية أو غيرهما.

كما لم توضح اسم الملك الذي عاشوا فترة حكمه، وهل هو روماني أو يوناني أو فارسي ...الخ.

كما لم توضح اسم المدينة التي كانوا فيها، ولا مكان الكهف الذي لجأوا إليه.

كما لم توضح أسماءهم، واسم كلبهم ولونه ولا وقت دخولهم الكهف، ولا وقت استيقاظهم، كما لم توضح اسم الذي ذهب إلى المدينة ليحضر الطعام وما

٢١٤- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٣/٤٨٠؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/٢٢٦٤

جرى له في المدينة من أحداث ومفاجآت، وكيف عثر أهل المدينة عليهم، وما جرى لهم بعد ذلك.

كل هذه الأمور وغيرها، لم تبينها الآيات القرآنية، لذلك كانت من المبهمات، فإن وجد حديث صحيح يبينها وجب الأخذ به، وإن لم يوجد وجب علينا السكوت عنها. وعدم توضيحها من خلال الروايات الإسرائيلية أو غيرها.

ولقد خاض فيها كثير من المفسرين وذكروا في ذلك الكثير من الروايات والإسرائيليات التي تحجب الناس عن تدبر النص القرآني، واستخراج ما فيه من دروس وعبر ودلالات ولا تقدم لهم علما ولا فائدة ولا نفعا.

ففي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن، ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح(٢١٥).

المطلب الرابع: لطائف وفوائد:

١- قدمت قصة أصحاب الكهف، وبعثهم بعد نومهم هذه المدة الطويلة، دليلا ومثالا واقعيا على إمكان البعث والقيامة. ففي قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾**، لطيفة تدل على هذا، حيث عبر القرآن عن استيقاظهم بالبعث، لأن الأمر كان شبيها ببعث الأموات من قبورهم، وفيه دلالة على قدرته تبارك وتعالى على البعث في الآخرة. كما أن قوله **﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾**، فيه إشارة إلى الحكمة من كشف أمرهم لأهل المدينة والناس من بعدهم، وذلك ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها. فهؤلاء الفتية ضرب على آذانهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وبقيت أجسامهم كما هي لم تتغير، كما احتفظوا بحواسهم وشعورهم وملابسهم

٢١٥- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٢٦١/٤، مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي: ٣٨/٢، ٤٠

لم يُنقص منها شيء طوال تلك المدة. وبما أن الله قادر على أن يبعثهم بعد نومهم الطويل، فإنه سبحانه قادر على بعث الناس يوم القيامة. فقصة أصحاب الكهف من أقوى الأدلة القرآنية العملية على البعث والإحياء يوم القيامة(٢١٦).

٢- إن من الخصائص الفنية في عرض قصة أصحاب الكهف: تلك الفجوات في القصة، بحيث تترك بين كل حلقتين فجوة، يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين السابق واللاحق منها.

فابتدأت القصة بمشهد أصحب الكهف وهم يتشاورون في أمرهم بعدما اهتدوا إلى الله بين قوم مشركين، فيجدوا أنه لا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا كهفا من الكهوف يعتزلون به قومهم. وينتهي تفصيل الآيات هنا، دون الحديث عن كيفية فرارهم أو دخولهم الكهف. لتبتدأ من جديد ببيان حالهم في الكهف بعدما نفذوا ما استقر عليه رأيهم، فها هم أولاء في الكهف قد ضرب الله عليهم النعاس وتكفلهم بحفظه ورعايته وبين نومهم كل هذه المدة الطويلة واستيقاظهم فجوة أخرى. فهاهم قد استيقظوا، فيسألوا بعضهم عن مدة لبثهم، ثم هم جائعون، وهم متخوفون أن ينفضح أمرهم فيوصون رسولهم أن يتلطف ولا يشعر به أحد لئلا يعرف القوم مقرهم فيرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم، ولكن أين هو هذا المشهد؟ وهناك فجوة متروكة في السياق القرآني، فنحن لا نجد إلا أن أمرهم قد كشف، وعثر الناس عليهم. ثم يعرض السياق القرآني المشهد الأخير، مشهد وفاتهم والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال. ثم يدور الجدل حول عددهم، وهنا فجوة أخرى تدعو القارئ إلى أن يملأها بما يتخيله بخياله عنها، فليتخذ الخيال هذا المسجد عليهم، وتنتهي بذلك مشاهد هذه

٢١٦- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤٨٦/٣؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٥٨/١٥؛ والتفسير المنير لوهبة الزحيلي: ٢١٦/١٥؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٢٦٤/٤

القصة[٢١٧].

٣- عرض القرآن الكريم قصة أصحاب الكهف بطريقة مؤثرة محببة للنفوس، وفق أرقى أساليب العرض الفني، لقد أوردت قصتهم أولا على سبيل الاختصار والإجمال ثم أوردها على سبيل التفصيل والبيان. وهي بذلك تحقق الغرض الديني للقصة عن طريق الجمال الفني إذ أن هذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق.

فقصتهم تبدأ هكذا: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا۝إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا۝ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾. ذلك ملخص القصة ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف وحالتهم بعد دخوله ونومهم ويقظتهم وإرسالهم واحدا منهم ليشتري لهم طعاما، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم، واختلاف القوم في أمرهم، الخ.

فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات[٢١٨].

٤- قوله تعالى: ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾.

عند إمعان النظر في الآيات، فإننا نجد فرقا بين الإخبار عن الفتية، والإخبار عن كلبهم. أما هم، فقد كانوا يقلبون ذات اليمين وذات الشمال، بينما لم يشمل التقليب كلبهم، حيث بسط ذراعيه بالوصيد، ونام على هذه الكيفية. وفي هذا إشارة إلى قدرة الله على حفظ النائمين، وهذه القدرة الربانية غير محكومة

٢١٧- انظر: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب: ١٥٦-١٦٠؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٤/٢٢٦١-٢٢٦٥

٢١٨- انظر: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب: ١٤٨-١٤٩

بالأسباب، فالفتية حفظهم الله عن طريق التقليب فلم تأكل الأرض أجسادهم. بينما حفظ الله كلبهم بدون تقليب، فلم تأكل الأرض جسده، رغم استقراره فوقها بدون حراك، فقدرة الله مطلقة لايحدها شيء[٢١٩].

٢١٩- مع قصص السابقين في القرآن للدكتور صلاح الخالدي: ٧٢/٢


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الثاني

الاحياء المعنوي في القرآن



تمهيد

إن ارتكاب الذنوب والمعاصي من أسباب مرض القلب وقسوته وجموده، وإذا تعرض القلب لهذا فلابد من معالجته، حتى لا يُؤدي به ذلك المرض إلى الموت، وهذا القلب الذي قسا وجمد وتبلد من الممكن أن يصلح وتدب فيه الحياة من جديد، فالله يحي الأرض الميتة المجدبة بوابل المطر، فتزهر وتمنح الزروع والثمار. كذلك يهدي الله القلوب القاسية الميتة بالقرآن والإيمان، فتحيا وتدب فيها الروح من جديد. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ۞ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [1].

كما أن الحياة نعمة ربانية، منحها الله للبشر ليقوموا بأعمال الخير، فلايحل لأحد أن يسلبها، وإلا كان متعرضا لغضب الله وسخطه.

ومن هنا فإن المعتدي على حياة إنسان، يعتبر معتديا على الحياة والإنسانية جميعها، ويستحق أن يعاقب عقوبة من نوع جريمته، فكانت فريضة القصاص، الذي هو في حد ذاته ضمان لحياة في معناه الأشمل والأعم، وكان في هذا القصاص إحياء للنفوس البشرية، وصون لوجودها، بعد أن صارت كالميتة لفقدها مقومات حياتها، من الأمان والسكون والطمأنينة. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

ولهذا سأتناول بعون الله وتوفيقه في هذا المبحث الحديث عن وجه آخر للإحياء وهو الإحياء المعنوي، موضحة ذلك من جانبين: الأول: إحياء القلوب بالإيمان، والثاني: إحياء النفوس بالقصاص.

١- سورة الحديد، الآيتان: ١٦-١٧

٢- سورة البقرة، الآية: ١٧٩

المبحث الأول

إحياء القلوب بالإيمان

المطلب الاول كالمراد بإحياء القلب بالإيمان:

أولا: تعريف القلب

أ - القلب لغة:

قلب: بفتح القاف وسكون اللام، اسم مصدر، من قلب يقلب قلبا، وهو في اللغة يأتي بمعنيين:

الأول: تحويل الشيء عن وجهه، تقول: قَلَبه يَقْلِبُه قَلْب، وقَلَبَ الشيء وقلّبه: حوّله ظهرا لبطن، أو حوّله عن وجهه[3].

قال الراغب الأصفهاني: "قَلبُ الشيء تصريفه، وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثوب، وقلب الإنسان أي صرفه عن طريقته ... وتقليب الشيء تغييره من حال إلى حال"[4].

الثاني: بمعنى خالص كل شيء ولبه، قلب كل شيء: لبه وخالصه ومحضه، وفي الحديث: "إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس"[5]. ومنه قلب الإنسان لأنه أخلص

٣- انظر لسان العرب لابن منظور: ١/٦٨٥-٦٨٧؛ ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٧/٤٥٦؛ والمصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: ٢/٥١٢، المكتبة العلمية - بيروت، (بدون تاريخ.

٤- معجم مفردات ألفاظ القرآن للإمام الأصفهاني: ٤١١

٥- أخرجه الدارمي في سننه كتاب فضائل القرآن، باب فضل يس: ٢/٥٤٨، حديث رقم: (٣٤١٦)، دارالكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد وخالد العلمي.

شيء فيه وأرفعه(٦).

ب - القلب اصطلاحا:

ذكر العلماء تعريفات عدة للقلب، منها: "أنه لطيفة روحانية، لها بهذا القلب الجسماني متعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب"(٧).

وقال الراغب الأصفهاني: "ويعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به، من الروح، والعلم، والشجاعة، وغير ذلك"(٨).

ومنها أنه هو محل القوة العاقلة من الفؤاد(٩).

وقال ابن منظور: "القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط(١٠)"(١١).

فالقلب على هذا هو لطيفة روحانية، لها تعلق بالقلب الجسماني وهو محل الإيمان والعلم والشجاعة أو ضد هذه الأشياء وغيرها، وهو المعول عليه في صلاح الإنسان أو فساده.

وأخرجه الترمذي في سننه كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل يس: ١٦٢/٥، حديث: ٢٨٨٧. وقال هذا حديث غريب.

٦- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٦٨٥/١؛ والمصباح المنير للفيومي: ٥١٢/٢؛ ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٤٥٦/٧

٧- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي: ٣/٣، دارإحياء التراث العربي (بدون تاريخ)

٨- معجم مفردات ألفاظ القرآن للإمام الأصفهاني: ٤١١

٩- إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٣٧/١

١٠- النياط: عِرق غليظ قد علّق به القلب من الوتين، وجمعه أنوطة. (انظر: العين للخليل بن أحمد: ٤٥٦/٧).

١١- لسان العرب لابن منظور: ٦٨٥/١

وسمي القلب قلبا لسببين:

الأول: لتقلبه من حال إلى حال[١٢]، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء"[١٣].

الثاني: لأنه أخلص شيء في الجسد وأرفعه، يقول أبوالبقاء الكفوي[١٤]: "وسمي المضغة الصنوبرية قلبا لكونه أشرف الأعضاء لما فيه من العقل وسرعة الخواطر،... وهو رئيس البدن المعول عليه في صلاحه وفساده"[١٥].

ثانيا: تعريف الإيمان

أ - الإيمان لغة:

الإيمان مشتق من "أَمَنَ" وقد أَمِنْتُ فأنا آمِن، من الأمن والأمان، والأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة.

وهو مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن، والإيمان معناه التصديق[١٦].

فهناك صلة بين الإيمان و"الأمن"، فالأمن ضد الخوف، وهو طمأنينة النفس

١٢- انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي: ٢٩١/٤

١٣- أخرجه الترمذي في سننه كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن: ٤٤٨/٤، حديث رقم: (٢١٤٠). وقال هذا حديث حسن، دارإحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق أحمد شاكر.

١٤- هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء بتركيا، والقدس وبغداد، عاد إلى استنبول وتوفي بها سنة ألف وأربع وتسعين. (انظر: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا ٢٢٩/١؛ ووكالة المعارف - استنبول، ١٩٥١م).

١٥- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ٧٠٣، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

١٦- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٢١/١٣-٢٣؛ ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١١/١.

وزوال الخوف، والإيمان هو التصديق المؤدي إلى الطمأنينة، وهذا يعني أن الأمن لن يحصل ولن يتحقق إلا بوجود الإيمان وتحققه، وأن الخوف لن يزول إلا بحياة الإيمان وفاعليته، وأن الطمأنينة لن تحل إلا بالإيمان الواثق البصير، وأن الثقة لن توجد إلا بوجود الإيمان.

فالأمن والإيمان متلازمان مترابطان، والصلة بينهما صلة الفرع بالأصل، والنتيجة بالمقدمة، والثمرة بالشجرة(١٧).

ب - الإيمان شرعا:

عرف الراغب الأصفهاني الإيمان بأنه إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح(١٨).

وجاء في اللسان نقلا عن الزجاج(١٩): أن الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة، غير مرتاب ولا شاك، وهو الذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه ولا يدخله في ذلك ريب(٢٠).

وقال ابن منظور أيضا: "الأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليه، فإذا هو اعتقد التصديق بقلبه كما صدق لسانه، فقد أدى الأمانة وهو

١٧-انظر: في ظلال الإيمان للدكتور صلاح الخالدي، دارالقلم - دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

١٨-معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني: ٢٦.

١٩- الزّجاج: هو أبوإسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، مصنف كتاب "معاني القرآن" وله تآليف جمة، لزم المبرد فكان يعطيه من عمل الزجاج كل يوم درهما فنصحه وعلمه، ثم كان من ندماء المعتضد، مات سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: ٣٦٠/١٤، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط).

٢٠-لسان العرب لابن منظور: ٢٣/١٣.

مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة وهو منافق"[٢١].

فالإيمان ليس مجرد التصديق والاعتقاد، ولكنه شامل يدخل فيه النطق والعمل. يقول شارح العقيدة الطحاوية في تعريفه: "هو تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان"[٢٢].

ثالثا: معنى إحياء القلب بالإيمان

تقدم أن الإحياء يأتي بمعنيين، أحدهما: إعادة الحياة إلى من كان حيا ثم مات، وعلى هذا المعنى فلابد من وجود حياة للقلب قبل أن يموت، وترد له الحياة مرة أخرى.

فالقلب حيٌّ أصلا، لأنه مفطور على الإيمان والهداية، ودليل ذلك، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه"[٢٤].

قال النووي[٢٥] في شرحه: "معناه أن كل مولود يولد متهيئا للإسلام"[٢٦].

٢١- لسان العرب لابن منظور: ٢٣/١٣

٢٢- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن أبي العز الحنفي: ٣٧٣/١، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م، تحقيق: جماعة من العلماء.

٢٣- سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

٢٤- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب معنى كل مولود يولد...: ٢٠٤٧/٤، حديث رقم: (٢٦٥٨).

٢٥- هو محي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي النووي. ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة. كان إماما حافظا متقنا، أتقن علوما شتى، وبارك الله في علمه وتصانيفه لحسن قصده، كان شديد الورع والزهد، تاركا لجميع ملاذ الدنيا ولم يتزوج، من

فالإيمان بالله فطري في النفس، والقلب في أصله حي بالإيمان، ولكن بانحراف هذه الفطرة وإبعادها عن جادة الطريق، باتباع الهوى والشيطان، والسير وراء الشهوات والملذات، وحب الدنيا والتعلق بها، يمرض القلب شيئا فشيئا ثم ينتهي به الحال إلى الموت فإذا ما أدركه صاحبه وشحنه بالإيمان، حصلت له الحياة، فيتم إحياؤه وإعادته للفطرة من جديد.

وقد مر معنا في المعنى اللغوي للقلب أنه يأتي بمعنى تحويل الشيء عن وجهه، ولما كان الإيمان بالله عزّوجلّ أمرا فطريا، وكان القلب مفطورا على الإيمان، فإذا انقلب وانغمس في الشهوات والملذات، فقد تحول وصُرف عن وجهه، وأنه يأتي بمعنى لب كل شيء وخالصه وأشرفه، فالقلب هو لب الإنسان، وأشرف شيء فيه، ومن خلاله تصل الحياة إلى الأعضاء جميعا، فإذا ما انحرف هذا القلب عن الإيمان ومات، فإن الإنسان يموت بموته، وإن كان في الواقع من جملة الأحياء لأنه بفقده أشرف شيء عنده يكون كمن فقد حياته.

وقد عرف ابن تيمية حياة القلب فقال: "واعلم أن حياة القلب وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، بل صفة قائمة بالموصوف، وهي شرط في العلم والإرادة، والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضا مستلزمة لذلك، فحياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب"[٢٧].

فإحياء القلب بالإيمان هو إيقاظ الإيمان في هذا القلب، وإنعاشه به بعد أن

تصانيفه "شرح صحيح مسلم"، "رياض الصالحين"، "الأذكار"، و"الأربعين للنووية"، زار بيت المقدس، وعاد إلى نوى فمرض عند والده، وحضرته المنية، توفي سنة ست وسبعين وستمائة. (انظر: تذكرة الحفاظ لمحمد بن طاهر بن القيسراني: ٤/١٤٧٠-١٤٧٣، دارالصمعي - الرياض، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي).

٢٦- صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: ٢٠٨/١٦، دارإحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٢٧- الفوائد لابن القيم الجوزية: ٢٦/١، دارالكتب العلمية - بيروت ١٩٧٣م، الطبعة الثانية.

مات وانغمس في الضلال، وذلك عن طريق تقوية الإيمان بالله، وما يقود إليه من فعل المأمورات واجتناب المحظورات حتى تتحقق للقلب الحياة الكاملة.،. يقول الإمام ابن القيم: "إن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك (أي بدون فعل المأمورات) لا يحصل شيء من ذلك (أي من حياة القلب)" [٢٨].

وأنشد ابن المبارك[٢٩] فقال:

رأيت الذنوب تميت القلوب ويتبعها الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب فخير لنفسك عصيانها[٣٠]

رابعا: أهمية إحياء القلب

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٣١].

بينت هاتان الآيتان أن من ينتفع بإنذار القرآن هو من كان حي القلب، مستنير البصيرة، يعرف مواقع الهدى والرشاد فهو يتواثب على الإقرار بالحق إذا لاح له بريق من نوره، فتمتلئ جوانبه إشراقا وضياء، ويخر له مذعنا مستسلما.

ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة، فيجعل الكفر موتا، ويجعل

٢٨- المرجع السابق: ١/١٢٠

٢٩- هو عبد الله بن المبارك بن واضح، ولد سنة ثماني عشرة ومائة، اشتهر بالتصانيف النافعة والرحلات الشاسعة، كان يقول الشعر وكان جامعا للعلم، توفي في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة. (انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/٢٧٥-٢٧٩).

٣٠- شعب الإيمان للبيهقي: ٥/٤٦٤

٣١- سورة يس، الآية: ٦٩-٧٠

استعداد القلب للإيمان حياة، وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان، فريق يستجيب فهو حي، وفريق لايستجيب فهو ميت"[٣٢].

والقلب هو الأساس للهداية والفلاح ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٣٣]. قال قتادة: "﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾"، لمن كان له قلب من هذه الأمة والمراد به القلب الحي"[٣٤].

وقد اهتم القرآن الكريم بالحديث عن القلب اهتماما كبيرا، حيث ورد لفظ "القلب" مائة وعشرين مرة[٣٥]، وتبدو أهميته في ما يلي:

١- هو أساس الهداية والصلاح:

إن صلاح الإنسان وفساده متوقف على القلب وحياته، فإذا حصلت له الحياة بالإيمان عم الصلاح جميع الجسد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[٣٦].

قال ابن حجر في شرحه: الأصل في الارتقاء والوقوع هو ما كان بالقلب لأنه عماد البدن[٣٧].

٣٢- انظر: تفسير المراغي للمراغي: ٣١/٢٣؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٦٦/٢٢؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٩٧٥/٥

٣٣- سورة ق، الآية: ٣٧

٣٤- جامع البيان للطبري: ١٧٧/٢٦

٣٥- انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبدالباقي: ٥٤٩-٥٥١

٣٦- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب فضل من استبرأ لدينه: ٢٨/١، حديث رقم: (٥٢).

٣٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لأحمد بن حجر العسقلاني: ١٢٩/١، دارالمعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب.

٢- به تتحقق حياة السعادة والسرور:

إن إحياء القلب ضروري لتحقيق حياة السعادة والفرح والسرور، والتي هي أعلى مراتب الحياة، فلا يمكن الوصول إليها إلا بعد إحياء القلب بمعرفة الله، يقول ابن القيم في ذلك: "فأول طريقها -حياة الفرح والسرور- أن تعرف الله، وتهتدي إليه، طريقا يوصلك إليه، ويحرق ظلمات الطمع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، ثم يقوم حارسا على قلبه، فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، ولا بخطرة فضول لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووساوسها، فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه، ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد حتى تستقر وينصبغ بها قلبه، بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحا وتنفسيا عنه، ففي القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله والإقبال عليه والإنابة إليه، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات. يقول تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾[٣٨]، ويقول أيضاً: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣٩]، وقد فسرها ابن القيم فقال: "هي حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها"[٤٠].

٣- تذبذب القلب وسرعة تقلبه وتأثره:

يعتري القلب أمراض عديدة، تؤثر على صحته، وقد تؤدي إلى موته، ومن هنا فلم يهمل القرآن الكريم هذه الناحية، حتى لا يُلقي القلب بصاحبه إلى الكفر

٣٨- سورة طه، الآية: ١٢٣-١٢٤.

٣٩- سورة النحل، الآية: ٩٧

٤٠- انظر: تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، تهذيب عبدالمنعم صالح العزي: ٥٩٨-٦٠٣، المكتبة العلمية (بدون تاريخ).

والعياذ بالله.

خاصة وأن القلوب ليست ثابتة على حالة واحدة بل هي كثيرة التقلب، يقلبها الله كيفما يشاء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء"[٤١].

كما أن للذنوب تأثيرا قويا على حياة القلب وموته، وهي بأنواعها الحسية والمعنوية تؤثر على القلب وحياته، كما أن الخواطر والهواجس تؤثر على القلب أيضا، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تعرض[٤٢] الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا[٤٣]، فأي قلب أشربها[٤٤]، نُكت فيه نكتة[٤٥] سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا[٤٦]، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا[٤٧]، كالكوز[٤٨] مُجخِياً[٤٩]،

٤١- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين إصبعين: ٤٤٨/٤. وقال حديث حسن.

٤٢- تعرض: أي تلصق بعرض القلب أي جانبها كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به (صحيح مسلم شرح النووي: ١٧١/٢).

٤٣- معنى عودا عودا: أي تعاد وتكرر شيئا بعد شيء (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧٢/٢).

٤٤- معنى أشربها: دخلت فيه دخولا تاما وألزمها، وحلت منه محل شراب، (المصدر السابق: ١٧٢/٢).

٤٥- معنى "نكتة": نقطة نقطة، (المصدر السابق: ١٧٢/٢).

٤٦- قال القاضي عياض: ليس تشبيها بالصفا بيانا لبياضه، لكن صفة أخرى، لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، (المصدر السابق: ١٧٢/٢).

٤٧- المربد: الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم، ويريد أربداد القلب من حيث المعنى لا الصورة، فإن لون القلب إلى السواد ما هو معروف، (النهاية في غريب الأثر للمبارك

لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه"[٥٠].

قال النووي في شرحه: "إن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه من كل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك، افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز، إذا انكب انصب ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك"[٥١].

فالمؤثرات التي تؤثر على القلب كثيرة، ومن هنا فلابد من التطهير المستمر للقلب للحفاظ على مادته وحياته. يقول ابن تيمية: "مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كان من أسباب صلاحه وشفائه، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يتغذى البدن بما ينميه، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح"[٥٢].

٤ - الحياة الحقيقية هي حياة القلب:

إن الحياة الحقيقية هي حياة القلب لا البدن، ومن هنا كان اهتمام القرآن بالقلب وإحيائه من باب الاهتمام بهذه الأمة وإحيائها، لتكون رائدة للأمم، وهو يجعل لحياة

الجزري: ١٨٢/٢، المكتبة العلمية - بيروت، ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي).

٤٨- الكوز: من الأواني معروف، وهو الكوب بلا عروة، اكتاز الماء: إذا شرب بالكوز، (لسان العرب لابن منظور: ٤٠٣/٥).

٤٩- مجخيا: مائلا (شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧٣/٢).

وليس قوله "كالكوز مجخيا" تشبيها لما تقدم من سواده، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قلب ونكس حتى لايعلق به خير ولا حكمة، (المصدر السابق: ١٧٣/٢).

٥٠- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة بالإيمان من بعض القلوب: ١٢٦/١، حديث رقم: (١٤٤).

٥١- صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧٣/٢

٥٢- أمراض القلوب لابن تيمية (بتصرف): ٤/١-٥، المطبعة السلفية - القاهرة، ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.

البشرية هدفا وطعما ولونا، فإذا ما فقد ذلك تصبح الحياة البشرية لا فائـدة فيهـا، وتتحول إلى حياة آلية مملة ومتعبة، ويتحول فيها الإنسان إلى إنسان آلي يتحـرك ولكن بدون قلب أو روح أوشعور[٥٣].

يقول الإمام ابن القيم: "حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سـبحانه وتعالى الكافر ميتا غير حي، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[٥٤]، فالحياة فـي الحقيقة حياة القلب وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله فتلك ساعات عمره، ولا عمر له سواها"[٥٥].

إن إحياء القلب بالإيمان مهم وضروري في حياة الإنسان، ولابد من الحفـاظ على هذا القلب، وحمايته مما يعتريه من أمراض وآفات، والاهتمام بإصلاحه حتى لا يتردى وينتكس، ولابد من تزويده بالزاد اللازم لحياته، ليبقى محافظا على حالته الإيمانية الرفيعة.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "القلـوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه، وقلـب منكوس، وقلب مصفح، فأما الأجرد فقلب المنكوس، وأما القلب المنكـوس فقلـب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي

٥٣- انظر: هذا القرآن للدكتور صلاح الخالدي: ٤٠، دارالمنار للنشر – عمـان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٥٤- سورة النحل، الآية: ٢١

٥٥- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن قيم الجوزيـة (بتـصرف): ٣٦/١، دارالكتب العلمية – بيروت، (بدون تاريخ).

المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه"[٥٦].

فالحديث يدل على أن القلب المصفح فيه إيمان وفيه نفاق، والعمل الصالح يمد الإيمان، والعمل السيئ يمد النفاق، فعند تغلّب مدد الإيمان على مدد النفاق يسيطر الإيمان على القلب، لكن إذا تغلب –والعياذ بالله– مدد النفاق وسيطر يصبح القلب منكوسا في النهاية.

فالفريضة الأولى في حق مرضى القلوب هي إصلاح قلوبهم ثم الاستمرار في حالة معينة بإعطائها الزاد اليومي اللازم الذي تحتاجه"[٥٧].

المطلب الثاني: طرق احياء القلب وآثاره:

أولا: طرق إحياء القلب

أ – إحياء القلب بالإيمان

يقول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٥٨].

عرضت لنا هذه الآية صورتين عجيبتين؛ الأولى: للمؤمن الذي كان ميتا، أي كان في الضلالة هالكا حائرا، فأحيى الله قلبه بالإيمان وهداه له، وجعل له نورا يمشي به في الناس، على بصيرة من أمر دينه وآدابه ومعاملاته.

والثانية: للكافر المنغمس في الظلمات، ليس بخارج منها، لأنه يبقى متحيرا لا

٥٦– أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٣/١٧، حديث رقم: (١١١٤٥)، مؤسسة قرطبة – مصر، (بدون تاريخ)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب الإيمان باب في قلب المؤمن وغيره: ١/٦٣، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٥٧– انظر: تربيتنا الروحية لسعيد حوى: ٧١–٧٤، دارالسلام – مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.

٥٨– سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

يهتدي إلى وجه صلاحه، فيستولي عليه الخوف والفزع والحيرة الدائمة.

فالمؤمن المهتدي هو الذي ينعم بحق الحياة الصحيحة السوية المتكاملة المطمئنة، لأنه على بصيرة تامة بواقعه وعمله وسيرته، وعلى معرفة دقيقة بدينه، وما ينتظره من مستقبل حافل بالآمال والخيرات المغدقة والنعيم الحافل.

والكافر الضال يعيش في ظلمات: ظلمة الكفر، وظلمة المنهج، وظلمة المستقبل الغامض المحفل بشتى ألوان العذاب والضيق والحيرة والقلق والاضطراب(٥٩).

هكذا كان المسلمون قبل هذا الدين، قبل أن ينفخ الإيمان في قلوبهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف ... كانت قلوبهم مواتا، وكانت أرواحهم ظلاما، ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس، تهدي الضال وتلتقط الشارد وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر، وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد.

فالإيمان ينشئ في القلب حياة بعد الموت، حياة يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، ويطلق فيه نورا بعد الظلمات، نورا يبدد كل شيء تحت أشعته، وفي مجاله جديد كما لم يَبْدُ من قبل قط لذلك القلب الذي نوره الإيمان.

والكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، فهو موت، وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله، فهو موت، وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية، فهو موت.

أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور، كمن حاله أنه في

٥٩- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢/٢٠٠-٢٠١؛ وتفسير المراغي: ١٨/٨؛ والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي: ٢٨/٨-٣١، دارالفكر المعاصر - بيروت، ١٩٩١م.

الظلمات لا مخرج له منها، إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما[٦٠]. يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ﴾[٦١].

ففي الآية تشبيه حال المؤمن بحال الحي، وحال الكافر بحال الميت، لأن الحياة لما كانت مبعث المدارك والمساعي كلها، وكان الموت قاطعا للمدارك والمساعي كلها، شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه، وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدركات النافعة كلها...

فصار المؤمن شبيها بالحي مشابهة كاملة، لما خرج من الكفر إلى الإيمان فكأنه بالإيمان نفخت فيه الحياة بعد الموت، وكان الكافر شبيها بالميت ما دام على كفره.

فالإيمان حياة، حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والاتجاه، كما أنه حركة بانية، مثمرة قاصدة.

والكفر موت، موت في الضمير، وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل، وانفصال عن الطريق الواصل، وعجز عن الانفعال والاستجابة المؤثرين في سير الحياة.

ولا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس[٦٢].

والذين لا يؤثر في قلوبهم الإيمان والوعظ والقرآن هم في حكم الموتى الذين لايسمعون، يقول تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى...﴾[٦٣].

٦٠-في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ١٢٠١/٣

٦١-سورة فاطر، الآية: ٢٢

٦٢-انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٩٤/٢٢، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي: ٢٥٤/٢٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٩٣٩/٥

٦٣-سورة النمل، الآية: ٨٠

فالتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة حالة جمود القلب، وخمود الروح، وبلادة الحس، وهمود المشاعر، فهؤلاء كالموتى يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم لا يسمعون الدعاء لأن الموتى لا يشعرون، والذي ينفصل حسه عن الوجود، فلا يدرك نواميسه وسننه، ميت لا حياة فيه.

وبالمقابل، فالمؤمنون قلوبهم حية متهيأة لتلقي آيات الله والانتفاع بها وبصائرهم مفتوحة، فهم يسمعون فيسلمون ولا تزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب[64].

إن الإيمان يوجد في القلب الحياة، وهو حياة الروح، ولقد سمى الله وحيه روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[65]، فأخبر أنه روح تحصل به الحياة، فهو يبث الحياة في القلب.

فالوحي والإيمان حياة الروح والقلب، ومن فقدهما فقد فَقَدَ الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، يقول ابن القيم: "كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه فيصير حيا بذلك النفخ وإن كان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذي ألقي إليه، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا...﴾. فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي، ونفخ الرسول البشري، حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول، حصلت له إحدى الحياتين، وفاتته الأخرى"[66].

64- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: 2666/5.

65- سورة الشورى، الآية: 52.

66- الفوائد لابن القيم: 1/89-90.

ب - إحياء القلب بالعلم

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...﴾[٦٧].

وقد ذكر الرازي في تفسير هذه الآية أنها اعتبرت الكفر موتا والهدى حياة، لأن الكفر جهل، والهدى علم، قال: "فلما جعل الله الكفر موتا والكافر ميتا، جعل الهدى حياة والمهتدي حيا، وإنما جعل الكفر موتا لأنه جهل، والجهل يوجب الحيرة والوقفة، فهو كالموت الذي يوجب السكون وأيضا الميت لا يهتدي إلى شيء، والجاهل كذلك، والهدى علم وبصر، والعلم والبصر سبب لحصول الرشد والفوز بالنجاة، وفي قوله: "ليس بخارج منها" دقيقة علمية وهي أن الشيء إذا دام حصوله مع الشيء صار كالأمر الذاتي والصفة اللازمة له، فإذا دام كون الكافر في ظلمات الجهل والأخلاق الذميمة صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية اللازمة له يعسر إزالتها عنه"[٦٨].

وإذا كان الجهل موتا، فإن العلم حياة ونور يجعله الله في القلب، فينيره ويحييه ويعرفه بخالقه، فيقبل على طاعته، يقول أبوالعباس القاسم بن القاسم السياري[٦٩]: "المعرفة حياة القلب بالله، وحياة القلب مع الله، ومن عرف الله خضع له كل شيء لأنه عاين أثر ملكه فيه ومن حفظ قلبه مع الله بالصدق أجرى الله على لسانه

٦٧- سورة الأنعام، الآية: ١٢٢

٦٨- مفاتيح الغيب للرازي (بتصرف): ١٣/١٧١-١٧٢

٦٩- هو أبوالعباس القاسم بن القاسم بن مهدي المروزي السياري، سبط الحافظ أحمد بن سيار، سمع أبا الموجه وأحمد بن عباد ومن قوله الخطرة لنبي، والوسوسة للولي، والفكرة للعامي، والعزم للفتى، توفي سنة اثنتين وأربعين وثلاث سنة، (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٥/٥٠٠-٥٠١).

الحكمة"[٧٠].

والجاهل ميت القلب والروح وإن كان حي البدن، وجسده قبر يمشي به على وجه الأرض أنشد بعضهم فقال:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرئ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور[٧١]

وإنما كان الجاهل ميت القلب، لأن الحياة هي الحس والحركة وملزومها، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم ولم تتحرك له، كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيها لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب والروح[٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٧٣].

وقد خص الزمخشري الحياة التي تحدثت عنها الآية بالعلم، فقال: "لما يحيكم" أي من علوم الديانات والشرائع، لأن العلم حياة كما أن الجهل موت، ولبعضهم:

لا تعجبن الجهول حلته ... فذاك ميت وثوبه كفن

وهو نهي للجهول عن العجب والخيلاء بثيابه، لأنه كالميت في عدم النفع وعدم الإدراك، وأن ثوبه الذي يعجب به كالكفن، حيث اشتمل على جسم لا إدراك

٧٠- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني: ١٠/٣٨١، دارالكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الرابعة.

٧١- نقلا عن تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: ص ٥٩٤

٧٢- انظر: تهذيب مدارج السالكين لابن القيم: ٥٩٤

٧٣- سورة الأنفال، الآية: ٢٤

فيه ولا نفع"[٧٤].

والجهل هو الموت الأكبر، ومن ارتقى بإنسان من الجهل إلى العلم فقد أحياه وأنشأه نشأة أخرى: يقول أبوحامد الغزالي: "حقيقة البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى، والجهل هو الموت الأكبر، والعلم هو الحياة الأشرف، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى العلم والجهل في كتابه العزيز وسماهما حياة وموتا، ومن رقي غيره من الجهل إلى المعرفة فقد أنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة، فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق العلم ودعائهم إلى الله تعالى، فذلك نوع من الإحياء وهي رتبة الأنبياء، ومن يرثهم"[٧٥].

وكما أن الجسد يتأذى بكثرة الأمراض والأسقام، وقد تؤدي أحيانا إلى موته وهلاكه، كذلك الجهل بالنسبة للقلب، فالقلب يمرض ويتألم ويتأذى بنوع من الجهل ويموت بالجهل المطلق، ويفقد القلب حياته بفقد العلم.

يقول ابن القيم: "فقد العلم فيه فقد حياة الروح والقلب، فلا غنى للعبد عنه طرفة عين، ولهذا إذا فُقد العلم من الشخص كان شرا من الحمير، بل شرا من الدواب عند الله، ولا شيء أنقص منه حينئذ".

وأما حصول اللذة والبهجة بوجود العلم، فلأنه كمال في نفسه، وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس، فإن الجهل مرض ونقص، وهو في غاية الإيذاء والإيلام للنفس، ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه"[٧٦].

وقد ورد العديد من الآيات والأحاديث التي تبين فضل العلم، وأهميته في التعرف على عظمة الخالق، ودقة صنعه، وإبداع خلقه، وسعة علمه الذي أحاط بكل

٧٤- الكشاف للزمخشري: ٢/٢١٠.

٧٥- المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي: ١/١٢٦، دارالجنان والجابي - قبرص، الطبعة الأولى ١٩٨٧، تحقيق بسام الجابي.

٧٦- مفتاح دارالسعادة لابن القيم: ١/٨٥، دارالكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ).

شيء في هذا الكون، ولا يتفاعل مع آياته إلا أصحاب القلوب الحية الذاكرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ﴾[٧٧].

ولو تأملنا قوله تعالى: "﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾[٧٨]، لوجدنا أن العلم طريق لصلاح القلب وإحيائه، فأهل العلم هم الذين يتغلبون على وساوس الشيطان ويخرجون بخشوع أكثر ويقين أعلى وإيمان أرقى.

وكلما ازداد علم المؤمن وتفكره وتأمله ازداد قلبه خشوعا وإجلالا وتقديسا لله، ومن ثم يخشاه حق الخشية، ويعبده حق العبادة، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٧٩]. يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي إنما يخشاه حق الخشية العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم أتم، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر، فليس العلم بكثرة الحديث والرواية، ولكن العلم عن كثرة الخشية، وهو نور يجعله الله في القلب، كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار جهلا"[٨٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، أصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم

٧٧-سورة آل عمران، الآية: ١٩٠

٧٨- سورة الحج، الآية: ٥٤

٧٩-سورة فاطر، الآية: ٢٨

٨٠-تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٥٤/٣

يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[٨١].

من هذا الحديث ندرك أن القلوب تختلف من خلال موقفها من العلم والهدى، وأن تجاوب هذه القلوب مع الوحي أو عدمه يعرف عن طريق العلم، فالعلم هو الوسيلة الأولى للإصلاح، وبقدر ما فيها من العلم تكون حياة القلب وصلاحه بالهدى، وبالعكس، ولو كانت خالية من العلم، فإن القلب يموت ولا ينتفع بالوحي والهدى.

جاء في كلام معاذ بن جبل عن فضل العلم: "تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تُقتص آثارهم، ويُقتدى بأفعالهم ويُنتهى إلى رأيهم، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة"[٨٢].

فالعلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، وبدونه يفقد الإنسان حياة قلبه، فهو نور لأنه يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها، وهو حياة، لأن الحياة هي المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال[٨٣].

٨١- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي من الهدى والعلم ١٧٨٧/٤، حديث رقم: (٢٢٨٢).

٨٢- ذكره الإمام مالك في موطأه كتاب العلم، باب ما جاء في طلب العلم: ١٠٠٢/٢، حديث رقم: ١٨٢١

٨٣- انظر: مفتاح دارالسعادة لابن القيم: ٥٣/١

ج - إحياء القلب بالعمل الصالح

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٨٤].

إن العمل الصالح المرتكز على قاعدة الإيمان بالله، كفيل بتحقيق حياة طيبة للقلب وصاحبه، وهو كفيل بتحقيق اتصال القلب بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته، وهو كفيل بتحقيق الصحة والهدوء والرضى والسكينة للقلب[٨٥].

وكما أن القلب يحيي بالعلم، فإنه لابد من قرن هذا العلم بالعمل، فهو يتقوى بالعمل، بل تدوم حياته بالأعمال الصالحة، لأن العلم النظري وحده لا يكفى، بل لابد من أن يقترن بالعمل حتى نصل بالقلب إلى الإيمان الحي الفاعل المؤثر، الذي يُغرس في قلب صاحبه فينمو ويزدهر ويضئ.

فالإيمان المطلوب هو الذي تنتج عنه الأعمال، والإيمان المعتبر هو الذي يبعث على الحركة والهمة والنشاط والسعي، والجهاد والتربية.

ولابد من العمل مع العلم، حتى تتسلل أنوار الإيمان إلى القلب شيئا فشيئا، فتحييه وتنيره، وبقدر ما تكون الهمة على العلم والعمل وبقدر ما يكون الإقبال على الأعمال الصالحة من صلاة وزكاة وصوم وجهاد وذكر وقراءة قرآن وغير ذلك، بقدر ما يستطيع الإنسان أن يصل إلى إصلاح قلبه وإحيائه بسرعة كبيرة[٨٦].

ولابد من معالجة أمراض القلب باستمرار حتى يحافظ على حياته، وذلك من خلال الاستغفار والذكر والعمل الصالح، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه

٨٤- سورة النحل، الآية: ٩٧

٨٥- الترغيب والترهيب لأبي محمد عبدالعظيم المنذري: ٥٢/١، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم شمس الدين.

٨٦- انظر: تربيتنا الروحية لسعيد حوى: ٧٣-٧٦.

ليغان على قلبي حتى استغفر في اليوم مائة مرة"[٨٧].

وإن لم نتدارك هذا القلب، ونعالجه باستمرار، فإنه يموت، وعندها لا يحزن المرء على فوات طاعة، ولن يندم على فعل معصية، يقول ابن عطاء الله السكندري[٨٨]: "من علامات موت القلب، عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات"[٨٩].

ومما لا شك فيه أن أفضل الأعمال بعد أركان الإسلام، الذكر وقراءة القرآن، فلكل واحد منهما دور فعال في الارتقاء بالقلب وإحيائه، يقول الإمام ابن القيم: "مفتاح حياة القلب تدبر القرآن وترك الذنوب والتضرع بالأسحار"[٩٠].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن فضل الذكر، ودوره في إحياء القلب: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت"[٩١].

فالقلب يحيا بذكر الله، كما أنه يموت بترك الذكر، فمن وجد قلبه ميتا، فعليه أن يسارع إلى إحيائه، ولا حياة للقلب إلا بالذكر.

وقد شبه الإمام ابن تيمية الذكر للقلب بالماء للسمك، فقال: "الذكر للقلب كالماء

٨٧- أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه: ٢٠٧٥/٤، حديث رقم: (٢٧٠٢).

٨٨- هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الفضل تاج الدين ابن عطاء الله السكندري، متصوف شاذلي، من العلماء له تصانيف منها الحكم العطائية وتاج العروس، توفي بالقاهرة سنة تسع وسبع مائة للهجرة، (انظر: الأعلام للزركلي: ٢١٣/١)

٨٩- انظر: منازل الصديقين والربانيين لسعيد حوى: ٣٧١، دارعمار - بيروت، ١٩٨٩م.

٩٠- حادي الأرواح لابن القيم الجوزية: ٤٨/١، دارالكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ).

٩١- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات باب فضل الذكر: ٢٣٥٣/٥، حديث رقم: (٦٠٤٤)

للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!"[٩٢]

وكذلك الحال بالنسبة للقرآن، فبه تحصل الحياة للقلوب، وزوال ما بها من غمّ وهمّ وحزن، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم اجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني وذهاب همي..." [٩٣].

قال ابن القيم في شرح هذا الحديث: "الربيع المطر الذي يحي الأرض، شُبه القرآن به لحياة القلوب به، فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن وأن ينور به صدره، فتجتمع له الحياة والنور، ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب، تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح، سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها.

ولما كان الهم والغم والحزن يضاد حياة القلب واستنارته سأل ربه أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أحرى أن لا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجه أو ولد، فإنها تعود بذهاب ذلك"[٩٤].

فلا شيء أنفع للقلب –بعد أداء الفرائض– من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة، والتي بها فساد القلب وهلاكه[٩٥].

إن العمل الصالح وقراءة القرآن والذكر بمثابة الغذاء والدواء بالنسبة للقلب،

٩٢- الوابل الصيب لابن القيم: ٦٣/١، دارالكتاب العربي – بيروت ١٩٨٥، الطبعة الأولى، تحقيق محمد عوض.

٩٣- أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء: ٦٩٠/١، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

٩٤- الفوائد لابن القيم الجوزية (بتصرف): ٢٦/١

٩٥- انظر: مفتاح دارالسعادة لابن القيم: ١٨٧/١

فإذا ما أهملت وتوقف الغذاء عن القلب فإنه يمرض، وإن لم نتداركه بالدواء المتمثل في الأعمال الصالحة والأذكار التي تساعد على التطهير المستمر والتزكيـــة، فـــإن المرض سيستفحل، ويؤدي إلى موته في النهاية.

وإضافة إلى ما ذكر، فإن القلب يحيى بجميع أنواع الطاعات من جهاد وأمـــر بمعروف ونهي عن منكر وغيرها من أنواع الطاعات التي تؤدي إلى الحياة الدائمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٩٦]. قال مجاهد: "هو الحق"، وقال قتادة: "هو هذا القرآن فيه النجاة والنقاة والحياة". وقال السدي: "لما يحيكم" في الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر[٩٧].

إن رسول الله يدعوهم إلى ما يحييهم.

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها مـــن أوهـــام الجهـــل والخرافة ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الإنسان وتكريمه.

ويدعوهم إلى منهج للحياة ومنهج للفكر ومنهج للتصور، يطلقهم من كل قيـــد إلا ضوابط الفطرة.

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم والثقة بدينهم وربهم.

ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله لتقرير ألوهية الله سبحانه في الأرض وفي حياة الناس.

وهي دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة.

إن هذا الدين منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة، منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى، ومن ثم فهي دعوة إلى الحياة بكل صورها وأشكالها وفي كل مجالاتها

٩٦- سورة الأنفال، الآية: ٢٤

٩٧- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/٢٩٨؛ زاد المـــسير لابـــن الجـــوزي: ٣/٣٣٨؛ الدر المنثور للسيوطي: ٤/٤٤

ودلالاتها[٩٨].

فكلما حافظ الإنسان على هذه العبادات والطاعات، كلما أمد قلبه بالزاد اللازم لحياته، وكلما أكثر منها تمكن من الحفاظ على حياة قلبه، أما إذا أهمل هذه العبادات والطاعات فإن ذلك يؤدي إلى موت قلبه.

قيل لإبراهيم بن أدهم[٩٩]: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ وقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١٠٠]، قال: لان قلوبكم ميتة، قالوا: وما الذي أماتها؟ قال: ثمان خصال، عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده، وقلتم نحب رسول الله ولم تعملوا بسنته، وقلتم نخشى الموت، ولم تستعدوا له. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[١٠١]، فواطأتموه على المعاصي، وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها، وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم، فأسخطتم

٩٨- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ٣/١٤٩٤-١٤٩٥

٩٩- إبراهيم بن أدهم: هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، ولد في حدود المائة، كان من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم، وبينما إبراهيم في الصيد، يركض على فرسه، إذ هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث، اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته ورفض الدنيا. ثم انتقل إلى بغداد، ثم خرج إلى الشام طلبا للحلال المحض، فأقام بها غازيا ومرابطا، ولزم الورع الشديد. قيل لإبراهيم بن أدهم: لو تزوجت، قال: لو أمكنني أن أطلق نفسي لفعلت.

كان يصوم في الحضر والسفر، ولا ينام الليل، وكان كثير التفكر، توفي سنة اثنتين وستين ومائة. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٧/٣٨٨-٣٩٧، مشاهير علماء الأمصار، أبوحاتم البستي: ١/١٨٣).

١٠٠- سورة غافر، الآية: ٦٠

١٠١- سورة فاطر، الآية: ٦

ربكم، فكيف يستجيب لكم؟!"[102]

ثانيا: آثار إحياء القلب

إن تعمير القلب بالإيمان ينير القلب، ويملؤه بالتوكل والإخلاص، والصبر والشكر، والإحسان والتقوى، والعمل بالإسلام، وحسن الخلق، والكلمة الطيبة، وغير ذلك من الأخلاق.

يجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق هذا الدين ومنهجه في العمل والحركة تكشفا عجيبا، ولا يبقى مجرد مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات، إنما يبدو تصميما واحدا متداخلا متكاملا، يبدو حيا يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فتتكشف له حقائق الوجود وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث الجارية في عالم الإنسان والكون تكشفا عجيبا.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر، وفي كل حدث.

ويجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه.

ويجد الراحة في باله وحاله ومآله.

ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين.

وإحياء القلب بالإيمان يوجد الحياة الحقيقية في الدنيا، والحياة الأبدية السرمدية في الآخرة، لما يحدثه في القلب من انشراح ونور، ومحبة وإخلاص وإنابة، فيعيش في أهنأ عيش وألذه وأطيبه في الدنيا، ومن ثم الحياة الأبدية السرمدية في الآخرة.

وإحياء القلب بالإيمان يجعل صاحبه يسمع ويبصر ويعقل، لأن القلب الحي

١٠٢- المستخلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى: ١٣٦، دارالسلام - مصر، الطبعة الأولى ١٩٨٣.

هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه، ويؤثره على غيره.

وإحياء القلب بالإيمان يجعل المسلم يحيى بروحه، وينير حياته ويمشي بين الناس محفوفا بهذا النور، ويسعد ويتميز به عن الكافر الميت الذي يتخبط في الظلمات.

وإحياء القلب بالإيمان يوجد عند صاحبه حياء، يمنعه من القبائح التي تفسد القلب، وصاحب القلب الحي سرعان ما تظهر عليه آثار القبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح، بخلاف الذي لا حياء معه ولا إيمان يزجره عن ذلك.

وإحياء القلب بالإيمان، كفيل بتكوين الشخصية الإيمانية المتكاملة المتوازنة، وإعادة صياغة الإنسان من جديد على هدي وحقائق وبصائر الإيمان ويكوّن له شخصيته النموذجية السوية، ويخرجه إنسانا حقا، يعيش إنسانيته ويتذوق حياته، ويكفل له الحياة التي تليق به[١٠٣].

هذا وثمرات إحياء القلب يعجز القلم عن حصرها في هذه الوريقات لأنها أكثر وأعظم وأجل من أن تحصر، وما ذكرته هنا ليس على سبيل الحصر، بل على سبيل المثال.

١٠٣- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ١٢٠١/٣؛ وأمراض القلوب لابن تيمية: ١٣/١ وتربيتنا الروحية لسعيد حوّى: ١١٧-١١٨؛ وهذا القرآن لصلاح الخالدي: ص٤١، ص١٠٣

المبحث الثاني

إحياء النفوس بالقصاص

المطلب الأول: مدخل لفهم القصاص:

أولا: تعريف القصاص

أ - القصاص لغة:

القصاص مصدر مأخوذ من قصص، وهو في اللغة يأتي بثلاثة معان:

الأول: قطع الشيء تقول: قص الشعر والظفر يقصه قصا وقصصه: قطعه، وأصل القص القطع، يقال قصصت بينهما أي قطعت، والمقص ما قصصت به أي قطعت، ومنه قولهم: طائر مقصوص الجناح، أي مقطوع(١٠٤).

الثاني: اتباع الأثر، يقال قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء ومنه قوله تعالى: **﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾**(١٠٥)، أي اتبعي أثره، وقوله تعالى: **﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾**(١٠٦)، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان أثره(١٠٧).

الثالث: المساواة والمناصفة، ومنه القصاص القود، وهو القتل بالقتل أو الجرح بالجرح، والتقاص التناصف في القصاص، وتقاصّ القوم إذا قاص كل واحد منهم صاحبه في حساب أو غيره، وقاصصته مقاصة وقصاصا إذا كان لك عليه دين مثل ماله عليك فجعلت الدين في مقابلة الدين(١٠٨).

١٠٤- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٣/٧، والقاموس المحيط للفيروز آبادي: ٥٠٥/٢.

١٠٥- سورة القصص، الآية: ١١

١٠٦- سورة الكهف، الآية: ٦٤

١٠٧- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٤/٧، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٢٢٥/١.

١٠٨- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٧٦/٧، والمصباح المنير للفيومي: ٥٠٦/٢، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر: ٢٢٥/١

ب - القصاص شرعا

ذكر العلماء عدة تعريفات للقصاص، منها ما يلي:

١- أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل[١٠٩].

٢- القصاص عبارة عن المساواة، وفي حقيقة اللغة هو اتباع الأثر، واتباع أثر الشيء في الإتيان بمثله، فجعل عبارة عن المساواة لذلك[١١٠].

٣- القصاص هو المماثلة وهو مأخوذ من القص وهو القطع[١١١].

ولو تأملنا هذه التعريفات، لوجدنا أن هناك صلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للقصاص.

فهو مأخوذ من قَصَصَ بمعنى قطع، لأنه يقطع النزاع الناشب بين الفريقين قبله[١١٢].

وهو مأخوذ من القص بمعنى تتبع الأثر، لأنه يتتبع فيه الجاني، ولا يتركه من غير عقاب رادع، ولا يترك المجني عليه من غير أن يشفي غيظه، فهو تتبع للجاني بالعقاب وللمجني عليه بالشفاء[١١٣].

وهو مأخوذ من المساواة والمناصفة، لأن فيه مساواة بين الجريمة والعقوبة

١٠٩- التعريفات للإمام علي بن محمد بن علي الجرجاني: ٢٢٥/١، دارالكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، تحقيق إبراهيم الأنباري.

١١٠- المبسوط لمحمد بن أبي سهيل السرخسي: ٦٠/٢٦، دارالمعرفة - بيروت، ١٤٠٦هـ.

١١١- الزاهر لأبي منصور الهروي: ٣٦٥/١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، تحقيق د. محمد الألفي.

وتحرير ألفاظ التنبيه، لأبي زكريا النووي: ٢٩٣/١، دارالعلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق عبدالغني الدقر.

١١٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٣٦/٢

١١٣- العقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ محمد أبوزهرة: ٣٣٥، دارالفكر العربي (بدون تاريخ).

وهذه أبلغ العدالة، إذ أن الجزاء إذا ساوى العمل كان ذلك عين العدل ولبه ومعناه[114].

ثانيا: حكمة مشروعية القصاص

إن من يطلع على تاريخ العرب وأحوالهم قبل مجيء الإسلام، يجد أنه كان مليئا بالفتن والحروب، فكان يُغير بعضهم على بعض، ويسرق ويسلب ويقتل بعضهم بعضا، ثم يقوم أفراد القبيلة المنكوبة بالمطالبة بالثأر، وقد يقتلون غير القاتل، وقد يقتلون رئيس القبيلة، أو يقتلون الجماعة بالواحد.

وكاد ذلك أن يفنيهم، لولا أن تداركهم الله برحمته، فجاءهم الإسلام الذي دعا إلى حفظ النفس البشرية، وعدم انتهاك حرمتها دون مسوغ، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾**[115].

كما شرع لهم القصاص للحفاظ على الحياة الإنسانية، وتتجلى الحكمة من تشريع القصاص في نقاط منها ما يأتي:

١- إقرار مبدأ المساواة في الدماء، والمساواة في العقوبة، فالقتل اعتداء متعمد، فتكون العدالة أن يؤخذ الفاعل بمثل فعله. فكما حرم الجاني المجني عليه من التمتع بحياته، وجب أن يحرم الجاني من الحياة، ليكون الجزاء من جنس العمل، وليس من المعقول أن يفقد أب ولده، ويرى قاتله يسير طليقا متمتعا بحياته دون أن يتمكن من الاقتصاص منه.

٢- إن القصاص هو العقاب الرادع الذي يجعل من يتجه إلى الاعتداء على النفس بالقتل، يفكر مرات ومرات قبل أن يقدم على ما حدثته به نفسه فيمتنع. بل إن مشاهدة إيقاع هذه العقوبة على الجاني، تؤدي إلى امتناع كثير من مريدي

١١٤- المرجع السابق: ٣٣٨

١١٥- سورة الإسراء، الآية: ٣٣

القتل من تنفيذ ما أرادوا، لأن مصيرهم سيكون كمصير ذلك الذي اقتُص منه، وليس الأمر كذلك حين يعلم أن جزاءه السجن، فقد يُقدم على القتل ويصبر على السجن مقابل أن يرضي قوّته الغضبية.

٣- إن القصاص هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة، وهو الذي يذهب بحزازات النفوس وجراحات القلوب، وهو الذي يسكن فورات الثائر الجامحة. وهذا يدل على حكمة الشريعة الإسلامية، ومعرفتها بما فُطرت عليه النفس البشرية من النوازع، لأن الغضب للدم فطرة وطبيعة في النفس، وقد لباها الإسلام بتقرير مبدأ القصاص، الذي يشفي غليل ولي المقتول، ويُطفئ نار غيظه، وسيتأصل من نفسه نار الشر والحقد والتفكير في الثأر، لأنه يعلم أن القصاص كفيل بالانتقام لهم ممن اعتدى على قتيلهم[١١٦].

والقصاص فوق هذا كله، حياة المجتمع حياة عالية سامية هادئة، إذ أنه يمنع من انتشار الفوضى والظلم بالقتل، ويعتمع العدوان، ويحصر الجريمة من أضيق نطاق ممكن.

١١٦- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢/٢٥١؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢/٨٩٨-٨٩٩؛ والتفسير المنير لوهبة الزحيلي: ٢/١٠٥-١٠٦ والعقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ محمد أبوزهرة: ٣٣٦-٣٣٨

المطلب الثاني: آيات إحياء النفوس بالقصاص:

أولا:

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[١١٧].

أ - كيفية إحياء النفوس بالقصاص

من خلال وقوفي على معنى هذه الآية في كتب التفسير والفقه، وجدت أن المفسرين والفقهاء قد ذكروا وجوها عدة في كيفية إحياء النفوس بالقصاص، وقد تشابهت هذه الوجوه في عباراتهم كثيرا، بينما نلاحظ بعضهم قد ذكر وجوها أخرى مختلفة، وسأوضح هذه الوجوه في النقاط التالية:

١- إن تطبيق حكم القصاص يؤدي إلى ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا، فالنفوس قد جُبلت على حب البقاء، وعلى إرضاء القوة الغضبية، فإذا علم الإنسان أنه يقتل قصاصا إذا قتل آخر، كف عن القتل وارتدع عن الوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية، لأنه ترك القتل وبذلك لم يقتل وبقي حيا، ولأن من أراد قتله قد سلم من القتل أيضا وبقي حيا، فكان في شرع القصاص سبب حياة لكل منهما، أما لو علم أنه سيسلم من الموت، فإنه سيقدم على القتل مستخفا بالعقوبة[١١٨].

كما قال سعد بن ناشب[١١٩] لما أصاب دما وهرب، فعاقبه أمير

١١٧- سورة البقرة، الآية: ١٧٩

١١٨- انظر: مواهب الجليل من أدلة خليل، أحمد بن أحمد الشنقيطي: ٢٣٢/٦، دارالفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ، الطبعة الثانية؛ والأم لمحمد بن إدريس الشافعي: ٩/٦، دارالمعرفة - بيروت، ١٣٩٣، الطبعة الثانية؛ والمبسوط للسرخسي: ٦٠/٢٦، دارالمعرفة - بيروت، ١٤٠٦هـ؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٥٦/٥؛ وفتح القدير للشوكاني: ١٧٦/١

١١٩- هو سعد بن ناشب بن معاذ بن جعدة المازني التميمي، المولود نحو عشرة ومائة للهجرة، شاعر من أهل البصرة، اشتهر في العصر المرواني، (انظر: الأعلام للزركلي: ١٣٩/٣).

البصرة بهدم داره:

سأغسل عني العار بالسيف جالبا	علي قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن داري وأجعل هدمها	لعرضي من باقي المذمة حاجبا
ويصغر في عيني تلاوي إذا انثنت	يميني بإدراك الذي كنت طالبا[١٢٠]

٢- إن في القصاص إحياء للنفوس، فهو يدفع سبب الموت والهلاك عن أولياء القاتل، لأن أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيظ، فيهمون بقتل القاتل وأوليائه، وربما لايكتفون بقتل القاتل بل يقتلون كثيرا من أفراد قبيلته، وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيما أشرف من المقتول فيفضي ذلك إلى أن يقتلوا من قدروا عليه من أولياء القاتل، فيقتلون بالواحد الجماعة. كما قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يُفني بني بكر ابن وائل[١٢١] ليأخذ بثأر أخيه، وما كان الثأر واقفا عند حد معين بين القبائل العربية حتى إنها تستمر معاركه المتقطعة أربعين عاما أحيانا.

فإذا طبق حد القصاص، واقتص من القاتل، شفيت صدور أولياء القتيل من الحقد

١٢٠- نقلا عن التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢/١٤٥.

١٢١- دارت حرب بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب سميت بالبسوس بسبب قتل كليب، قتله جساس بن مرة لاختلافهم على ناقة كانت لأخت جساس ترعى في حمى كليب فرماها بسهم في ضرعها، فلما علم جساس بذلك تبعه وقتله، ووصل الخبر للمهلهل أخو كليب فجز شعره وقصر ثوبه وأعلن الحرب على جساس وقومه، ودارت بينهم الحرب مدة أربعين عاما. (انظر: الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن عبدالواحد المعروف بابن الأثير: ١/٥٢٣-٥٣٩، دارصادر - بيروت، ١٩٨٢م).

والرغبة في الثأر، وحُقنت دماء غير القاتل، وتحققت الحياة لكلا الطرفين، لأنه لايقتل غير القاتل، فيندفع شره عن عشيرة المقتول، وبالتالي عن عشيرته[١٢٢].

٣- في القصاص حياة لأولياء القتيل، لأن القاتل، يصير حربا عليهم، لخوفه على نفسه منهم، فهو يقصد إفناءهم لإزالة الخوف عن نفسه، وقد يستعين على ذلك بأمثاله من السفهاء ليزيل خوفه، فإذا استوفي القصاص اندفع شر القاتل عن أولياء القتيل، وبذلك تتحقق الحياة لهم[١٢٣].

٤- إن في تطبق حكم القصاص، إحياء معنوي بالنسبة للقاتل، لأنه إذا نزل به العقاب أقبل مطمئنا إلى عدالته، لأنه جزاء ما كسبت يداه، أما إذا لم يقتص منه في الدنيا فإنه يبقى فارا من أيدي العدالة، مما يجعله في اضطراب وقلق دائمين، أما إذا سلم نفسه للقصاص فإنه يمحو إثمه، وينجيه من قصاص الآخرة[١٢٤].

ففي القصاص حياة على معناها الأعم والأشمل، لأن الاعتداء على حياة

١٢٢- انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية: ١٢٢/٢، دارالجيل - بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق طه عبدالرؤوف.
والمغني لعبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي: ٢١٤/٨، دارالفكر - بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى؛ وكتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه: ٣٧٤/٢٨، مكتبة ابن تيمية، تحقيق عبدالرحمن قاسم (بدون تاريخ)؛ مفاتيح الغيب للرازي: ٥٦/٥؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٥٦/٢.

١٢٣- انظر: المغني لابن قدامة: ٢١٤/٨؛ والمبسوط للسرخسي: ٦٠/٢٦؛ والإبهاج للسبكي: ٣٣٤/١، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق جماعة من العلماء.

١٢٤- انظر: مواهب الجليل: ٢٣٢/٦؛ وروح المعاني للآلوسي: ٥١/٢؛ ومعالم التنزيل للإمام البغوي: ١٤٦/١، دارالمعرفة - بيروت، ١٩٨٧م، الطبعة الثانية، تحقيق خالد سوار.

فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حي، فـإذا كـف القـصاص الجاني عن إزهاق حياة واحدة، فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها، وكان في هذا الكف حياة، حياة مطلقة، لا حياة فرد، ولا حياة أسرة، ولا حياة جماعة، بل حيـاة عامة شاملة.

ثم -وهو الأهم والعامل المؤثر في حفظ الحياة- استجاشة شعور التدبر لحكمة الله ولتقواه "لعلكم تتقون" هذا هو الرباط الذي يعقل النفوس عن الاعتداء، الاعتـداء بالقتل ابتداء، والاعتداء في الثأر أخيرا، التقوى، حساسية القلب وشعوره بـالخوف من الله، وتحرجه من غضبه وتطلبه لرضاه، إنه بغير هذا الرباط لا تقوم شـريعة ولا يفلح قانون، ولا يتحرج متحرج.

وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبـي صلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه، طائعا مختارا.

لقد كانت هناك التقوى، وكانت هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر، وفـي حنايا القلوب، تكفها عن مواضع الحدود، إلى جانب الشريعة النيرة البصيرة بخفايا الفطر ومكنونات القلوب[١٢٥].

ب - وجه البلاغة في الآية

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. هو قول بليغ، وجنس من الفـصاحة رفيع، حيث جعل الشيء محل ضده، فإن القصاص موت وإزالة للحياة، وقد جعـل مكانا للحياة باعتبار ما يؤول إليه من الحياة.

ولذلك عرّف القصاص ونكرّ الحياة، والتنكير هنا للتفخيم والتعظيم، للإشعار بأن في هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما لا يقدر قدرة ولا يجهل سره.

١٢٥- في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ١/١٦٥-١٦٦

فبينت هذه الآية حكمة القصاص بأسلوب لا يُسامي، وعبارة لا تُحاكي، وقد نقل عن بعض بلغاء العرب كلمة في مثل معناها، وهي قولهم في المثل: القتل أنفى للقتل، وفتنوا بهذه الكلمة، وظنوا أنها نهاية ما يمكن أن يبلغه البيان[١٢٦].

لكن قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ قد فاقها كثيرا، فهناك تفاوت واضح بين المثل وبين الآية من جهة البلاغة ودقة المعنى.

وقد ذكر العلماء وجوها من ذلك، أذكر بعضاً منها:

١- قلة حروف الجملة القرآنية فإن قوله تعالى: "القصاص حياة" فيه عشرة حروف، والمثل مكون من أربعة عشر حرفا.

٢- الإطراد[١٢٧] في الآية بخلاف المثل، إذ في كل قصاص حياة، بينما ليس كل قتل أنفى للقتل، بل إن القتل ظلما هو أوعى للقتل، فالذي ينفيه هو قتل خاص وهو القصاص.

٣- خلوا الآية من تكرار لفظ القتل الواقع في المثل، والخالي من التكرار أفضل من المشتمل عليه وإن لم يكن مخلا بالفصاحة.

٤- إن لفظ القصاص مشعر بالمساواة، فهو منبيء عن العدل بخلاف مطلق القتل.

٥- أن قول القائل: "القتل أنفى للقتل" لا يفيد إلا الردع عن القتل وقوله تعالى: "القصاص حياة" يفيد الردع عن القتل وعما دونه كالجرح والكسر وغيرهما، فهو أجمع للفوائد.

٦- إن نفي القتل مطلوب تبعا من حيث إنه يتضمن حصول الحياة، أما الآية فإنها دالة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي.

١٢٦- انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٢٣/١؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ١٤٤/٢؛ تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ١٣٠/٢.

١٢٧- الإطراد: مأخوذ من طرد بمعنى تبع، يقال: اطرد الشيء، إذا تبع بعضه بعضا، واطرد الكلام إذا تتابع، (لسان العرب لابن منظور: ٢٦٨/٣).

٧- إن قولهم: القتل أنفى للقتل، ظاهره يقتضي كون الشيء سببا لانتفاء نفسه وهو محال، وقوله: "القصاص حياة" ليس كذلك، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص.

٨- في الآية من براعة العبارة وبلاغة القول، ما يذهب باستبشاع إزهاق الروح في العقوبة، ويوطن النفوس على قبول حكم المساواة، إذ لم يسم العقوبة قتلا أو إعداما، بل سماها مساواة بين الناس تنطوي على حياة سعيدة لهم.

٩- إن الآية مستغنية عن تقدير محذوف، بخلاف المثل، فإن فيه حذف حرف "من" المقدر بعد أفعل التفضيل وما بعدها، وحذف "قصاص" مع القتل الأول، و"ظلما" مع القتل الثاني، والتقدير: القتل قصاصا أنفى للقتل ظلما من تركه(١٢٨).

وهكذا يتبين لنا الفرق الشاسع بين بلاغة القرآن وإعجازه، وبين كلام البشر، إذ لايوجد في كلام الفصحاء من جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة مثل ما يوجد في كلام الله عز وجل.



١٢٨- انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٢/١٤٢-١٤٤؛ مفاتيح الغيب للرازي: ٥/٥٦-٥٧؛ وروح المعاني للألوسي: ٢/٥١

ثانيا:

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾(١٢٩).

أشارت هذه الآية إلى قصة سابقة حدثت مع ابني آدم عليه السلام إذ قربا قربانا، فتقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر، فثار الحقد والحسد في قلبه، وتوعد أخاه بالقتل، وجرى بينهما حديث فصلته الآيات السابقة(١٣٠)، انتهى بقتل الأخ أخاه حسدا وحقدا، فندم على ذلك، وحاول أن يواري جثة أخيه فلم يهتد حتى رأى غرابا يواري جثة صاحبه، ففعل مثله.

وقوله تعالى: "من أجل ذلك" هو إشارة إلى ما تضمنته هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام(١٣١).

وجاءت هذه الآية بعد تلك الحادثة، موطئة وممهدة لمشروعية القصاص، فالتقطت الآثار العميقة التي تتركها في النفس عند رواية القصة بهذا التسلسل، لتجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لمحاربة الجريمة في نفس المجرم، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره، والإسلام يعمل على الوقاية قبل أن يعمل على العلاج، ولا يدعُ عذرا للنفس السوية أن تميل إلى الشر والاعتداء، وهو بذلك يصون المجتمع ويحيطه بكل ضمانات السكينة والاستقرار(١٣٢).

ولو رجعنا إلى الآية، لوجدنا أن الله عز وجل قد جعل قتل نفس واحدة جريمة

١٢٩- سورة المائدة، الآية: ٣٢

١٣٠- راجع سورة المائدة، الآية: ٢٧-٣١

١٣١- انظر: تفسير الثعالبي: ٤٥٨/١.

١٣٢- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٨٧٧/١-٨٧٨

كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعا، وجعل العمل على رفع القتل واستحياء نفس واحدة عملا عظيما يعدل إنقاذ الناس جميعا.

وهو تشبيه فيه إشكال، لأنه يمتنع أن يكون قتل نفس واحدة مساويا لقتل جميع الناس، فالجزء لا يساوي الكل على جميع الأحوال.

إذن لابد من حكمة مقصودة لذلك التشبيه البليغ، وقد ذكر العلماء وجوها عدة في بيان معناه يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- إنه إذا اعتدى على غيره بالقتل فقد اعتدى على حق الحياة المقدس، وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس، فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته، وهو الذي تشترك فيه كل النفوس.

كذلك دفع القتل عن نفس، واستحياؤها بهذا الدفع سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها، أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها، لمنع وقوع القتل على نفس أخرى، هو استحياء للنفوس جميعا، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعا[١٣٣].

٢- إن قتل نفس واحدة فيه انتهاك لحرمة الدماء وحرمة الإنسان، ومن انتهك حرمة إنسان فقد تجرأ على معنى الإنسانية الثابت للناس أجمعين، وهو ملحوظ بعين منتهك الجميع.

ومثاله رجلان حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئا، فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته، وطَعِم الآخر ثمر شجرته كلها، فقد استويا في الحنث.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا وإياي معهم، قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلا واحدا

١٣٣- انظر: العقوبة في الفقه الإسلامي لمحمد أبوزهرة: ٣٤٢؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٨٧٧/٢-٨٧٨.

فكأنما قتلت الناس جميعا، فرجعت ولم أقاتل[١٣٤].

فمن استحل قتل نفس واحدة فقد استحل قتل الجميع، وبالمقابل من أمسك عن قتلها، وصان حرمة دمها، فهو سيفعل ذلك مع جميع الناس فالخير عادة والشر لجاجة[١٣٥].

٣- إن المراد من هذا التشبيه هو المبالغة في تعظيم أمر القتل والإحياء والتفخيم من شأنهما.

فالمتعرض لقتل النفس لو تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا -بالإثم واستحقاق العقاب واستجلاب غضب الله عز وجل- لعظم ذلك عليه وثبطه عن مراده، وكذا الذي أراد إحياءها، إذا تصور أن حكمه حكم إحياء جميع الناس لرغب في ذلك[١٣٦].

٤- في التشبيه معنى نفسي جليل، وهو أن الداعي الذي يجعل القاتل يفكر في القتل يرجع إلى ترجيح إرضاء الداعي النفساني الناشئ عن الغضب وحب الانتقام على دواعي احترام الحق وزجر النفس.

فالذي يميل إلى ذلك الداعي الطفيف على جملة هذه المعاني لشريفة فستدعوه نفسه إلى هضم الحقوق، فكلما سنحت له الفرصة إلى القتل قتل، ولو دعته أن يقتل الناس جميعا لفعل.

بل إن من يفكر في قتل إنسان أول مرة يبقى فترة طويلة بين احجام وتردد وخوف ووجل ثم يتغلب صوت الباطل والعدوان فيقدم على القتل فيكسر

١٣٤- كتاب السنن لسعيد بن منصور الخراساني: ٣٨٦/٢، الدار السلفية - الهند، ١٩٨٢م، الطبعة الأولى، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

١٣٥- انظر: أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبدالله بن العربي: ٥٩٣/٢، دار المعرفة - بيروت، تحقيق على البجاوي؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٤٧/٦

١٣٦- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢١٣/١١؛ ومحاسن التأويل للقاسمي: ١٦٧/٦.

الحاجز النفسي بينه وبين القتل، فإذا أراد هذا القاتل أن يقتل شخصا آخر في المرة الثانية فإن الأمر يكون أسهل عليه وتأنيب الضمير يكون أقل. وتزول المعاناة ويتلاشى التردد والخوف والوجل عند الجريمة الثالثة أو الرابعة، وبذلك تتحول مسألة القتل عنده إلى مسألة طبيعية لا غرابة فيها، وبذلك يكون ذلك القاتل كأنما قتل الناس جميعا[١٣٧].

كما أن الداعي إلى انقاذ تلك النفس هو الرحمة والشفقة، ومعرفة قيمة الحياة الإنسانية واحترامها، والوقوف عند حدود الشريعة، فهو دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين عليها لا يدخر وسعا في ذلك، ومن كان كذلك لا يقصر في حق من حقوق البشر عليه.

ويلزم من ذلك أنه لو كان جميع الناس أو أكثرهم مثل ذلك الذي قتل نفسا بغير حق لكانوا عرضة للهلاك في كل وقت، ولو كانوا مثل الذي أحيا نفسا واحدة احتراما لها وقياما بحقوقها، لامتنع القتل بغير الحق من الأرض، وعاش الناس متعاونين متحابين متوادين[١٣٨].

٥- المقصود من التشبيه هو حث جميع الأمة على تعقب قاتل النفس وأخذه أينما ثُقف وعدم التستر عليه، فلو علم الناس أن إنسانا يقصد قتلهم جميعاً فلا شك أنهم سيدفعونه دفعا، بحيث لا يمكنه تحقيق مراده، فكذلك إذا علموا أنه يقصد قتل إنسان واحد، يجب أن يكون جهدهم في منعه مثل جِدّهم في الصورة الأولى.

١٣٧- انظر: مع قصص السابقين في القرآن، د. صلاح الخالدي: ٣/١١٤

١٣٨- مفاتيح الغيب للرازي: ١١/٢١٣، التحرير والتنوير لابن عاشور: ٦/١٧٨؛ وتفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا: ٦/٣٤٩.

يعني كما أن قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل أحد، فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظما مهيبا[١٣٩].

فالقتل والإحياء في الآية هو تشبيه لا يقصد لذاته، لأنه لا توجد نفس يقوم قتلها مقام قتل الجميع، ولا توجد نفس يقوم إحياؤها مقام حياء الجميع.

فالمراد من قتل الناس جميعا و استحقاق العقاب والوعيد الشديد كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[١٤٠].

كما أن المراد من الإحياء غير معناه الحقيقي، لأن الحياة الحقيقية لا يمكن أن ترد، لأن من مضى لا يعود، فضلا عن كونه مختصا بالله عز وجل. فالمراد منه سلامة النفوس من القتل، لأن من لم يقدم على قتل نفس واحدة فقد سلمت منه جميع النفوس.

فالقصاص فيه ردع عام، وترويع للمفسدين الذين يُعيثون في المجتمعات الفساد، وفي ذلك إمداد للمجتمع بحياة مطمئنة هادئة سعيدة، لا إزعاج فيها ولا خوف.

فالإحياء المقارن للقصاص هو الحياة الهادئة الكاملة للجماعة المسلمة التي تسودها الفضيلة والاطمئنان والاستقرار.

فالفائدة لا تعود على ولي الدم وحده، ولكنها تعود على الجماعة كلها ولذلك صدر الله سبحانه وتعالى الآية بقوله "ولكم".

فالقصاص فائدته تعم الجماعة بأكملها ولا تختص بفرد معين، وأمن هذه الجماعة المسلمة واستقرارها، وصيانة النظام العام الذي تستمتع في ظلة بالأمان، وتزاول نشاطها الخيّر في طمأنينة ذلك كله ضروري كأمن الأفراد، بل أشد ضرورة، لأن أمن الأفراد لايتحقق إلا به، فضلا عن صيانة هذا النموذج الفاضل

١٣٩- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ١٧٨/٦؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٢١٢/١١

١٤٠- سورة النساء، الآية: ٩٣

من المجتمعات، وإحاطته بكل ضمانات الاستقرار، كيما يزاول الأفراد فيه نشاطهم الخير، وكيما تترقى الحياة الإنسانية في ظله وتثمر، وفي هذا إحيـــاء للمجتمعـــات والأفراد أيما إحيا



الفصل الثالث

الإحياء بعد الموت


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

تمهيد

البرزخ، عالم حي متكامل، ينقطع فيه الإنسان عن العمل والتكليف، يبقى فيه منتظرا ليحاسب على أعماله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وما عمله الإنسان في دنياه، ينعكس على حياته في البرزخ، فإن كان خيرا، حصل له النعيم، وإن كان شرا كان العذاب والجحيم.

والموت لا يعنى الفناء أو العدم، وإنما هو خروج الروح عن الجسد، وانعدام تصرفها به، فتصعد بها الملائكة إلى السماء، فإن كان صاحبها مؤمنا دخلت، وإن كان كافرا ردت إلى الأرض.

وما أن يوضع الميت في قبره، حتى يتم إحياؤه، وترد روحه إلى جسده من جديد.

وقد ذكر العلماء أن الروح ترد إلى الجسد وقت السؤال، ولكن ذهب فريق يقول بعدم ردها للجسد، وأن السؤال إنما يقع على الروح وحدها دون للجسد، وقد تصدر هؤلاء ابن حزم. وسأقوم بعون الله وتوفيقه بالرد على هؤلاء، موضحة المراد من هذا الإحياء، وأنه لا يستلزم حياة أخرى بمفهومنا، كما أنه لا يتبعه موت آخر، وإنما هي حياة برزخية لايعلمها إلا الله تبارك وتعالى.

متناولة حياة البرزخ بأنواعها، مبتدأة بالحديث عن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكونهم أشرف الخلق وأعظمهم على الإطلاق، فحياة الشهداء، فحياة المؤمنين: الصالحين منهم والعاصين، وسأختم الحديث عن حياة الكفار، وما يلاقونه في قبورهم من العذاب.

وسأعتمد في بيان هذا كله على ما ورد من نصوص قرآنية، أو ما جاء على لسان هادي البشرية محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول

الإحياء في البرزخ

المطلب الأول: المقصود بالإحياء في البرزخ:

أولا: تعريف البرزخ

١- البرزخ في اللغة:

يأتي بمعنى الحاجز بين الشيئين. قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[١] يعني حاجزا من قدرة الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾[٢] أي حاجزا[٣].

فالبرزخ هو ما يفصل بين شيئين متغايرين.

٢- البرزخ في الاصطلاح:

يطلق البرزخ في الاصطلاح على الفترة الزمنية من بعد الموت إلى البعث[٤]. وكل من مات فقد دخل البرزخ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٥] أي حاجز بين الدنيا والآخرة، وهو مدة لبثهم في القبور[٦].

قال محمد بن كعب[٧]: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا مع أهل الدنيا

١- سورة الرحمن، آية: ٢٠

٢- سورة الفرقان، آية: ٥٣

٣- انظر لسان العرب لابن منظور: ٨/٣، مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٢٠/١، العين للخليل بن أحمد: ٣٣٨/٤.

٤- انظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي: ٢٣٨/٢، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: ٤٠، معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: : ٣٣٣/١، مركز النشر - مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، تحقيق: عبدالسلام هارون.

٥- سورة المؤمنون آية : ١٠٠

٦- انظر: عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: ٤٠-٤٦، بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي: ٢٣٨/٢.

٧- هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، من خلفاء الأوس، سكن الكوفة ثم المدينة، كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، روى عن أبي هريرة وأنس بن مالك وزيد بن أرقم

يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم[٨].

فالبرزخ هو المرحلة الثانية من مراحل حياة الإنسان، وهي تتوسط بين الدنيا والآخرة.

ثانيا: المراد بالموت

أ - تعريفه:

من المعلوم أن الموت هو نهاية كل حي، وليس في مقدور أحد رده أو دفعه.

وقد عرف العلماء الموت بعدة تعريفات:

قال الراغب الأصفهاني[٩]: الموت صفة وجودية خلقت ضد الحياة وأنواع الموت بحسب أنواع الحياة.. ومن معناها: زوال القوة الحساسة، كقوله تعالى: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[١٠].

وعرفه ابن فارس[١١] فقال: "الموت يدل على ذهاب القوة من الشيء"[١٢].

وقال أبوالبقاء الكفوي: "الموت هو ضد الحياة لغة، والأولى في التعريف

وابن عباس وغيرهم. كان من أئمة التفسير وكان مجاب الدعوة، كبير القدر، كان في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه السقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ثمان ومائة، وهو ابن ثمان وسبعين سنة. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥/٦٥-٦٨؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر: ٩/٣٧٣-٣٧٤)

٨- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٢٥٧

٩- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤٧٦

١٠- سورة مريم، آية : ٦٦

١١- ابن فارس: هو الإمام العلامة اللغوي، أبوالحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني. ولد بقزوين وتربى بهمذان، وأكثر الإقامة بالري، كان رأسا في الأدب، بصيرا بفقه مالك، مناظرا متكلما، جمع اتقان العلم إلى ظرف أهل الكتابة والشعر. كان من الأجواد حتى أنه يهب ثيابه وفرش بيته. مات بالري سنة خمس وتسعين وثلاث مائة، (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي:١٧/١٠٣-١٠٦)

١٢- معجم مقاييس اللغة: ٥/٢٨٣

عدم الحياة عما وجد فيه الحياة"[١٣].

وقال المناوي[١٤]: "هو حال خفاء وعيب يضاف إلى ظاهر عالم يتأخر عنه أو يتقدمه، تفقد فيه خواص ذلك الظهور الظاهرة"[١٥].

وهذه التعاريف تدل على أن الموت هو نقيض الحياة، وأن الإنسان إذا اتصف به فإنه يفقد ما فيه من خواص ظاهرية كالقوة والحركة والحياة. ولكن هل يراد من الموت العدم التام؟ وهو ما سيرد بيانه.

ب - الموت ليس عدما:

قد يظن بعض الناس أن الموت يراد منه العدم المحض، وتوقف الحياة والإحساس والشعور، وأن الميت ما دام في قبره فهو فاقد للحس والشعور بالنعيم أو العذاب.

وقد اختلف العلماء في كون الموت واقعا على الروح وحده أم على البدن، وقد ذكر هذا الخلاف كل من الغزالي، وابن القيم[١٦]. فذكروا أن طائفة ذهبت إلى أن الروح تموت وتذوق الموت لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[١٧]، وقالوا إذا كانت الملائكة تموت

١٣- الكليات: ٧٢٩

١٤- المناوي: هو محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، ولد سنة اثنان وخمسين وتسع مائة، من كبار العلماء بالدين والفنون، انزوى للبحث والتصنيف، كان قليل الطعام كثير السهر فمرض، وضعفت أطرافه، فجلع ولده تاج الدين يستملي منه تآليفه، وله نحو ثمانين مصنفا، عاش في القاهرة وتوفي بها سنة إحدى وثلاثين وألف للهجرة، (انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي: ٢٠٤/٦)

١٥- التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبدالرؤوف المناوي: ٦٨٤/١، دارالفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. محمد الداية.

١٦- انظر الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء لابن قيم الجوزية: ٤٩، دارالكتب العلمية - بيروت، (بدون تاريخ)؛ وإحياء علوم الدين للغزالي: ٣٢١/٤

١٧- سورة القصص، آية: ٨٨

فالنفوس البشرية أولى بالموت.

بينما ذهبت طائفة أخرى إلى أن الأرواح لا تموت، وأنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب بعد مفارقتها للجسد، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١٨].

والصحيح أن الروح تبقي مدركه لجميع أنواع الآلام والغموم، والأفراح واللذات، وهي لاتنعدم بموت الإنسان رغم أنها تفارق جسده، يقول الإمام ابن تيمية: "والأرواح مخلوقة بلا شك وهي لا تعدم ولا تفني ولكن موتها مفارقة الأبدان"[١٩].

ويقول الإمام ابن القيم: "وموت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب"[٢٠].

ويقول الإمام الغزالي: "الموت معناه تغير حال فقط، والروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، حتى أنها لتبطش باليد، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب ههنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد، فمعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج

١٨-سورة آل عمران، آية: ١٦٩

١٩-مجموع الفتاوى لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني: ٢٧٩/٤، جمع وترتيب عبدالرحمن، مكتبة ابن تيمية – السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٢٠-الروح لابن القيم: ٤٩

البدن عن أن يكون آلة له"[21].

وقال الإمام الرازي عند تفسير قوله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**[22]:

"وقوله **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** يدل على أن النفوس لا تموت بموت البدن لأنه جعل النفس ذائقة الموت، والذائق لا يبدو أن يكون باقيا حال حصول الذوق، والمعنى أن كل نفس ذائقة موت البدن، وهذا يدل على أن النفس غير البدن، وعلى أن النفس لا تموت بموت البدن، وفيه تنبيه على أن ضرورة الموت مختصة بالحياة الجسمانية، فأما الأرواح المجردة، فلا"[23].

فالموت ليس فناء ولاعدما، بل هو مرحلة انتقال من الدنيا إلى البرزخ تفارق فيها الروح الجسد إلى حين، وهذه المفارقة لا تغير من حقيقة الإنسان شيئا، فالجسد كالثوب، يكتسي الإنسان به ويعري عنه، ولا صلة له بجوهره. وهذا الانتقال لا ينقص فيه إدراك المرء لحقائق الوجود شيئا، ولا يخف إحساسه بها، بل قد يتضح ويزيد[24].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾**[25]. فهذا الحوار يجري بين الفريقين بعد أو أثناء انفصال أرواحهم عن أبدانهم، ويستحيل أن يحدث ذلك لو كان الموت قد أصاب هذه الأرواح كما أصاب أجسامها، وهو حوار واع يؤكد أن لها كل خواص الإنسان الذي كانت تتمثل صورته قبل الموت، ولا تفسير لذلك إلا أن هذا المتحدث إنما هو الإنسان نفسه الذي تفصل المنية بينه وبين أجزائه الترابية

٢١- إحياء علوم الدين للغزالي (بتصرف): ٤٢١/٤

٢٢- سورة آل عمران، آية: ١٨٥

٢٣- مفاتيح الغيب للإمام الرازي (بتصرف): ١٢٩/٩

٢٤- انظر: عقيدة المسلم لمحمد الغزالي: ٢١٥-٢١٦، دار القلم- دمشق، الطبعة السابعة ١٩٨٩م

٢٥- سورة النساء، آية: ٩٧

التي انتهت مهمتها[٢٦].

ونخلص مما سبق إلى أن الموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومغادرتها له، وهو انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ للوصول إلى الآخرة.

أي أن الإنسان عندما يموت ويوضع في التراب، فإن روحه تبقي حية، إما منعمة وإما معذبة رغم ما يصيب الجسد من تلف وبلى، وإن كنا لا نشعر نحن بهذه الحياة لكونها من عالم الغيب.

ثالثا: المراد بهذا الإحياء

إن الموت ليس هو العدم أو الفناء، وإنما هو مفارقة الروح للجسد الذي كانت تعمره وتعيش فيه.

والمقصود من الإحياء على هذا هو رد الروح إلى الجسد وإعادتها إليه في البرزخ، وقت سؤال الملكين له.

وقد ورد هذا المعنى صريحا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فعن البراء بن عازب قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد[٢٧]، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير[٢٨]، وفي يده عود ينكت[٢٩] في الأرض، فرفع رأسه فقال: "استعيذوا بالله من عذاب القبر" مرتين أو ثلاثا، ثم قال: "إن العبد المؤمن إذا كان

٢٦- انظر: في ظلال الإيمان محمد المجذوب: ٤٨-٤٩، مكتبة الضياء جدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٢٧- ولما يلحد: أي قبل إدخال الميت في اللحد وهو الشق بجانب القبر (الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، ترتيب وتأليف: أحمد عبد الرحمن البنا: ٧٤/٧، دار الشهاب، القاهرة، (بدون تاريخ).

٢٨- كناية عن السكون كأن على رأس كل واحد طير يريد صيدها (المرجع السابق: ٧٤/٧)

٢٩- النكت: أن تضرب الأرض بقضيب فيؤثر فيها (المرجع السابق: ٧٤/٧)

في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة[٣٠]، نزل عليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط[٣١] من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء[٣٢]، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفخة مسك[٣٣] وجدت على وجه الأرض، قال فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملإٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب، فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى يُنتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله، فيقولان له ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم فيقول هو رسول الله صلي الله عليه وسلم، فيقولان له وما علمك، فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسُرّك، هذا يومك الذي كنت تُوعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك

٣٠- أي إذا دنا أجله وصار في حالة الاحتضار (المرجع السابق: ٧/٧٤)

٣١- هو ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة (المرجع السابق: ٧/٧٤).

٣٢- يريد خروج روحه بسهولة كسهولة تقطير الماء من فم القربة (المرجع السابق: ٧/٧٤).

٣٣- أي كأطيب رائحة مسك (المرجع السابق: ٧/٧٤)

الصالح، فيقول رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة[٣٤]، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح[٣٥]، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده[٣٦] فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود[٣٧] من الصوف المبلول.

فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا.

حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيُستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾**[٣٨]، فيقول الله عز وجل: "اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾**[٣٩]. فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول:

٣٤- أي في حالة الاحتضار (المرجع السابق: ٧/٧٦)

٣٥- المسوح: اللباس الخشن الممقوت، (المرجع السابق: ٧/٧٦)

٣٦- كناية عن شدة الرعب والفزع وكأنها تريد الهرب، (المرجع السابق: ٧/٧٧)

٣٧- السفود: هي حديدة ذات شعب يشوى بها اللحم، فكما تبقى معها بقية من المحروق كذلك تصحب عند الجذب شيئا من الصوف المبلول، وهو كناية عن تمزيق جسمه وصعوبة خروج روحه، (المرجع السابق: ٧/٧٧).

٣٨- سورة الأعراف، آية ٤٠

٣٩- سورة الحج، آية: ٣١

هاه هاه، لا أدري.

فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول رب لا تقم الساعة"[٤٠].

دل هذا الحديث دلالة واضحة على إحياء الميت في قبره برد الروح إلى الجسد، فبعد نزع الروح، وخروجها من الجسد، وصعود الملائكة بها إلى السماء، يأمر الله عزّوجلّ بإعادتها إلى الجسد، فتعاد إليه ويأتيه الملكان للسؤال، وتكون ضمة القبر، وسؤال الملكين، ومن ثم النعيم أو العذاب البرزخي الذي يقع للروح وللجسد معا.

يقول الإمام ابن تيمية: "إن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب"[٤١].

ولا يقال إن الغريق أو المحروق أو من تفرقت أجزاؤه لا ترد روحه إلى جسده، لما حصل له من التلف بحيث يمتنع قبره، فالله بقدرته قادر على رد الروح إلى جسده بكيفية نجهلها ولا نشعر بها بحيث يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعدها وتفرقها[٤٢].

٤٠- أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٤/٢٨٧-٢٨٨، حديث رقم: ١٨٥٥٧، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/٥٠ وقال: هو في الصحيح وغيره باختصار، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

٤١- مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/٢٨٤

٤٢- انظر الروح لابن القيم: ١٠١

ثم إن إحياء الميت في قبره برد الروح إلى جسده للسؤال لا يستلزم منه عودة الحياة المادية بكل معانيها المحسوسة في عالمنا الدنيوي، كما أنه لا يستلزم أن يتبعها موت آخر، بل هي حياة برزخية، وإعادة برزخية لا يعلم كنهها إلا الله تبارك وتعالى.

يقول الإمام ابن تيمية: "عود الروح إلى بدن الميت في القبر ليس مثل عودها إليه في هذه الحياة الدنيا، وإن كان ذاك قد يكون أكمل من بعض الوجوه كما أن النشأة الأخرى ليس مثل هذه النشأة، وإن كانت أكمل منها، بل كل موطن في هذه الدار وفي البرزخ والقيامة، له حكم يخصه، ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يوسع له في قبره ويُسأل ونحو ذلك، وإن كان التراب قد لا يتغير فالأرواح تعاد إلى بدن الميت وتفارقه... فالروح تتصل بالبدن متى شاء الله تعالى وتفارقه متى شاء الله، لا يتوقف ذلك بمرة أو مرتين"(٤٣).

ويقول شارح قصيدة الإمام ابن القيم –رحمه الله– : "وليعلم أن رد الروح في البدن وعودها إلى الجسد بعد الموت لا يقتضي استمرارها فيه، ولا يستلزم حياة أخرى قبل النشور نظير الحياة المعهودة، بل إعادة الروح إلى الجسد في البرزخ إعادة برزخية لاتزيل عن الميت اسم الموت، وقد ثبت في حديث البراء في عذاب القبر ونعيمه وفي بيان الميت وحاله، أن روحه تعاد إلى جسده، مع العلم بأنها غير مستمرة فيه وأن هذه الإعادة ليست مستلزمة لإثبات حياة مزيلة لاسم الميت بل هي نوع حياة برزخية"(٤٤).

وهكذا نخلص إلى أن الميت يحيى في قبره، وأن روحه تعاد إلى جسده.

أما حقيقة هذه الإعادة وطبيعة هذا الإحياء وكنهه وتفصيله فهو من عالم

٤٣–مجموع الفتاوى: ٤/٢٧٤

٤٤–توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى: ٢/١٧٠، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ، تحقيق: زهير شاويش.

الغيب الذي لايعلمه إلا الله تبارك وتعالى.

فالمقصود من الإحياء في هذا المقام هو حصول إعادة الروح إلى الجسد بعد أن فارقته لا أكثر. أما تفصيل هذه المسألة والبحث في كيفيتها، فهو ما لا نخوض فيه لأنه من عالم الغيب. يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٤٥].

رابعا: رأي ابن حزم والرد عليه

ذهب ابن حزم[٤٦] وبعض المعتزلة إلى أن السؤال يقع على الروح فقط من غير عودها إلى جسد الميت في القبر، وقد استدل على رأيه هذا بعدة أدلة، أهمها ما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[٤٧]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤٨]. ولو كان الميت يحيى في قبره، لكان الله تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا، وهذا باطل.

فصح أنهما حياتان وموتان فقط ولا ترد الروح إلى البدن إلا لمن جعله الله

٤٥-سورة الإسراء، الآية: ٨٥

٤٦-ابن حزم: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي، ولد بقرطبة سنة أربع وثمانين وثلاث مائة، نشأ في تنعم ورفاهية، رزق ذكاءً مفرطا، كان أولاً شافعيا، ثم تحول ظاهريا، وكان صاحب فنون وورع وزهد، إليه المنتهى في الذكاء والحفظ، وسعة دائرة العلوم. له مصنفات جليلة، منها المحلى في الفقه، الإملاء في شرح الموطأ، الإحكام في أصول الإحكام وغيرها. توفي سنة ست وخمسين وأربع مائة، وكان عمره إحدى وسبعين عاما. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/١٨٤-٢١٢، وطبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي: ١/٤٣٥، دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ).

٤٧-سورة غافر، الآية: ١١

٤٨-سورة البقرة، الآية: ٢٨

آية كمن أحياه عيسى عليه السلام، والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وغيرهم.

٢- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[٤٩] فصح بنص القرآن أن أرواح سائر الناس لاترجع إلى أجسادهم إلا عند الأجل المسمى وهو يوم القيامة.

٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٥٠] نفي السمع عمن في القبور وهي الأجساد بلا شك.

٤- لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به، قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو[٥١] وحده، وهو ليس بالقوي[٥٢].

٤٩- سورة الزمر، الآية: ٤٢

٥٠- سورة فاطر، الآية: ٢٢

٥١- المنهال بن عمرو: هو المنهال بن عمرو أبو عمرو الأسدي مولاهم الكوفي، يروي عن كبار التابعين، وثقه ابن معين وغيره. توفي سنة بضع عشرة ومائة. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥/١٨٤؛ وميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الين محمد بن أحمد الذهبي: ٥٢٧/٦، دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: علي معوض وعادل عبدالموجود).

٥٢- انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم: ٤/١١٧-١٢٠، دار الجيل- بيروت، ١٩٨٥، تحقيق: محمد نصر وعبد الرحمن عميرة.

والمحلى لابن حزم: ٢٢/١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، تحقيق لجنة التراث العربي (بدون تاريخ).

وقد رد العلماء على ابن حزم قوله، ويمكن إجمال هذه الردود فيما يأتي:

١- ما أراده بقول: "من ظن أن الميت يحيى في قبره، فخطأ" فيه إجمال.

لأنه إذا أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن، وتدبره وتصرفه، وتحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس، فهذا خطأ كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص. وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة حيث تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، ليُسأل ويُمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصريح وهو قوله عليه الصلاة والسلام: "فتعاد روحه في جسده"[٥٣].

٢- أما قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ لا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد. كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله، لم تكن تلك الإعادة العارضة له للمساءلة معتدا بها.

على أن قوله "ثم تعاد روحه في جسده" لا يدل على الوجه المعهود في الدنيا بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقا كليا، بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ متعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوماً ولا

٥٣- انظر: الروح لابن القيم: ٦١ وفتح الباري لابن حجر: ٣/٢٤٠

فسادا"[٥٤].

٣- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا... ﴾ فإمساكه سبحانه وتعالى التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسد الميت في وقت ما ردا عارضا، لايوجب له الحياة المعهودة. وإذا عرف أن النائم، تقعد روحه وتقوم وتمشي وتتكلم، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب مع أن جسده مضطجع وأعضاءه ساكنة، والناظر إليه لا يدرك ما يجده من لذة أو ألم، بل اليقظان قد يدرك ألما ولذة لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يدرك ذلك جليسه. كذلك الحال بالنسبة للميت في قبره، فإن روحه تقعد وتجلس وتنعم وتعذب، وذلك متصل ببدنه ويحس به، وإن ظهر لنا خلاف ذلك[٥٥].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ سياق الآية يدل على أن المراد فيها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعا ينتفع به كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعا ينتفعون به. ولم يُرد سبحانه أن أصحاب القبور لايسمعون شيئا البتة. كيف وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين،فقال عليه السلام: "إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا"[٥٦]. وأخبر عليه الصلاة والسلام أن قتلى بدر قد سمعوا كلامه وخطابه، فقد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة أيام من معركة بدر على قتلى بدر من المشركين، فنادى رجالا منهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف،

٥٤- انظر: الروح لابن القيم: ٦٠/١-٦٢ وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي: ٤٥١/١

٥٥- انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٧٥/٤ والروح لابن القيم: ٦٢ وفتح الباري لابن حجر: ٢٣٥/٣

٥٦- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه: ٢٢٠١/٤، حديث رقم: ٢٨٧٠

يا عتبة ابن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! كيف يسمعوا! أنى يجيبوا وقد جيفوا[٥٧]، قال: "والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايقدرون أن يجيبوا" ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر[٥٨].

إن معنى الآية أنك لا تُسمع من لم يشأ الله أن يُسمعه فإنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه[٥٩].

٥- قوله: إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوي، فقد رد عليه الإمام ابن القيم فقال:

هذا مجازفته -رحمه الله- فالحديث صحيح لا شك فيه، وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غيره[٦٠].

وهو حديث ثابت مشهور[٦١] مستفيض[٦٢] صححه جماعة من الحفاظ، ولا

٥٧- جيفوا: أي انتفوا وصاروا جيفا. (شرح النووي على صحيح مسلم: ٢٠٧/١٧)

٥٨- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه: ٢٢٠٣/٤، حديث رقم: ٢٨٧٤

٥٩- انظر: الروح لابن القيم: ٦٥

٦٠- كأبي سعيد وعبيد بن عميرة وغيرهم، انظر فتح الباري لابن حجر: ٢٣٩/١٣

٦١- الحديث المشهور: ما له طرق محصورة بأكثر من اثنتين، ولم يبلغ حد التواتر، ومنهم من يطلق على المشهور اسم المستفيض لانتشاره، من فاض الماء. والمشهور أعم منه (انظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للإمام السيوطي: ١٧٣/٢، مكتبة الرياض الحديثة- الرياض، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف)

٦٢- الحديث المستفيض: الذي يزيد نقلته على ثلاثة (انظر: المنهل الروي لابن جماعة: ٣٢/١، دار الفكر- دمشق، ١٤٠٦هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: د. محي الدين رمضان، وتدريب الراوي للسيوطي: ١٧٣/٢

نعلم أحدا من أئمة الحديث طعن فيه، بل رووه في كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلا من أصول الدين في عذاب القبر ونعيمه ومساءلة منكر ونكير، وقبض الأرواح وصعودها بين يدي الله ثم رجوعها إلى القبر..."[٦٣].

وقوله: إن المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة، وهي قوله "فتعاد روحه إلى جسده" والمنهال ليس بالقوي.

فالمنهال أحد الثقاة العدول، قال ابن معين[٦٤] فيه: "المنهال ثقة[٦٥]. وقال العجلي[٦٦]: كوفي ثقة[٦٧]. وقال الإمام ابن حجر: المنهال بن عمرو، صدوق[٦٨].

فتضعيف ابن حزم له لا شيء طالما أنه لم يذكر موجبا لتضعيفه غير تفرده.

فما ذكره ابن حزم وغيره في تضعيف هذا الحديث، وإنكار رد الروح للجسد، وإحياء الميت في قبره، هو قول باطل يُرد عليه بالوجوه السابقة.

فالميت يحيى في قبره للمساءلة ولكن إعادة الروح إلى جسده هي مجرد إعادة

٦٣- الروح لابن القيم: ٦٥

٦٤- ابن معين: هو يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام، الحافظ الجهبذ، شيخ المحدثين. ولد سنة ثمان وخمسين ومائة، نشأ في بغداد وكان له هيبة وجلالة، قيل إن أصله من الأنبار، سمع من ابن المبارك وسفيان بن عيينة، وروى عنه أحمد ابن حنبل وغيره. ذهب للحج سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، ولكنه مات قبل أن يحج وحمل على أعواد النبي صلى الله عليه وسلم، دفن بالبقيع وصلى عليه والي المدينة، وقد استوفى خمسا وسبعين سنة. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١١/٨٢-٩٥، طبقات الحفاظ للسيوطي: ١/١٨٨-١٨٩)

٦٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للإمام الذهبي: ٦/٥٢٧

٦٦- العجلي: هو أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم، أبو الحسن العجلي الكوفي، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة، كان نزيل طرابلس الغرب، قال عباس الدوري كنا نعده مثل أحمد وابن معين، مات سنة إحدى وستين ومائتين. (انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي: ١/٢٤٦)

٦٧- معرفة الثقات للإمام العجلي: ٢/٣٠٠، مكتبة الدار المدينة المنورة، ١٩٨٥، الطبعة الأولى، تحقيق: عبد العليم البستوي.

٦٨- تقريب التهذيب للإمام ابن حجر العسقلاني: ١/٥٤٧، دارالرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، تحقيق: محمد عوامة.

للسؤال والامتحان، وهي إعادة عارضة وليست مستمرة، فلا يــراد بهــا الحيــاة المستقرة المعهودة في الدنيا.

والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني: مراتب الحياة في البرزخ:

أولا: حياة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

إن حياة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هي أفضل أنواع الحياة وأشــرفها على الإطلاق، فلا يصل إلى مرتبتهم ودرجتهم أحد من الخلق، لا في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة.

ومن تكريم الله عز وجل وتشريفه لهم في قبورهم، أن حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، وبذلك صان أجسادهم الكريمة من أن يصيبها البلى والتلف.

فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من أفضل أيامكم يوم الجمعــة فيــه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ، فقالوا: يا رسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت -يعني وقد بليت-؟ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"[٦٩].

ومستقر أرواح الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الرفيق الأعلى، ويــدل على ذلك ما جاء عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: "كان رسول الله صــلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح: "إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير، فلما نزل به، ورأسه على فخذي، غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشــخص بصره إلى السقف ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى، قلت: إذن لا يختارنا، وعرفت أنــه

٦٩- أخرجه الحاكم في مستدركه: ٤٠٣/١، حديث رقم ١٠٢٩، وقال: هذا حديث صحيح علــى شرط البخاري، ولم يخرجاه وأخرجه أحمد في مسنده: ٨/٤، حديث ١٦٢٠٧

الحديث الذي كان يحدثنا به"[٧٠].

والأنبياء ترد أرواحهم إلى أبدانهم بعد موتهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء، وقد ورد العديد من الآيات القرآنية التي تبين أن الشهداء أحياء يرزقون، كقوله تعالى: ﴿وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٧١].

وإذا ثبت هذا في حق الشهداء، فكيف بالأنبياء والمرسلين الذين هم أشرف وأعلى؟!.

ومما يدل على حياتهم في قبورهم -عليهم الصلاة والسلام- ما يأتي:

١- قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق: "... فأكثروا من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ..." فقد حث فيه النبي صلى الله عليه وسلم على الإكثار من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، وأخبرنا أن صلاتنا تعرض عليه، كما أن سلامنا يبلغه صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أنه حي في قبره، ولا تعارض بين كون روحه عليه الصلاة والسلام مع أرواح الأنبياء في عليين، وبين رده السلام على من سلم عليه لأنه لا وجه لقياس ذلك على ما هو معروف عندنا من شأن الأجساد إذ أن ذلك مختص بالروح.

يقول السيوطي: "إن الغلط يأتي من قياس الغائب على الشاهد فيعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التي إذا شغلت مكانا، لم يمكن أن تكون في غيره، وهذا غلط محض، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يرد على من يسلم عليه وهو في الرفيق الأعلى، ولا تنافي بين الأمرين، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان"[٧٢].

٧٠- أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله: ٥/٢٣٨٧، حديث رقم ٦١٤٤

٧١- سورة آل عمران، الآية: ١٦٩

٧٢- شرح السيوطي لسنن النسائي: ٤/١١٠، مكتبة المطبوعات- حلب الطبعة الثانية، ١٩٨٦، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة.

٢- حديث الإسراء به صلى الله عليه وسلم، ورؤيته عليه السلام لجماعة من الأنبياء، ولقائه بهم -عليهم الصلاة والسلام-. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتيت بالبزاق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه،قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فذكروا ما ذكر في الأولى. ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج إلى السماء السابعة، فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى"[٧٣].

ورؤيته عليه الصلاة والسلام للأنبياء، إنما هي رؤية لأرواحهم دون أجسادهم، إذ أن أجسادهم في قبورهم، ولا يُستغرب هذا لأن أمور الآخرة لا

٧٣-أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله إلى السموات: ١٤٦/١، حديث رقم ١٦٢

تدرك بالعقل وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة. فلا منافاة بين كون الروح في عليين أو الجنة أو السماء، وأن لها اتصالا بالبدن، خاصة إذا عرفنا أن للروح من سرعة الحركة والانتقال الذي كلمح البصر ما يقتضي عروجها من القبر إلى السماء في أدنى لحظة[٧٤].

٣- ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من رؤيته موسى عليه الصلاة والسلام وهو يصلي في قبره. فعن أنس بن مالك رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتيت موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر[٧٥]، وهو قائم يصلي في قبره"[٧٦].

وقد يظن البعض أن هناك تعارضا بين رؤيته صلى الله عليه وسلم لموسى عليه السلام وهو قائم يصلي في قبره ليلة أسري به، وبين رؤيته له عليه السلام في السماء السادسة.

وقد أجاب الإمام المناوي عن هذا الإشكال فقال: "ولا تدافع بين هذا -رؤيته عليه الصلاة والسلام لموسى عليه السلام وهو يصلي في قبره- وبين رؤيته إياه تلك الليلة في السماء... لأن أرواح الأنبياء بعد مفارقة البدن في الرفيق الأعلى، ولها إشراف على البدن وتعلق به، فيمكنون من التصرف والتقرب بحيث يرد السلام على المسلّم، وبهذا التعلق رآه يصلي في قبره، ثم رد إليه، بل ذلك مقام روحه واستقرارها، وقبره مقام بدنه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح لأبدانها، فرآه

٧٤- انظر شرح السيوطي: ١١١/٤

٧٥- الكثيب الأحمر: الكثيب هو ما ارتفع من الرمل كالتل الصغير، وهو اسم موضع قيل إنه بين المدينة وبيت المقدس، وقيل إنه بأريحا. (انظر: فتح الباري لابن حجر: ٤٤٢/٦ وحاشية السندي لأبي الحسن السندي: ٢١٥/٣، مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب، ١٩٨٦، الطبعة الثانية، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة.

٧٦- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام: ١٨٤٥/٤، حديث رقم ٢٣٧٤

يصلي في قبره، ورآه في السماء"[٧٧].

فحياة الأنبياء في البرزخ هي لأرواحهم المستقرة في عليين في الرفيق الأعلى، أما أجسادهم فهي باقية في قبورهم لا يطرأ عليها التلف أو التغيير، مع بقاء صلة وتعلق بين أرواح الأنبياء -صلوات الله عليهم- في السماء وأبدانهم في الأرض.

وليس ذلك بالشيء العسير، لأن نزول الروح وصعودها يكون في زمن يسير لايكون للبدن مثله، ولا وجه لقياس الروح على الجسد.

ثانيا: حياة الشهداء ـ رحمهم الله ـ

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَتَشْعُرُونَ﴾[٧٨].

دلت هذه الآية على أن الشهداء أحياء في قبورهم، وإن بدا لنا في الظاهر أنهم قد ماتوا وفارقوا الحياة شأنهم في ذلك شأن كافة الأموات، إلا أنهم أحياء في حياة لا ندركها ولا نعرف كنهها، ولا نشعر نحن بحياتهم.

إنهم قتلوا في ظاهر الأمر وحسبما ترى العين، ولكن حقيقة الموت وحقيقة الحياة لاتقررها هذه النظرة السطحية الظاهرة، فهؤلاء أناس يقتلون ويفارقون الحياة في الظاهر، ولكن لأنهم قتلوا في سبيل الله وجادوا بأرواحهم في سبيل رضاه فإن الله يخبرنا أنهم ليسوا أمواتا، وينهانا أن نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده ولكننا لا نشعر بحياتهم، لأن كنه هذه الحياة فوق إدراكنا البشري القاصر المحدود[٧٩].

٧٧- فيض القدير على شرح الجامع الصغير للمناوي: ٥/٥١٩، المكتبة التجارية- مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٧٨- سورة البقرة، الآية: ١٥٤

٧٩- انظر في ظلال القرآن، لسيد قطب: ١/١٤٣

يقول ابن عاشور: "إنما قال ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية بل حياة روحية، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال، وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم.

وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية، والانكشافات الكاملة، والحكمة في ذلك أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عُوّضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعيمها"[٨٠].

ويقول تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٨١].

وسبب نزول هذه الآية ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما أُصيب إخوانكم[٨٢] بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي[٨٣] إلى قناديل من ذهب[٨٤] معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم[٨٥] قالوا: من يُبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب،

٨٠- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢/٥٣-٥٤

٨١- سورة آل عمران، الآية: ١٦٩-١٧٠

٨٢- أصيب إخوانكم: أي من سعادة الشهادة (عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية: ٧/١٤٠، دار الكتب العلمية - بيروت).

٨٣- تأوي: أي ترجع، (المرجع السابق).

٨٤- قناديل من ذهب معلقة: أي بمنزلة أوكار الطيور (المرجع السابق: ٧/١٤٠)

٨٥- مقيلهم: أي مأواهم ومستقرهم، وأصل المقيل المكان الذي يؤوى إليه للاستراحة وقت الظهيرة. (المرجع السابق: ٧/١٤٠)

فقال الله تبارك وتعالى: أنا أبلغهم عنكم، وأنزل قوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾[86].

وعن مسروق[87] قال: سألنا عبد الله -هو ابن مسعود- عن هذه الآية: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا...﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا، قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حين شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا"[88].

فأرواح الشهداء كما دل الحديث في حواصل طيور خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش[89].

٨٦- أسباب النزول للواحدي: ١٢٣-١٢٤، دار القبلة للثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، تحقيق السيد أحمد صقر، وأخرجه الحاكم في مستدركه: ٢/ ٩٧، حديث رقم ٢٤٤٤ وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأخرجه أحمد في مسنده: ٢٦٥/١ حديث رقم ٢٣٨٨.

٨٧- هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهواني، سمي مسروقا لأنه سرق وهو صغير ثم وُجد فسمي بذلك، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أبو بكر وعلي، وعمر وغيرهم. اشتهر بتقواه وورعه وزهده فقيل إنه حج فلم ينم إلا ساجدا، مات بالكوفة سنة ثلاث وستين. (انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨١/٦، دار صادر- بيروت؛ والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني: ٢٩١/٦-٢٩٣، دار الجيل- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، تحقيق محمد البجاوي).

٨٨- أخرجه مسلم في صحيحه: ١٥٠٢/٣، كتاب الجهاد، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، حديث ١٨٨٧.

٨٩- لكن هذا لا يشمل جميع الشهداء بل بعضهم، لأن هناك من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لأنه ترك خلفه دَيناً. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يغفر للشهيد كل

إن كون أرواح الشهداء في حواصل طير خضر لا يعني كونها محبوسة أو أنها محصورة في تلك الحواصل بل إن هذا الطائر هو ظرف ومكان لها، لأنها إما أن يُوسع عليها كالفضاء، أو يُجعل في تلك الحواصل من النعيم ما لا يوجد في فضاء واسع، والمراد أنها نفسها تكون طيرا بأن تمثل بصورته، كتمثل الملك بشرا سويا.

وذلك لأن الأرواح بعد مفارقة البدن تكون مجردة عنه، فهي في غاية اللطافة(٩٠).

سبب تخصيصهم بذلك دون غيرهم:

أوضحت فيما سبق أن كل ميت حيي في قبره، حياة برزخية، مسلما كان أو كافرا، شهيدا أو غير شهيد، فإن كان محسنا صالحا، عاش حياته في قبره منعما، وإن كان مسيئا عاصيا عاش حياته معذبا في قبره.

فإن كان كل ميت يحيى في قبره، فلماذا خص الله عز وجل الشهداء بالذكر

ذنب إلا الدّين" (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب بيان أن من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدّين: ١٥٠٢/٣، حديث رقم: ١٨٨٥).

قال الإمام النووي في شرحه: "فيه هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياه كلها، إلا حقوق الآدميين ... فالجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق = =الله تعالى، (صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٩/١٣).

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟ فأعادها عليه، فقال: نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر، إلا الدّين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك. (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب بيان من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدّين: ١٥٠١/٣)

٩٠-فيض القدير للمناوي: ٤٢٢/٢.

دون غيرهم من المؤمنين، الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم "نسمة[٩١] المؤمن طائر يعلق[٩٢] في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه"[٩٣].

فما الموجب لتخصيص الشهداء بالحياة في نصوص القرآن الكريم؟

وجواب ذلك، أن في تخصيصهم بالحياة بيان فضيلة ومزية خاصة بهم، حيث إنهم يأكلون ويرزقون في قبورهم من مآكل الجنة ومطاعمها قبل أن يبعثهم الله عزّوجلّ.

هم متنعمون في رزق ربهم، فرحون مسرورون بما آتاهم الله من فضله وكرامته[٩٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الشهداء على بارق، نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا"[٩٥].

يقول الإمام ابن القيم: "في هذا -أي التخصيص- التنبيه على فضل الشهادة، وعلو درجتها، وأن هذا مضمون لأهلها، ولا بد أن لهم منها أوفر نصيب فنصيبهم من هذا النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فراشهم.

ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر

٩١- النسمة: هي الروح والنفس (التمهيد لابن عبد البر: ٥٩/١١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى العلوي، محمد البكري).

٩٢- تعلَق: بالفتح تأكل وترعى (المرجع السابق: ٥٩/١١)

٩٣- أخرجه أحمد في مسنده: ٤٥٥/٣، حديث رقم ١٥٨١٦، وأخرجه ابن ماجة في سننه: ٤٢٨/٢، حديث رقم: ٤٢٧١، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى.

٩٤- انظر جامع البيان للطبري: ١٧٠/٤

٩٥- أخرجه أحمد في مسنده: ٢٦٦/١، حديث رقم: ٢٣٩٠، وذكره الإمام ابن كثير في تفسيره: ٤٢٨/١، وقال: تفرد به أحمد ثم أشار إلى هذه الرواية وقال: هذا إسناد جيد.

فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه عوّضهم منها في البــرزخ أبــدانا خيرا منها تكون فيها"[٩٦].

فما ذكر من نعيم للشهداء، فهو مختص بهم، لا يشاركهم فيه أحــد غيــرهم، بينما ما عُلّق فيه الجزاء بالإيمان والمؤمنين فإنه يتناول كل مؤمن شهيدا كــان أو غير شهيد. فهم يشاركون المؤمنين في نعيمهم.

ثم إن هؤلاء الشهداء يستحقون هذا الجزاء، وذلك التخصيص بالــذكر فــي نصوص القرآن والسنة، لأنهم قدموا أرواحهم، وبذلوها رخيصة في سبيل الله، غير ملتفتين إلى الدنيا ولذاتها، همهم في ذلك رضوان الله تعالى ودخول الجنة.

يقول الإمام الغزالي: "وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، لأنهــم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقــاء الله، راضين بالقتل في طلب مرضاته، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعــا بــالآخرة، والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع.

وإن نظر إلى الآخرة، فقد اشتراها وتشوق إليها، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه، وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه، وتجرد القلب لحب الله تعالى. وقــد يتفق في بعض الأحوال ولكن لايدركه الموت عليه فيتغير، فلهذا عظــم النعــيم إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده"[٩٧].

هل يدخل الشهداء منازلهم التي أعدت لهم في البرزخ أم في الآخرة؟

إن النعيم الذي يكون لأرواح الشهداء بحيث تسرح في الجنة وتــنعم فيهــا، وترى ما أعد الله لها من المنازل الرفيعة والدور والقصور، هــو نعــيم مخــتص بالأرواح في البرزخ. وهذا لا يمنع من وصول شيء من النعيم للأجساد.

لكن دخول هذه المنازل والنعيم الحقيقي للروح مع الجسد، يكون يوم القيامة،

٩٦- الروح لابن القيم: ١٣٦

٩٧- إحياء علوم الدين للغزالي (بتصرف): ٤٢٣

عندما تُرد الأرواح إلى الأبدان.

قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾: "وقد قيل إن الأرواح تدرك في تلك الحالة التي يسرحون فيها من روائح الجنة وطيبها ونعيمها وسرورها، ما يليق بالأرواح مما ترتزق وتنتعش به.

أما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها، استوفت من النعيم جميع ما أعد الله لها، وهذا قول حسن"(٩٨).

وقال ابن القيم: "والمقعد الخاص به -أي بالشهيد- والبيت الذي أعد له فإنه إنما يدخله يوم القيامة، ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هي تلك القناديل التي تأوي إليها أرواحهم في البرزخ قطعا فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة، ويكون مستقرهم في تلك القناديل المعلقة بالعرش، فإن الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة، ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك.

فتنعم الأرواح بالجنة في البرزخ شيء، وتنعمها مع الأبدان يوم القيامة شيء آخر، فغذاء الروح من الجنة في البرزخ، دون غذائها مع بدنها يوم البعث... وتمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردّت إلى أجسادها يوم القيامة"(٩٩).

وكلام القرطبي وابن القيم، يدل على حصول شيء من النعيم للأجساد، فقولهم: "استوفت"، "الدخول التام"، "تمام الأكل" يدل على أن هناك نعيم، يحصل للروح والجسد معا، لكن تمامه وكماله يكون يوم القيامة.

يقول ابن تيمية: "العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا، باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعّم النفس وتُعذّب منفردة عن البدن، وتُنعّم وتُعذّب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على

٩٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٧٤/٤

٩٩- الروح لابن القيم: ١٣٤

الروح منفردة عن البدن"[١٠٠].

ثالثا: حياة المؤمنين في البرزخ

- المؤمنون الصالحون:

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾[١٠١].

والمراد من تثبيت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، هو تثبيته لهم عند السؤال إذا ما وضع في قبره.

روى البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أُقعد المؤمن في قبره أُتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [١٠٢].

وأرواح المؤمنين تكون طيورا تأكل وترعى في شجر الجنة، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه"[١٠٣].

وكون مستقر أرواحهم[١٠٤] في صورة طير يعلق في شجر الجنة لا يمنع من حصول النعيم والفرح والسرور لهذه الأرواح في البرزخ، وقد وردت العديد من

١٠٠- مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٨٢/٤

١٠١- سورة إبراهيم، الآية: ٢٧

١٠٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ٤٦١/١، حديث رقم ١٣٠٣

١٠٣- سبق شرحه وتخريجه ص ١٦١

١٠٤- أورد الإمام ابن القيم العديد من الآراء والأقوال في مستقر أرواح المؤمنين، وأنها في الجنة وقيل على بابها، وقيل على أفنية قبورها وقيل على بئر زمزم، وغيرها من الأقوال، وقد رد على كل طائفة ردا جميلا، ورجح هذا الرأي الذي نقلته عنه وأوردته هنا. (لمزيد من التفصيل: انظر الروح: ١٢٥-١٥٩)

الأحاديث النبوية التي تبين هذا النعيم.

فعن البراء بن عازب في حديث خروج الروح للمؤمن والكافر، والذي سبق ذكره[١٠٥] ورد فيه صفة النعيم للروح المؤمنة بعد سؤالها عن ربها ودينها ونبيها، فتجيب: "ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم" فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باب إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويُفتح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي"[١٠٦].

وفي رواية أخرى: "ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال: هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسرورا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا، وينور له فيه"[١٠٧].

وفي رواية أخرى لمسلم: "ويملأ عليه خضرا[١٠٨] إلى يوم يبعثون"[١٠٩].

ومن نعم الله على المؤمن أن يُعرض عليه مقعده من الجنة، فيبقى في فرح وسرور غداة وعشيا ويزداد شوقه إليه يوما بعد يوم.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

١٠٥- انظر ص ١٤٦ من هذا البحث.

١٠٦- سبق تخريجه، ص ١٤٧

١٠٧- أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٧/٣٨١، حديث رقم : ٣١١٣، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

١٠٨- خضرا: أي يملأ عليه نعما غضة ناعمة وأصله من خضرة الشجر. (شرح النووي على صحيح مسلم: ١٧/٢٠٤)

١٠٩- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار: ٤/٢٢٠٠، حديث رقم: ٢٨٧٠

"إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة"[110].

وأرواح المؤمنين تتزاور وتتلاقى فيما بينها في البرزخ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن إذا قُبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فتقول اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا فيشمونه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فهم أشد فرحا به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم الدنيا، فيقول: قد مات أما أتاكم، فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية..."[111].

فأرواح المؤمنين منعمة في برزخها حيث يُفرش للمؤمن ويُلبس من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة يأتيه من رَوحها وطيبها، ويفتح له في قبره مد بصره أو سبعون ذراعا وينوّر له فيه، ويُملأ عليه نعما غضة ناعمة إلى يوم يبعثون، ويعرض عليه مقعده من الجنة غداة وعشيا، وأرواحهم تتزاور وتتلاقى فيما بينها.

وهذا النعيم كله لا يدل على أن الروح مجتمعة مع البدن في القبر، بل إن لها إشرافا واتصالا بمستقرها في الجنة، كما أن لها اتصال بالبدن في القبر، كما ذكرت ذلك سابقا.

١١٠- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشي: ٤٦٤/١، حديث رقم: ١٣١٣ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار: ٢١٩٩/٤، حديث رقم ٢٨٦٦

١١١- أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٢٨٤/٧، حديث رقم: ٣٠١٤

ب - أرواح العصاة من المؤمنين:

يتفاوت أصحاب المعاصي والذنوب من المؤمنين في أنواع العذاب الذي يلاقونه في قبورهم، فكل يعذب على قدر معصيته، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير" الحديث الآتي ذكره.

ودليل ذلك أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ من عذاب القبر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن وشر فتنة المسيح الدجال"(١١٢).

وقد ورد العديد من الأحاديث التي نصت على عذاب القبر بالنسبة للعاصيين والمذنبين من المسلمين كل بحسب جرمه.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين، فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، ثم قال: بلى أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله، ثم أخذ عودا رطبا فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا"(١١٣).

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت الليلة رجلين أتياني، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر

١١٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة: ٤١٢/١، حديث رقم: ٥٨٨

١١٣- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه: ٢٤٠/١، حديث: ٢٩٢، بلفظ مقارب.

أو صخرة، فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق، وأسفله واسع يتوقد تحته نارا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، على شط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها، فصعدا بي في الشجرة وأدخلاني دارا لم أر قط أحسن منها، فيها رجال شيوخ وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب.

قلت: طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت، قالا: نعم. أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة.

والذي رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة.

والذي رأيته في الثقب فهم الزناة.

والذي رأيته في النهر آكلو الربا.

والشيخ في أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام والصبيان حوله أولاد الناس.

والذي يوقد النار مالك خازن النار.

والدار الأولى التي دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك، قلت: دعاني أدخل منزلي، قالا: إنه بقي لك عمر لم تستكمله فلو استكملت أتيت منزلك"[١١٤].

والأحاديث الواردة في عذاب القبر كثيرة.

ولقد دلت الأحاديث السابقة على وقوع عذاب القبر للعاصين من المؤمنين، وأن الإيمان وحده لا يعصم صاحبه من عذاب القبر، فلا بد من فعل الواجبات وترك المحرمات . ثم إن عذاب القبر يكون على جميع المعاصي، من كذب، وغيبة، وقذف وزنا، وعذر وخيانة، وغيرها من معاصي البدن التي لا تعد ولا تحصى.

كما أن أصحاب هذه الذنوب والمعاصي يلاقون في قبورهم أنواعا من العذاب بحسب معاصيهم، كما أن هذا العذاب ليس دائما، بل هو مؤقت إلى مدة يعلمها الله، بحسب نوع المعصية.

وقد ينقطع هذا العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو غيره. كما قد ينقطع عنه العذاب بشفاعة شافع له، ولكن هذا لا يكون إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يأذن للشافع بالشفاعة إذا أراد أن يرحم المشفوع[١١٥].

قال تعالى: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾**[١١٦].

وقال تبارك وتعالى: **﴿وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾**[١١٧].

١١٤- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين: ٤٦٥/١، حديث رقم: ١٣٢٠

١١٥- انظر: الروح لابن القيم: ١٢٤

١١٦- سورة البقرة، الآية: ٢٥٥

١١٧- سورة سبأ، الآية: ٢٣

رابعا: حياة الكفار في البرزخ

لقد ورد في القرآن الكريم العديد من النصوص الدالة على أن الكافرين يعذبون في حياتهم البرزخية، ومن تلك النصوص:

١- قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[١١٨]. يقول الإمام ابن كثير: "وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور"[١١٩]. ويقول الإمام الشوكاني: "إن قوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فيه دلالة واضحة على أن ذلك العرض هو في البرزخ[١٢٠].

٢- قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[١٢١].

روي عن قتادة في قوله تعالى ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم[١٢٢]. ورجح الطبري أن المراد من العذاب الثاني هو عذاب القبر، فقال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال إن الله أخبر أنه يعذب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلا نتوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين، على أن قوله جل ثناؤه ثم يردون إلى عذاب عظيم دليل على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخلوهم النار، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر"[١٢٣].

١١٨- سورة غافر، الآيتان: ٤٥-٤٦

١١٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨٢/٤

١٢٠- فتح القدير للشوكاني: ٤٩٥/٤

١٢١- سورة التوبة، الآية: ١٠١

١٢٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣٨٦/٢

١٢٣- جامع البيان للطبري: ١١/١١-١٢

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١٢٤].

قال مجاهد في تفسير هذه الآية: الأدنى في القبور والدنيا[١٢٥]. وقد احتج بهذه الآية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على عذاب القبر، لأن هذا عذاب في الدنيا الهدف منه رجوعهم عن الكفر، وقد فهم منها عذاب القبر، لأن الله تبارك وتعالى أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال: من العذاب الأدنى، ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى[١٢٦].

٤- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١٢٧].

فهي تدل على أن الكفار لا ينجون من العذاب حتى وهم في حالة الاحتضار.

وقد تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الروح الخبيثة وما تلاقيه من عذاب وعناء في حالة خروجها، ففي حديث البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "... ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما يُنتزع السفود من الصوف المبلول..."[١٢٨].

وليس للعذاب مقتصرا على ذلك، بل إنه بداية العذاب. فروح الكافر تبقى في عذاب متصل من لحظة مفارقتها للجسد إلى يوم القيامة.

بعد أن تصعد روحه إلى السماء ولا يفتح لها، تطرح إلى الأرض وتعاد إلى

١٢٤- سورة السجدة، الآية: ٢١

١٢٥- تفسير الطبري: ١١٠/٢١

١٢٦- انظر: الروح لابن القيم: ١٢٤

١٢٧- سورة الأنفال،الآية: ٥٠

١٢٨- سبق تخريجه وشرحه ص ١٤٧

جسده، ليكون السؤال فلا يستطيع أن يجيب، ومن ثم يكون العذاب الشديد. "...فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه. ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول رب لا تقم الساعة"[١٢٩].

وفي رواية أخرى للبخاري عن أنس بن مالك: "وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، فيضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين"[١٣٠].

إ ن حياة الكفار في قبورهم، هي حياة جحيم وعذاب، وأرواحهم تكون محبوسة في الأرض، ولا ترتفع إلى الملأ الأعلى لأن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية، كما كانت لا تلتقي بها في الدنيا[١٣١].

ويفرش للكافر ويلبس من النار، ويفتح له باب إلى النار، يأتيه من حرها وسمومها، ويضرب بمطارق من حديد، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويعرض عليه مقعده من النار غداة وعشيا.

أعاذنا الله جميعا من ذلك الجحيم، وهدانا إلى الصراط المستقيم، إنه على شيء قدير.

١٢٩- سبق شرحه وتخريجه ص ١٤٧

١٣٠- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ٤٦٢/١، حديث رقم ١٣٠٨

١٣١- انظر: الروح لابن القيم: ٢٤١

المحبث الثاني
الإحياء في الآخرة

تمهيد

الحياة الدائمة هي الحياة الآخرة، والدار الباقية هي الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[١٣٢].

أي إن الدار الآخرة فيها الحياة الدائمة التي لا زوال لها ولا انقطاع ولا موت معها[١٣٣]، والمؤمن يتطلع دائما للآخرة، وما أعد الله له من نعيم دائم بل يجعلها نصب عينيه دائما ويجعل الدنيا وسيلة وطريق توصله إلى نعيم الآخرة.

ومن مشاهد الآخرة النفخ في الصور حيث ترد الأرواح إلى الأبدان، ويحصل الإحياء لجميع الخلائق ليحاسبوا على أعمالهم.

ولقد اهتم القرآن الكريم بهذا الجانب وركز عليه كثيرا، فورد العديد من الآيات مصرحة بإحياء الناس وخروجهم من قبورهم للحساب كما تحدثت عن النفختين وما يكون بينهما.

ومن خلال هذا المبحث سأبين المراد بالبعث وما يرادفه من كلمات، والحكمة منه وأهميته وغايته، ومعنى النفخ في الصور، وعدد النفخات فيه وما يكون فيها من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ثم حال العباد عند البعث والخروج من القبور.

وسأحاول بعونه تعالى أن لا أخرج عما جاء في ذلك من نقول سواء من الكتاب أو السنة.

والله الموفق والمعين.

١٣٢- سورة العنكبوت، الآية: ٦٤

١٣٣- انظر: جامع البيان للطبري: ٢١/٩

المطلب الأول: البعث: معناه .... وأهميته

أولا: المراد بالبعث

أ - البعث في اللغة:

البعث في اللغة يأتي بمعنيين:

الأول: بمعنى الإرسال والإثارة، بعثه يبعثه بعثا: أرسله وحده، وبعث به: أرسله مع غيره، وابتعثه: أرسله فانبعث. قال تعالى: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى﴾**[١٣٤]. أي أرسلنا. وبعثت البعير: أرسلته وحللت عقاله.

الثاني: بمعنى الإثارة والدفع، وانبعث فلان لشأنه: إذا ثار ومضى ذاهبا لقضاء حاجته.

وبعثه على الشيء حمله على فعله. وانبعث الشيء وتبعّث: اندفع.

وبعثته من منامه: أهبّته وأيقظته[١٣٥].

فالأصل في معنى البعث هو إرسال الشيء وإثارته وتوجيهه، وهو يختلف باختلاف ما علّق به.

ب - البعث في الشرع

ذكر العلماء للبعث عدة تعريفات منها:

أن البعث: بمعنى الإخراج من القبور **﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾**[١٣٦][١٣٧].

١٣٤- سورة الأعراف، الآية: ١٠٣

١٣٥- انظر: لسان العرب: لابن منظور ٢/١١٦-١١٧؛ والعين للخليل بن أحمد: ٢/١١٢.

١٣٦- سورة الحج،الآية: ٧

١٣٧- انظر: بصائر ذوي التمييز: للفيروز آبادي، ٢/٢١٥

ومنهم من ذكر أن البعث على ضربين:

بشري: كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.

وإلهي: وهو ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع من العدم وذلك يختص به الباري.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى وأمثاله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾[١٣٨][١٣٩].

وقيل في تعريفه: هو إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلى حكم يوم القيامة[١٤٠].

وجاء في تعريفه أيضا، أن البعث هو وقت ينقضي فيه بقاء الخلق في الدنيا ثم يحيى الموتى ويحيى عظامهم التي في القبور وهي رميم، ويعيد الأجسام لما كانت عليه، ويعيد إليها الأرواح كما كانت، ويجمع الأولين والآخرين[١٤١].

فالمراد من البعث إحياء الموتى يوم القيامة، برد أرواحهم إلى أجسادهم وإخراجهم من القبور لإقامة العدل، ومحاسبتهم على الأعمال، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

ثانيا: مرادفات البعث في القرآن

وردت ألفاظ قرآنية أخرى تقارب لفظ "البعث" في معنى إحياء الموتى في الآخرة، وهي: المعاد، والنشور.

١٣٨- سورة الروم،الآية: ٥٦

١٣٩- معجم مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، ٥٢

١٤٠- فتح الباري: لابن حجر العسقلاني، ٣٩٣/١١

١٤١- المحلى لابن حزم، ٢٤/١

أولا: المعاد تعريفه لغة وشرعا.

المعاد لغة: هو مصدر ميمي مأخوذ من العود، وهو: الرجوع أي رجوع الشيء إلى ما كان عليه أولا، عاد الشيء يعود عودا ومعادا أي رجع.

والمعاد: كل شيء إليه المصير والمرجع والآخرة[١٤٢].

وشرعا: هو الرجوع إلى الوجود بعد الفناء أو رجوع أجزاء البدن إلى الاجتماع بعد التفرق وإلى الحياة بعد الموت، والأرواح إلى الأبدان بعد المفارقة[١٤٣].

ويقال ليوم القيامة يوم المعاد، لأن الناس يعودون فيه أحياء[١٤٤].

ثانيا: النشور، تعريفه لغة وشرعا.

النشور لغة: مأخوذ من النشر، يقال نشر الميت ينشره نشرا ونشورا وأنشره، بمعنى أحياه.

وأنشر الموتى فنشروا: إذا حيوا، ونشرهم الله: أي بعثهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[١٤٥].

وأنشر الله الريح: أحياها بعد موتها وأرسلها نشرا، ومعناه: أرسلها إحياء بنشر السحاب الذي فيه المطر الذي هو حياة كل شيء[١٤٦].

وشرعا: هو إحياء الأجساد بعد موتها، قال الشوكاني: "النشور" الإحياء بعد

١٤٢- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٣/٣١٧؛ والقاموس المحيط للفيروزآبادي: ١/٣٨٦؛ ومعجم مقاييس اللغة: لابن فارس: ٤/١٨١

١٤٣- شرح المقاصد في علم الكلام: لسعد الدين التفتازاني للفيروز آبادي: ٢/٢٠٧، دارالمعارف النعمانية - لاهور،١٩٨١م.

١٤٤- انظر: فتح القدير: للشوكاني: ٤/١٨٨

١٤٥- سورة الملك، الآية: ١٥

١٤٦- انظر: لسان العرب: لابن منظور: ٥/٢٠٦؛ والعين: للخليل بن أحمد: ٦/٢١٥؛ والمصباح المنير للفيومي: ٢/

الموت، يقال أنشر الله الموتى فنشروا"[147].

فكلا هذين اللفظين يدلان على معنى عودة الأجساد إلى ما كانت عليه وإحيائها بعودة الأرواح إليها بعد مفارقتها لها.

ثالثا: حكمة البعث، وغايته

لم يخلق الله الخلق عبثا، بل خلقهم لحكمة سامية، وكلف العباد بعبادته، وطاعته، وجعل لهم أجلا على هذه الأرض، ووقت لهم ساعة يحاسبون فيها إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

فإذا جاءت الساعة، بعث العباد من قبورهم، وقاموا لحسابهم، ووجد كل منهم ما عمل حاضرا، وجوزي كل منهم على ما اقترفت يداه. يقول تعالى: **﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾**[148]. وقال تعالى: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾**[149].

ومن هنا كانت الحكمة تقتضي وجود يوم يفصل فيه بين الخلائق، ويحاسبوا فيه على ما كسبت أيديهم[150]، **﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[151].

والناس مختلفون في معيشتهم، ففيهم الغني والفقير، وفيهم المريض والسليم، وفيهم الظالم والمظلوم، وفيهم المحسن والمسيء..الخ.

فإذا كان الموت نهاية كل حي ولم يكن هناك بعث للحساب، لكان هذا منافيا للعدالة الإلهية، من هنا كان لابد من وجود يوم يلقى فيه المجرم والمسيء عقابه،

١٤٧- فتح القدير للشوكاني: ٦١/٤

١٤٨- سورة القيامة، الآية: ٣٦

١٤٩- سورة المؤمنون، الآية: ١١٥

١٥٠- انظر: كتاب التوحيد: عبدالمجيد الزنداني: ١٢/٢، دارالمجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م

١٥١- سورة آل عمران، الآية: ١٨٥

ويلقى فيه المحسن ثوابه، وبذلك يكمل الجزاء،ويتناسق فيه العمل والأجر[١٥٢].

وعلى الإنسان أن يجعل حياته في الدنيا وسيلة للكمال والرقي والفضيلة حتى يجد ما يسره في الآخرة.

فمن بقيت في نفسه آثارة من شر وأدركه الموت ولم يتطهر منها حبس على شواطئ الآخرة، ولم يدخل جنة ربه على تلك الحال، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يخلّص[١٥٣] المؤمنون من النار، فيجلسون على قنطرة[١٥٤] بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة"[١٥٥].

فمن لم يحاول الرقي والوصول للفضيلة، انتظرته جهنم لتكمّل له نقصه وتعوّض ما فاته"[١٥٦].

والإسلام لم يترك الإنسان في هذه الدنيا حائرا، يواجه البعث دون معين ومخلص، بل أمده في دنياه بما ينجيه في آخرته، وترك له من المنارات الهادية، والتحذيرات المتتالية ما يقوده إلى السعادة في الدارين[١٥٧].

فالإيمان بالبعث ضمان للأمن والسعادة في الدنيا والآخرة، وعنوان للاستقامة والصلاح في كل المجالات. والمجتمع الذي يؤمن بالبعث لا يمكن أن

١٥٢- انظر: حقيقة الإيمان: عمر قريشي: ١٨٠-١٨١، دارالهدى - مصر (بدون تاريخ).

١٥٣- يخلّص: أي ينجون من السقوط فيها بعدما جاوزا على الصراط، (فتح الباري: ٣٩٩/١١)

١٥٤- اختلف فيها فقيل: هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة،وقيل أنهما صراطان، (فتح الباري: ٣٩٩/١١)

١٥٥- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق باب القصاص يوم القيامة: ٢٣٩٤/٥، حديث رقم: ٦١٧.

١٥٦- انظر: عقيدة المسلم لمحمد الغزالي: ٢٢٦

١٥٧- انظر: العقيدة أصولها التاريخية وأسسها الإسلامية: د. محمد جلاء إدريس: ٥٢، المركز القومي للدراسات العربية والإسلامية "فجر" - الجيزة، ١٩٩٢م

يسوده الفساد لأنه يحتكم إلى شريعة الله التي فيها صلاح البشر وسعادتهم.

والإيمان بالبعث يجعل لحياتنا غاية سامية وهدفا أعلى، وهو فعل الخيرات وترك المنكرات، والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل.

ولابد من تقوية الوازع النفسي الذي يرغّب في الخير، ويصد عن الشر، بكثرة التذكير، والتفنن في التصوير، وضرب الأمثال المتنوعة، حتى تعمق جذوره، ويقوى تأثيره، ويحقق الغاية منه، فيحدد كل إنسان هدفه الأعلى كي لا يضل الطريق، أو تتعثر به الخطا[١٥٨].

المطلب الثاني :النفختان وما بينهما:

تمهيد:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[١٥٩].

في يوم القيامة، ينفخ في الصور نفختان، تنهي النفخة الأولى الحياة على الأرض والسماء وتدمر كل شيء، بينما يحصل البعث والإحياء بالنفخة الثانية، لكن ما هو الصور؟ وماذا يحدث في كل نفخة؟ وكيف يتم البعث والإحياء؟.

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا المطلب إن شاء الله.

أولا: المراد بالصور

الصور هو القرن الذي ينفخ فيه نفختان، الأولى لإفناء الأحياء والثانية لبعث الأموات.

ووردت تسمية الصور في القرآن الكريم بالناقور، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي

١٥٨- انظر: العقائد الإسلامية: لسيد سابق: ٢٦٥، دارسابق، طبعة خاصة بالمؤلف، (بدون تاريخ)

١٥٩- سورة الزمر، الآية: ٦٨

النَّاقُورِ﴾[160]، قال مجاهد: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ إذا نفخ في الصور[161].

الصور غيب من ناحية ماهيته وحقيقته، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له.

يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[162].

فهذا الحديث عن الصور يبين أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه، وهو من ثم غيب من غيب الله، نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ولا يقين، إنما هي الظنون[163].

ويكفينا في ذلك ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله أعرابي: يا رسول الله! ما الصور؟ قال: "قرن ينفخ فيه"[164].

ثانيا: الخلاف في عدد النفخات وبيان الراجح فيها

اختلف في عدد النفخات في الصور، على قولين:

الأول: إنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾[165].

ونفخة الصعق، ونفخة البعث، لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ

١٦٠- سورة المدثر، الآية: ٨

١٦١- جامع البيان للطبري: ٥١/٢٩

١٦٢- سورة الزمر، الآية: ٦٨

١٦٣- انظر: في ظلال القرآن: لسيد قطب: ١١٣٤/٢-١١٣٥.

١٦٤- أخرجه الحاكم في مستدركه: كتاب الأهوال: ٦٠٤/٤، حديث رقم: ٨٦٨٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

١٦٥- سورة النمل، الآية: ٨٧

يَنظُرُونَ﴾[١٦٦].

ومن هؤلاء: ابن كثير[١٦٧]، والطبري[١٦٨]، والنسفي[١٦٩]، وابن تيميـة[١٧٠]، وغيرهم.

الثاني: أنهما نفختان، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق.

ومن هؤلاء القرطبي[١٧١]، وابن حجر في الفتح[١٧٢]، وروي مثل هـذا عـن جماعة من المفسرين منهم مجاهد والحسن وقتادة وغيرهم[١٧٣].

وهذا هو الرأي الراجح، قال القرطبي في التذكرة بعـد أن أورد اخـتلاف العلماء في عدد النفخات: "وهما نفختان، ونفخة الفزع هـي نفخـة الـصعق، لأن الأمرين لازمان لهما، أي فزعوا فزعا ماتوا منه. والأحاديث تدل على أنهما نفختان لا ثلاث وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ﴾**، فاستثنى هنا كما استثنى فـي نفخـة الفـزع، فـدل علـى أنهمـا واحدة"[١٧٤].

ورجح ابن حجر في الفتح القول بأنهما نفختان فقط، واستدل على ذلك بعدة آيات وأحاديث صحيحة مصرحا فيها بالنفختين، منهما:

١٦٦- سورة الزمر، الآية: ٦٨

١٦٧- انظر: القرآن العظيم، تفسير لابن كثير: ١٤٧/٢

١٦٨- انظر: جامع البيان للطبري: ٣٠/١٦

١٦٩- انظر: تفسير النسفي: ٦٣/٤

١٧٠- انظر: كتب ورسائل ابن تيمية في التفسير: ٣٥/١٦

١٧١- انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٠/١٣

١٧٢- انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣٧٧/١١

١٧٣- انظر: جامع البيان للطبري: ٣١/٣٠

١٧٤- التذكرة في أحوال الموتى والآخرة لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي: ٢٠٩، المكتبة التوفيقية – مصر، (بدون تاريخ)

* ما رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا[١٧٥]. قال: وأول من يسمعه رجل يلوط[١٧٦] حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله، أو قال ينزل مطرا -كأنه الطل[١٧٧]- أو قال الظل -الشك من الراوي- فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون"[١٧٨].
* وما رواه أوس بن أوس الثقفي: "أن أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه الصعقة وفيه النفخة"[١٧٩].
* قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[١٨٠].

قال ابن عباس: الراجفة النفخة الأولى، والرادفة النفخة الثانية[١٨١].

وقد ردّ على حديث الصور الذي ورد فيه أن النفخ في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين وقال عنه أنه حديث سنده ضعيف ومضطرب[١٨٢].

فالراجح أنهما نفختان كما تدل الأحاديث الصحيحة أما الأحاديث الواردة في كونها ثلاث فضعيفة ومضطربة كما ذكر ذلك ابن حجر.

١٧٥- الليت: صفحة الصف وهي جانبه، وأصغى: أمال (فتح الباري لابن حجر: ١٨/١٧٦).

١٧٦- يلوط: أي يطينه ويصلحه، (المرجع السابق).

١٧٧- كأنه الطل أو الظل وقال العلماء الأصح بالمهملة، وهو الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجال، (المرجع السابق).

١٧٨- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب خروج الدجال ومكثه، ٢٢٥٨/٤، حديث رقم: ٢٩٤٠

١٧٩- أخرجه أحمد في مسنده: ٨/٤، حديث رقم: ١٦٢٠٧

١٨٠- سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧

١٨١- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النازعات: ١٨٨١/٤.

١٨٢- انظر: فتح الباري: ٣٧١/١١

ثالثا: نفخة الصعق

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ...﴾[183].

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "إنها النفخة الأولى، نفخة الصعق التي يصعق ويموت بها كل الأحياء[184].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ...﴾[185].

والفزع المراد من الآية هو الموت، يقول ابن الجوزي في تفسير هذه الآية: المعنى: فيفزع من في السماوات ومن في الأرض والمراد أنهم ماتوا، بلغ بهم الفزع إلى الموت"[186].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[187].

قال قتادة: هما الصيحتان، أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله وأما الآخرة فتحي كل شيء بإذن الله"[188].

فنفخة الصعق هي نفخة الإماتة التي يموت فيها كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

وهي تأتي بغتة دون أن يشعر بقدومها أهل الأرض، فتصعقهم وتميتهم على ما كانوا عليه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

١٨٣- سورة الزمر، الآية: ٦٨

١٨٤- انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤/٣٠-٣١

١٨٥- سورة النمل، الآية: ٨٧

١٨٦- زاد المسير: ٦/١٩٥

١٨٧- سورة النازعات، الآيتان: ٦، ٧

١٨٨- الدر المنثور للسيوطي: ٨/٤٠٦

وسلم: "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ"، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: قولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[189].

يقول تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[190].

أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة هي النفخة الأولى، تأخذهم مفاجأة وهم يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها.

فلا يستطيعون توصية في شيء من أمورهم إن كانوا فيما بين أهليهم، ولا إلى أهلهم يرجعون إن كانوا في خارج أبوابهم، بل تبغتهم الصيحة فيموتوا حيثما كانوا"[191].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه[192]، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه[193] فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته[194] فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه[195] فلا

١٨٩- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب ما جاء في شأن الصور: ٤/٦٢٠، حديث رقم: ٢٤٣١، وقال: هذا حديث حسن.

١٩٠- سورة يس، الآيتان: ٤٩-٥٠

١٩١- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٧/١٧١

١٩٢- يتبايعانه: أي يتساومان فيه، مالكه والذي يريد شراءه فلا يتم بينهما ذلك من بغتة قيام الساعة فلا يتبايعانه ولا يطويانه (فتح الباري لابن حجر: ١٣/٨٩).

١٩٣- يليط حوضه: يصلحه بالطين والمدر فيسد شقوقه ليملأه ويسقي منه دوابه، (المصدر السابق: ١٣/٨٩).

١٩٤- اللقحة: الناقة ذات الدر، وهي إذا نتجت لقوح شهرين أو ثلاثة ثم لبون، (المصدر السابق: ١٣/٨٩)

١٩٥- هذا كله إشارة إلى أن القيامة تقوم بغتة، (المصدر السابق: ١٣/٨٩)

يطعمها"[196].

وقال عبدالله بن عمرو: لَيُنفخن في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده، حتى ينفخ في الصور وحتى إن الرجل ليغدو من بيته فلا يرجع حتى ينفخ في الصور"[197].

رابعا: نفخة البعث

أ- نزول المطر الذي تحيا به الأجساد

بعد أن يصعق ويموت كل من في السماوات والأرض، يبقى الناس في قبورهم ما شاء الله أن يكونوا، ثم تمطر السماء مطرا تنبت به أجساد الموتى وتعود إلى ما كانت عليه قبل الموت.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بين النفختين أربعون"، قيل: "أربعون يوما"، قال أبو هريرة: "أبيت[198]، قالوا: أربعون شهرا، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى[199]، إلا عظم واحد وهو

196- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب طلوع الشمس من مغربها: ٢٣٨٦/٥، حديث رقم: ٦١٤١.

197- انظر: جامع البيان للطبري: ١٣/٢٣

198- قوله أبيت: أي امتنعت عن القول بتعيين ذلك لأنه ليس عندي في ذلك توقيف ... ويحتمل أن يكون علم ذلك لكن سكت ليخبرهم في وقت أو اشتغل عن الأعلام حينئذ. (فتح الباري لابن حجر: ٥٥٢/٨).

199- يبلى: يحتمل أنه يريد به يفنى، أي: تعدم أجزاؤه بالكلية، ويحتمل أن يراد به يستحيل فتزول صورته المعهودة فيصير على صفة جسم التراب ثم يعاد إلى ما عهد. (فتح الباري لابن حجر: ٥٥٢/٨).

عجب الذنب[٢٠٠]، ومنه يركب الخلق يوم القيامة[٢٠١].

ونقل ابن حجر عن ابن عقيل[٢٠٢] السبب والعلة في بقاء عجب الذنب، فقال: في هذا سر لا يعلمه إلا الله، لأنه من يظهر الوجود من العدم لا يحتاج إلى شيء يبني عليه، ويحتمل أن يكون ذلك جعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجوهره، ولا يحصل العلم للملائكة بذلك إلا بإبقاء عظم كل شخص ليعلم أنه إنما أراد بذلك إعادة الأرواح إلى تلك الأعيان التي هي جزء منها، ولولا إبقاء شيء منها لجوزت الملائكة أن الإعادة إلى أمثال الأجساد لا إلى نفس الأجساد"[٢٠٣].

وما ذكره مخالف لما نشاهده في الواقع فهذا العجب يتحلل وتزول صورته، ولا يبقى محتفظا بشكله ليجعل علامة للملائكة على إحياء كل إنسان بجوهره، فالله قادر على إعادة كل روح إلى صاحبها بوجود هذا العجب وعدمه.

والمراد من تخصيصه في الحديث السابق أن هذا الجزء من الإنسان لا يدخل في تركيب جسم آخر إذا مات صاحبه، وليس المراد ببقائه أنه لا يتحلل، بل المشاهد أنه يحترق ويتحلل، ولكن الله عز وجل يحفظ أجزاءه فحيثما ذهبت فهي محفوظة، وهي أول ما يجمع يوم القيامة، ثم يبنى عليها الإنسان من المطر الذي ينزله الله عز وجل فيذهب كل جزء إلى صاحبه"[٢٠٤].

٢٠٠- عجب الذنب: عظم لطيف في أصل الصلب وهو رأس العصعص وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع، (المصدر السابق: ٥٥٢/٨).

٢٠١- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير، باب يوم ينفخ في الصور: ١٨٨١/٤، حديث ٤٦٥١.

٢٠٢- هو الإمام المحدث أبومحمد عبدالله بن محمد بن عقيل حدث عن ابن عمر، وجابر بن عبدالله وأنس، وحدّث عنه الثوري وابن عينة وغيرهم، مات بعد الأربعين ومائة، رحمه الله، (انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٤/٦).

٢٠٣- فتح الباري، لابن حجر: ٥٥٢/٨

٢٠٤- انظر: الأساس في السنة وفقهها، (العقائد الإسلامية) لسعيد حوى: ١٢١٣/٣، دار السلام - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

ب- جمع من تفرقت أجزاؤه

يظن بعض الغافلين، أن إحياء الأجساد وإعادتها لما كانت عليه، إنما هو مختص بمن قُبر، أما غير المقبورين ممن أكلتهم الحيتان، أو افترستهم السباع، أو تفرقت أشلاؤهم في الصحاري أو الجبال، أو غير ذلك، أما هؤلاء فلا تبعث أجسادهم نظرا لتفرقها، وهذا وهم.

والجواب عن ذلك: أن الله عز وجل بقدرته قادر على أن يجمع ما تفرق من أجساد الناس، من بطون السباع، وحيوانات الماء، وبطن الأرض، وما أصاب النيران منها بالحرق، والمياه بالغرق، وما أبلته الشمس وذرّته الرياح[٢٠٥].

فإن قيل: الأبدان تنحل وتؤكل وتستحيل، قلنا: القدرة لا يقف بين يديها شيء على أن الإنسان إنسان بنفسه، فلو صُنع له البدن من تراب غير التراب الذي خلق منه، لم يخرج عن كونه هو هو، كما أنه تتبدل أجزاؤه من الصغر حتى الكبر وبالهزل والسمن.

فإن قالوا: لم يكن البدن بدنا حتى يرقى من حالة إلى حالة إلى أن صار لحما وعروقا، قلنا: قدرة الله سبحانه وتعالى لا تقف على المفهوم المشاهد"[٢٠٦].

فقدرة الله عز وجل عز وجل لا يحدها شيء والقادر على إعادة تسوية البنان الذي لا يشترك فيه اثنان، قادر على إعادة رفات كل جسد إلى صاحبه وإن تباعد وتفرق.

يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[٢٠٧].

٢٠٥- انظر: التذكرة في أحوال الموتى والآخرة للقرطبي: ٢٠٩

٢٠٦- تلبيس إبليس لابن الجوزي: ٦٣/١، دارالكتاب العربي - بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي.

٢٠٧- سورة القيامة، الآيتان: ٣-٤

أي على أن نجمع بعضها إلى بعض فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء"[٢٠٨].

ج- إحياء الموتى

بعد أن يُعيد الله عز وجل أجساد الموتى إلى ما كانت عليه، ويجمع الأجزاء المتفرقة ويعيدها جسدا واحدا كما كانت من قبل، عندها يحين وقت النفخة الثانية، التي يحصل فيها الإحياء لجميع الموتى، برد أرواحهم إلى أجسادهم، فتعود كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره وتحل فيه.

يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[٢٠٩].

أي فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء، بُعثوا من قبورهم وأعيدت إليهم أرواحهم وأبدانهم، فقاموا ينظرون، ماذا يُؤمرون[٢١٠].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[٢١١]. أي يوم يسمع الخلائق صيحة البعث بالحق، أي يسمعونها بالأمر بالإجابة لله عز وجل إلى موقف الحساب، يكون هذا هو يوم خروج أهل القبور من قبورهم[٢١٢].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[٢١٣].

وهي النفخة الثانية، أي جمعنا الخلائق بعدما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم، في صعيد واحد للحساب والجزاء، جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه[٢١٤].

٢٠٨- فتح القدير: للشوكاني: ٣٣٦/٥

٢٠٩- سورة الزمر، الآية: ٦٨

٢١٠- انظر: الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي: ٢٨١/١٥

٢١١- سورة ق، الآية: ٤٢

٢١٢- انظر: جامع البيان: للطبري: ١٨٣/٢٦

٢١٣- سورة الكهف، الآية: ٩٩

٢١٤- انظر: إرشادالعقل السليم لأبي السعود: ٢٤٧/٥

وسبق ذكر قول قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ وأن الأولى تميت كل شيء والثانية تحيي كل شيء بإذن الله[٢١٥].

والآيات التي تتحدث عن البعث وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم، أكثر من أن تحصى في هذا المقام.

يقول الإمام الغزالي: "تفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور، فإنها صيحة واحدة، تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة.

فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك، مغبرا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك، مبهوتا من شدة الصعقة، شاخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الفزع والرعب، مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم، وشدة الانتظار لعاقبة الأمر"[٢١٦].

وقد أنكر بعض أهل الملل المعاد الجسماني، وقالوا إن البعث يكون بالروح دون الجسد، مخالفين بذلك لمذهب السلف من أهل السنة، من أن المعاد يكون بالروح والجسد معا.

ويدل على ذلك العديد من النصوص القرآنية، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٢١٧].

أي بالبعث والنشور، وتأليف الأجسام ورد الأرواح إليها على ما كانت عيه قبل الموت"[٢١٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[٢١٩]. أي قرنت بأجسادها[٢٢٠].

٢١٥- سبق ذكره في صفحة ١٨٢

٢١٦- إحياء علوم الدين للغزالي: ٤/٤٣٧

٢١٧- سورة طه، الآية: ٥٥

٢١٨- فتح القدير للشوكاني: ٣/٣٧٠

٢١٩- سورة التكوير، الآية: ٧

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[٢٢١].

فخص العذاب في الآية بالجلود مما يدل على أن المعاد يكون بالجسد.

وهذه النصوص وغيرها كثير، يدل على أن البعث يكون بالروح والجسد معا، ثم إن حديث أبي هريرة السابق ذكره في النفختين، بين فيه أن عجب الذنب لا يبلى، وفي هذا إشارة إلى أن ذرات الإنسان لا تفني أبدا، وإنما تتفرق في الأرض ويبقى جزء منه وهو العجب لا يتفرق، وبذلك تكون الإعادة.

وقد نبهنا الله عز وجل إلى أنها حياة إعادة، فحيث قد مارسنا فعلا تذوق حياة البدء، يمكننا أن نقرب إلى تصورنا حياة الإعادة، وإن اختلفت في كل منهما الشروط والأسباب والملابسات، وعوامل البقاء وأنواع الإحساس، وغير ذلك[٢٢٢].

ومن الحكمة، ومن مقتضى العدل، أن ينعم أو يعذب الجسد الذي صدرت منه الطاعة أو المعصية ولا يقتصر الأمر على الروح.

ومع كون البعث بالأجساد والأرواح إلا أن القوي الروحية تكون هي القادرة على التصرف في الأجساد فتستطيع قطع المسافات البعيدة في أقصر مدة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة والنار[٢٢٣].

٢٢٠- انظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود: ٩/١١٥؛ وتفسير النسفي: ٣١٩/٤

٢٢١- سورة النساء، الآية: ٥٦

٢٢٢- انظر: منهج الإمام الشوكاني في العقيدة للدكتور عبدالله نومسوك ٢/٧٥٣-٧٥٤، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٤م.

٢٢٣- انظر: العقائد الإسلامية لسيد سابق: ٢٧٣

المطلب الثالث: هيئة العباد عند البعث:

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أنها قد تناولت الحديث عن حال العباد وكيفية إحيائهم وبعثهم من قبورهم.

وسأتناول في هذا المقام المشاهد التي ذكرها القرآن الكريم للعباد بوجه عام والكافرين على وجه الخصوص.

أولا: هيئة العباد بوجه عام

أ- يأتون أفواجا

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٢٢٤].

في ذلك اليوم العصيب ينفخ في الصور، فيبعث الناس ويخرجون من قبورهم، ويأتون إلى أرض المحشر زمرا وجماعات، مختلفة الأحوال، متباينة الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها"[٢٢٥].

قال مجاهد: أفواجا: زمرا زمرا[٢٢٦].

نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التي يأتي بها الناس أفواجا، نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلا بعد جيل، وأخلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها، كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود، نتصور مشهد هذه الخلائق منها قائمة، ونتصور الجموع الحاشدة، لا يعرف أولها آخرها، ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد، وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم"[٢٢٧].

٢٢٤- سورة النبأ، الآية: ١٨

٢٢٥- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٨٩/٩

٢٢٦- جامع البيان للطبري: ٨/٣٠

٢٢٧- انظر في ظلال القرآن لسيد قطب (بتصرف): ٣٨٠٧/٦

ب- يصدرون أشتاتا

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾[228]. أي يخرجون من قبورهم من كل حدب وصوب.

أشتاتا: أي يبعثون من أقطار الأرض[229].

أي يرجعون عن موقف الحساب وينصرفون عن موضع ورودهم أشتاتا، أي أنواعا وفرقا مختلفي الأحوال ما بين شقي وسعيد ومأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار، على طرائق شتى للنزول في منازلهم من الجنة والنار بحسب أعمالهم المختلفة[230].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض، وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعا تنبعث من هنا وهناك، إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾.

وهذه أشد وأدهى، إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها، ويواجهوا جزاءها.

ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء وإن من عمله، ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير،فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر[231].

٢٢٨- سورة الزلزلة، الآية: ٧

٢٢٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٠/١٥٠

٢٣٠- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/٥٤٠؛ والجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي: ٤/٤٣٤، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، (بدون تاريخ)؛ وروح المعاني للألوسي (بتصرف): ٣٠/٢١٣).

٢٣١- انظر في ظلال القرآن لسيد قطب: ٦/٣٩٥٥

ج- بعضهم يموج في بعض

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾[٢٣٢].

أي جعلنا بعض الخلائق يوم إذ جاء الوعد بخروج يأجوج ومأجوج يموج في بعض، يضطربون اضطراب أمواج البحر، ويختلط إنسهم وجنهم حيارى من شدة الهول، ثم نفخ في الصور فأحضرنا الجميع للحساب[٢٣٣].

ففي ذلك اليوم يموج بعض الخلائق في بعض، ويضطربون ويختلطون.

وهذا المشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض، ومن كل جيل وزمان وعصر، مبعوثين منشرين، يختلطون ويضطربون، في غير نظام، وفي غير انتباه، تتدافع جموعهم تدافع الموج، وتختلط اختلاط الموج، ثم إذا نفخة التجمع والنظام، فإذا هم في الصف في نظام[٢٣٤].

د- يبعث كل عبد على ما مات عليه:

إن خاتمة الإنسان التي مات عليها، تنعكس عليه عند البعث وخروجه من قبره.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يبعث كل عبد على ما مات عليه"[٢٣٥].

وعن عبدالله بن عمرو أنه قال: يا رسول الله! اخبرني عن الجهاد والغزو، فقال: يا عبدالله إن قاتلت صابرا محتسبا، بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت

٢٣٢- سورة الكهف، الآية: ٩٩

٢٣٣- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٤٧/٥، روح المعاني للألوسي: ٤٣/١٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٠٧/٣).

٢٣٤- انظر في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٢٩٤/٤

٢٣٥- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت: ٢٢٠٦/٤، حديث رقم: ٢٨٧٨

مرائيا مكاثرا، بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبدالله بن عمرو، على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال"[٢٣٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلا كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرما فوقصته ناقته فمات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا"[٢٣٧].

فهذه الأحاديث دلت على أن نهاية الإنسان وخاتمته، لها أثرها في حاله وهيئته عند البعث، فإن مات مجاهدا صابرا محتسبا ملبيا بعث على تلك الهيئة، وإن مات مرائيا منافقا كذابا بعث على تلك الحالة.

ثانيا: هيئة الكفار عند البعث

أ- يخرجون سراعا

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[٢٣٨].

أي يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم إلى علم قد نصب لهم يستبقون ويسرعون[٢٣٩].

وقد شبهت الآية حال إسراعهم في ذلك اليوم، بحال إسراعهم إلى ما كانوا ينصبون لأنفسهم من أصنام.

٢٣٦- أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الجهاد، باب "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا": ١٤/٣، حديث رقم: ٢٥١٩، دارالفكر - بيروت، تحقيق: محي الدين عبدالحميد (بدون تاريخ).

٢٣٧- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب الكفن في ثوبين: ٤٢٥/١، حديث رقم: ١٢٠٦

٢٣٨- سورة المعارج، الآية: ٤٣

٢٣٩- جامع البيان للطبري: ٨٩/٢٩

والنصب: بالفتح والضم هو ما نُصب فعُبد من دون الله[٢٤٠].

قال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، لا يلوى أولهم على آخرهم"[٢٤١].

ومعنى "يوفضون" يسرعون، والإيفاض هو الإسراع[٢٤٢].

فمعنى التشبيه أنهم يخرجون من الأجداث سراعا، أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، فينهضون سراعا يسبق بعضهم بعضا، كأنهم إلى نصب منصوب للعبادة يسرعون، والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة للمشركين[٢٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[٢٤٤].

أي ونفخ في الصور نفخة البعث، فإذا هم من الأجداث وهي القبور يسرعون، والنسلان: الإسراع في المشي. قال ابن عباس: "ينسلون" يخرجون مسرعين[٢٤٥].

ب- أبصارهم خاشعة ذليلة:

قال تعال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٢٤٦].

٢٤٠- روح المعاني للألوسي: ٦٦/٢٩

٢٤١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٩٧/١٨

٢٤٢- جامع البيان للطبري: ٨٩/٢٩

٢٤٣- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٢٤/٤؛ وروح المعاني للألوسي: ٦٦/٢٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي: ٣٩١/٥

٢٤٤- سورة يس، الآية: ٥١

٢٤٥- انظر: جامع البيان للطبري: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٧٥/٣، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٠/١٥

٢٤٦- سورة القمر، الآيات: ٦-٨

أي أعرض يا محمد عن مشركي قومك لأنهم إن يروا آية يعرضوا، فإنهم يوم يدعوهم الداعي إلى موقف القيامة يستجيبون للداعي، خاشعة أبصارهم ذليلة، قال قتادة: ﴿خشعا أبصارهم﴾: ذليلة أبصارهم، يخرجون من والقبور كأنهم في خروجهم وانتشارهم جراد منتشر، يقولون وهم مسرعون إلى الداعي: هذا يوم عسر[٢٤٧].

والحكمة من تخصيص الأبصار بالخشوع في الآية دون سائر البدن مع أن المراد جميع أجسامهم، لأن أثر الذلة يكون باديا عليها أكثر، فالأبصار هي مظهر لأثر ذلة كل ذليل، وعزة كل عزيز[٢٤٨].

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها، وهو متقارب سريع، وهو مع سرعته شاخص متحرك، مكتمل السمات والحركات: هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة، كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد، لا تعرفه ولا تطمئن إليه ... وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وهي قولة المكروب المجهود الذي يخرج ليواجه الأمر الصعيب الرعيب"[٢٤٩].

ج- لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء:

قال تعالى: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ**

٢٤٧- انظر: جامع البيان للطبري: ٩٠/٢٧؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٢٩/١٧-١٣٠

٢٤٨- انظر: جامع البيان للطبري: ٩٠/٢٧

٢٤٩- مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب: ٨٣، دارالمعارف بمصر، ١٣٨٦هـ

﴿هَوَاءٌ﴾(٢٥٠).

وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، أي اصبر وأعلِم المشركين، أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله إمهال العصاة، فالله عز وجل يؤخر مشركي مكة ليوم تشخص فيه الأبصار، أي لا تغمض من هول ما تراه في ذلك اليوم ... ويكون حالهم مسرعين، رافعي رؤوسهم، ينظرون في ذل، وإقناع الرأس رفعه.

﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة مفتوحة مذهولة، لا تطرف ولا تتحرك. وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تـبـضم شيئا يعونه أو يحفظونه، فهي هواء خواء.

قال ابن عباس: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ خالية من كل خير.

فالسرعة المهرولة المدفوعة في الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة مع القلب المفزع الطائر، الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك كلها تـشي بـالهول الـذي تشخص فيه الأبصار(٢٥١).



٢٥٠- سورة إبراهيم، الآيات: ٤٢-٤٣

٢٥١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٩/٣٧٦-٣٧٧، وفي ظلال القرآن لسيد قطـب: ٤/٢١١١-٢١١٢

الفصل الرابع

الأدلة القرآنية

على الإحياء في الآخرة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

تمهيد:

الإيمان باليوم الآخر، وما يحدث فيه من أحوال وأهوال، هو ركن أساسي من عقيدة المسلم.

وقد استأثر الحديث عن اليوم الآخر بطائفة كبيرة من آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، من التدليل على حدوثه، وتفصيل ما يحدث فيه من أهوال، والرد على من أنكره، وبيان كذبهم.

وكثرة الآيات والأحاديث التي تتحدث عن البعث، وإعادة الحياة للأجساد، تدل على مدى الاهتمام بقضية البعث، والربط بينها وبين سلوك الإنسان وعمله، فحياته الدنيا ليست هي نهاية المطاف، بل هي مقدمة لحياة أخرى أبدية يحاسب فيها الإنسان على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

ولقد ذهب فريق من الناس قديما وحديثا، إلى إنكار اليوم الآخر وإحياء الأجساد وبعثها من جديد، وظنوا أن الحياة الأخرى ما هي إلا أمل يسعى إليه الكسالى من الناس، ليسلوا بها أنفسهم عن ضيق الحياة الدنيا عليهم، وما ادعاؤهم هذا إلا من فرط ما غلب عليهم من حب هذه الدنيا والتعلق بها.

وقد استخدم القرآن الكريم أساليب متنوعة وبراهين متعددة للاستدلال على الإحياء في الآخرة، والتي سأتناول بعضها في هذا المبحث.

وسأبدأ الحديث عن إحياء الأرض بالمطر، وهو من الأدلة التي تلمس القلوب قبل أن تلمس العقول، فمن قدر على إحياء الأرض اليابسة بمختلف الزروع والثمار على اختلاف أشكالها وألوانها قادر على إعادة الحياة للأجساد بعد الموت.

ثم سأتناول الحديث عن نشأة الإنسان ومبدأ خلقه الأول، والاستدلال من خلاله على إعادة الحياة للجسد بعد الموت، وهو دليل فيه من القوة والوضوح بحيث

لا يحتاج إلى إعمال الفكر، أو إلى شيء من البحث والنظر، فمن نظر في خلقه الأول لا يشك أن النشأة الآخرة كالنشأة الأولى بل هي أيسر.

ثم الاستدلال على الإحياء في الآخرة بالقيام من النوم، فلقد قرب القرآن الكريم أمر البعث وإمكانية وقوعه، بمثال محسوس يلمسه كل فرد في نفسه، فالإنسان ينام في اليوم مرات ويستيقظ، وهذه قيامة صغرى مماثلة للقيامة الكبرى، فالله سبحانه وتعالى القادر على بعث الناس من توفي النوم إلى اليقظة، قادر على بعث الموتى من قبورهم، وردهم إلى الحياة مرة أخرى.

وسأختم هذا المبحث بعرض قصة أصحاب الكهف، الذين ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ثم بعثهم الله عز وجل من رقدتهم الطويلة وسباتهم العميق، بعد أن كانوا في حكم الموتى، وأعثر عليهم الناس ليكونوا دليلا وبرهانا عمليا على إمكان البعث، وقدرة الله على إحياء الموتى.

فالله الذي حفظ أجساد هؤلاء الفتية، طيلة هذه المدة وأنامهم بالضرب على آذانهم هذه المدة، ثم أيقظهم بعدها قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم يوم القيامة.

والاستدلال على الإحياء في الآخرة، لا ينحصر بهذه الأدلة والبراهين التي ذكرتها، بل هي كثيرة ومتنوعة، كالاستدلال بأحوال السماوات والأرض، وأحوال النبات والشجر، وأحوال الطير والحيوان، وأحوال الليل والنهار، وغيرها من طرق الاستدلال.

وإنما اقتصرت في الذكر على هذه الأربعة، لاشتمالها على موضوع الإحياء.

والله تعالى هو الموفق للصواب.

المبحث الأول

إحياء الأرض بالمطر

تمهيد

إحياء الأرض بالمطر، أحد الأدلة التي استدل بها القرآن الكريم علـــى قيـــام الأجساد وبعثها بعد موتها، وقد كثرت الآيات الواردة فيه لوضوحه وكونه مــشاهدا للناظرين.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذا الدليل في كتابه كثيـــرا لـــصحة مقدماتـــه، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة[١].

كما أنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، يقول سيد قطب: "ويتكـــرر فـــي القرآن عرض مثل هذا المشهد، واتخاذه نموذجا للإحياء في الآخرة، ودليلا كـــذلك على القدرة.

ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول، والحياة حين تنبض من بين الموات، توحي بالقدرة المنشئة إيحـــاء خفيـــا ينبض في أعماق الشعور، والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق"[٢].

ولو تتبعنا الآيات القرآنية الواردة في هذا المقام الطال بنـــا الحـــديث، لـــذلك سأقتصر على عرض بعض النماذج، التي ورد فيها التصريح بقياس إحياء الأرض بالمطر، على إحياء الموتى وبعثهم في الآخرة.

١- إعلام الموقعين لابن الجوزي: ١/١٤٤

٢- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٥/٣١٢٦

النموذج الأول:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣].

نبه الله سبحانه وتعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا...﴾ فالله عزّوجلّ هو الذي يرسل الرياح مبشرات، تبشر بالمطر، لينا هبوبها، طيبا نسيمها، أمام غيثه الذي يسوقه بها إلى خلقه، فينشئ بها ﴿سَحَابًا ثِقَالاً﴾ أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض، ثم يسوقه سبحانه وتعالى إلى أرض ميتة لا نبات فيها، قد درست مشاربها، وأجدب أهلها، وهلكت مزارعها، فأنزل به المطر، وأخرج به من كل الثمرات، وكما أحيى الله تبارك وتعالى هذه الأرض بعد موتها كذلك يحيي الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة[٤].

وهذا المشهد أثر من آثار الربوبية في الكون، وآثار الفاعلية والسلطان والتدبير والتقدير، وكلها من صنع الله تبارك وتعالى، فكل ذلك يجري وفق النواميس التي أودعها طبيعة الكون وطبيعة الحياة.

وهذا تصور يستحيي القلوب، ويستجيش العقول، ويعلقها جميعا بفاعلية الخالق المتجددة، وبتسبيح البارئ الحاضر في كل لحظة، وفي كل حركة، وفي كل حدث، آناء الليل وأطراف النهار[٥].

﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾.

٣- سورة الأعراف، الآية: ٥٧

٤- انظر: جامع البيان للطبري: ٢١٠/٨؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٢٣/٢؛ وفتح القدير للشوكاني: ٢١٤/٢؛ والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي: ٢٥/٢

٥- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ١٢٩٨/٣-١٢٩٩

أي أنه تبارك وتعالى كما أحيا هذا البلد بعد خرابه فأنبت فيه الشجر، وجعل فيه الثمر، فكذلك يحيي الموتى بعد أن كانوا أمواتا، لأن من يقدر على أحداث الجسم، وخلق الرطوبة والطعم فيه، فهو أيضا قادر على إحداث الحياة في بدن الميت.

أي كما نحييه بإحداث القوى النامية فيه، وتطريتها بأنواع النبات والثمرات، نخرج الموتى من الأرض ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها، وتطريتها بالقوى والحواس[6].

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى أنكم شاهدتم أن هذه الأرض كانت مزينة وقت الربيع والصيف بالأزهار والثمار، ثم صارت عند الشتاء ميتة، عارية عن تلك الزينة، ثم إنه تعالى أحياها مرة أخرى، فالقادر على إحيائها بعد موتها، يجب كونه قادرا على إحياء الأجساد بعد موتها، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ المراد منه تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في إحدى الصورتين، وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى[7].

النموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[8].

بعد أن عرضت هذه السورة مشاهد الخلق، ومراحل تطور الإنسان كدليل على البعث والإحياء في الآخرة، انتقلت إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات، كدليل آخر على قدرة الله عز وجل على البعث والإحياء.

٦- انظر: روح المعاني للألوسي: ٨/٢٤٦؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ١٤/١٤٣

٧- مفاتيح الغيب للرازي: ١٤/٢٤٣

٨- سورة الحج، الآيات: ٥-٧

فالأرض تكون هامدة، أي يابسة دارسة الآثار من الزرع والنبات قال ابن قتيبة: "أي ميتة يابسة كالنار إذا طفئت"[٩]، فإذا أنزل الله عزّوجلّ عليها المطر، اهتزت وتحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة بعد موتها، وربت أي ارتفعت، ومنه الربوة وهي المكان المرتفع، ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع وأشتات النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها، وأشكالها ومنافعها[١٠].

يقول سيد قطب: "وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز هي تتشرب الماء، وتنتفخ فتربو، ثم تتفتح بالحياة عن النبات ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١١].

ثم استدل على الإحياء بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره من إنشاء الإنسان من التراب، ومراحل تطور الجنين، والمراحل التي يمر بها الإنسان في حياته، وإحياء الأرض الهامدة بإنزال المطر عليها، إنما ذكرته لكم لتؤمنوا وتصدقوا بأن الذي فعل ذلك هو الله عز وجل ولتعلموا أن القادر على جعل هذه الأشياء العجيبة لايتعذر عليه أن يحيي الموتى بعد فنائهم ودروسهم في التراب وأن فاعل ذلك قادر لا يمتنع عليه شيء أراده، وأن الساعة التي وعدتكم أن أبعث فيها الموتى من قبورهم آتية لا محالة ولا شك في مجيئها، وأن الله يبعث من في القبور أحياء إلى موقف الحساب[١٢].

٩- انظر: فتح القدير للشوكاني: ٤٣٧/٣

١٠- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٠٩/٣، وفتح القدير للشوكاني: ٤٣٧/٣، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي: ٧٢/٣.

١١- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٤١١/٤

١٢- انظر: جامع البيان للطبري: ١٢٠/١٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٠٩/٣

وفي هذه الآية ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت، بقياس التمثيل، لأنه استدلال بحالة مشاهدة، فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان، فإن مبدأه غير مشاهد، فقيل في شأنه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية، ومحل الاستدلال هو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا﴾ مناسبٌ لقوله في الاستدلال الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾ فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت[١٣].

النموذج الثالث:

قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٤].

تحدثت هذه الآيات عن قدرة الله عز وجل على إرسال الرياح، وإثارة السحاب وبسطه في السماء، وإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، لقياس إحيائها على إحياء الموتى بقدرته عزّوجلّ.

فالله هو الذي يرسل الرياح وفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتصريفه، فتنشئ السحاب بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض، فيبسطه في السماء وينشره، ويجمعه كيف يشاء، فترى المطر يخرج من بين السحاب.

١٣- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٠٣/١٧

١٤-سورة الروم، الآيات: ٤٨-٥٠

قال ابن عباس: "يرسل الله الريح فتحمل الماء من السحاب فتمر به السحاب فتدر كما تدر الناقة غير أنه متفرق"[١٥].

فإذا صرف الله ذلك المطر إلى أرض من يشاء من عباده، إذا هم يستبشرون ويفرحون بنزول ذلك المطر لفرط حاجتهم إليه. وقد كان هؤلاء القوم -الذين أصابهم هذا المطر- قانطين من نزوله إليهم، فلما جاءهم على فاقة وقع منهم موقعا عظيما.

ولا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته، كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر، والعرب أعرف الناس بهذه الإشارة، وحياتهم كلها تقوم على ماء السماء.

ثم رتب على ما تقرر، من استحضار صورة تكوين أسباب المطر، استبشار الناس بنزوله، بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة، وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها، والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال، أي انظروا نظر استبصار واستدلال، واستدلوا بذلك على أن الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها، قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم يوم القيامة، وهو على كل شيء قدير.

وهذه حقيقة واقعة منظورة، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر[١٦].

١٥- انظر: الدر المنثور للسيوطي: ٤٩٩/٦

١٦- انظر: جامع البيان للطبري: ٥٤/٢١-٥٥؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٣٨/٣؛ وفتح القدير للشوكاني: ٢٣١/٤؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٧٧٥/٥؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ١٢٣/٢١

النموذج الرابع:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[١٧].

عرضت لنا هذه الآية مشهد الرياح، تثير السحاب من البحار، فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار، والرياح الباردة هي المكثفة له، حتى يصير سحابا، ثم يسوق الله هذا السحاب بالتيارات الهوائية في طبقات الجو المختلفة، فتذهب إلى بلد مجدب الأهل، مخل الأرض، داثر لا نبت فيه ولا زرع، فأحيي بغيث ذلك السحاب الأرض بعد جدبها، وأنبت فيها الزرع بعد المحل، وإيراد الفعلين "فسقناه"، "فأحيينا" بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق، وإسنادهما إلى نون العظمة المنبئ عن الاختصاص به سبحانه تعالى لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إيحاء الأرض وبين البعث.

وكما أحي الأرض بالغيث بعد مماتها، ينشر الموتى بعد بلائهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم[١٨].

وعبر بصيغة المضارع في قوله: "فتثير" لحكاية الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، واستحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وللدلالة على استمرار تلك الإثارة[١٩].

واختير من دلائل الوحدانية دلالة تجمع أسباب المطر، ليفضي من ذلك إلى تنظير إحياء الأموات، بعد أحوال الفناء بآثار ذلك الصنع العجيب، وأن الذي خلق

١٧- سورة فاطر، الآية: ٩

١٨- انظر: جامع البيان للطبري: ١١٩/٢٢؛ وفتح القدير للشوكاني: ٣٤٠/٤؛ روح المعاني للألوسي: ١٧٢/٢٢؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٩٢٩/٥

١٩- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٢٧/١٤؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٤٥/٧.

وسائل إحياء الأرض، قادر على خلق وسائل إحياء الذين ضمتهم الأرض، فقال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[٢٠].

وهكذا تتم الخارقة التي تحدث في كل لحظة، والناس في غفلة عن العجب العاجب فيها، "كذلك النشور"، في بساطة ويسر، وبلا تعقيد ولا جدل بعيد.

وهذا المشهد يتردد في القرآن، لأنه دليل واقعي ملموس، لا سبيل إلى المكابرة فيه، ولأنه من جانب آخر يهز القلوب حقا حين تتملاه وهي يقظى، ويلمس المشاعر لمساً موحياً، حين تتجه إلى تأمله، وهو مشهد بهيج جميل مثير، وبخاصة في الصحراء حيث يمر عليها الإنسان اليوم وهي محل جدب جرداء، ثم يمر عليها غدا وهي ممرعة خضراء من آثار الماء، والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم مما يمرون عليه غافلين، وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون[٢١].

النموذج الخامس:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٢].

عرضت هذه الآية، آية من آيات الله عز وجل المعروضة للأنظار، بحيث يراها الجميع، فهي منصوبة أمام أعينهم، لا تحتاج إلى أكثر من التأمل والاعتبار، للاستدلال بما هو مشاهد وواقع أمام أنظارهم على ما لم يشاهدوه من أمر البعث وإحياء الموتى.

٢٠- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٦٧/٢٢

٢١- في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٩٢٩/٥

٢٢- سورة فصلت، الآية: ٣٩

فإن من حجج الله وأدلته على قدرته على نشر الموتى، أن ترى الأرض دارسة غبراء لا نبات فيها ولا زرع، وهو مستعار من الخشوع بمعنى التذلل. قال قتادة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، أي غبراء متهشمة[٢٣].

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا أنزلنا من السماء غيثا على هذه الأرض الخاشعة تحركت بالنبات وانتفخت، لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عنه، وكأنما هي حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة ذلك أن السياق لذي وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح.

ثم ذكّر الله سبحانه وتعالى بالأمر الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا دليل حي، متكرر في القرآن، يقرّب للأذهان صورة الإحياء بعد الإماتة. فالذي أحيى هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات وجعلها تهتز بالزرع من بعد يبسها ودثورها، بالمطر الذي أنزله عليها قادر على أن يحيي أموات بني آدم بعد مماتهم[٢٤].

وقد ذكر الأستاذ سيد قطب السر في مجيء هذه الآية بلفظ "خاشعة" بينما وردت من قبل بلفظ "هامدة" فقال: عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر، وقبل تفتحها بالنبات، مرة بأنها "هامدة" ومرة بأنها "خاشعة"، وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير، فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان:

وردت "هامدة" في هذا السياق: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ

٢٣- الدر المنثور للسيوطي: ٣٢٩/٧؛ وجامع البيان للطبري: ١٢٢/٢٤

٢٤- انظر: جامع البيان للطبري: ١١٢/٢٤؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١٥/٨؛ روح المعاني: ١٢٦/٢٤؛ تفسير الثعالبي: ٩٥/٤؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٣١٢٥/٥

شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[25].

ووردت "خاشعة" في هذا السياق: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَتَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ۞ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[26].

وعند التأمل السريع في هذين السياقين، يتبين وجه التناسق في "هامدة" و"خاشعة".

إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج، فمما يتسق معه تصوير الأرض "هامدة" ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج.

وإن الجو في السياق الثاني، هو جو عبادة وخشوع وسجود، يتسق معه تصوير الأرض "خاشعة" فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت.

ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا، الإنبات والإخراج، كما زاد هناك، لأنه لامحل لها في جو العبادة والسجود، ولم تجئ "اهتزت وربت" هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك، إنهما تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها، وهذه الحركة هي المقصودة هنا لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم، ولكي لايبقى جزء من أجزاء المشهد ساكنا، وكل الأجزاء تتحرك من حوله. وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة يسمو على كل تقدير.

٢٥-سورة الحج، الآية: ٥

٢٦-سورة فصلت، الآيات: ٣٧-٣٩

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث، فما هما إلا سكون أو خمود، تعقبه الحركة والحياة، فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع.

ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني إنما يريد الصورة كذلك، والصورة تقتضي هذا التنويع ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى[٢٧].

المبحث الثاني

إحياء الجنين في الرحم

تمهيد

إحياء الجنين في الرحم، يدل دلالة عظيمة على قدرة الله عز وجل على الإحياء في الآخرة، وإحياء الإنسان وإيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، دليلٌ واضح على إمكان البعث، وإحياء الأجساد بعد موتها يوم القيامة.

فمن قدر على الإنشاء، والإيجاد من العدم، فهو قادر من باب أولى على إعادة هذا الخلق، وإحيائه في الآخرة.

وعند استعراضي لآيات الخلق والإحياء، وجدت أن القرآن الكريم قد تحدّث عن هذا الإحياء من خلال عدة محاور، قمت بجمع آياتها، وتقسيمها إلى مسائل، خصصت بكل مسألة مطلبا للحديث عنها:

فما المراد بالموتتين والحياتين الوارد ذكرهما في القرآن، تحقيقا وما معنى قوله: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ في القرآن الكريم، وما هي مراحل تكوين الجنين كما جاء في القرآن الكريم؟

٢٧- انظر: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب: ٩٩-١٠٠، دارالمعارف - مصر، ١٩٦٣م.

وكيف استدل القرآن الكريم بهذا الإحياء، على الإحياء في الآخرة؟

هذا ما سأتناوله في هذا المبحث، بعونه تعالى.

المطلب الاول: بالموتتين والحياتين:

المراد بقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢٨].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾[٢٩].

وقال: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾[٣٠].

لو تأملنا هذه الآيات، لوجدنا أنها تشير إلى موتتين، وحياتين للإنسان.

وقد اختلف أقوال المفسرين في بيانهما ويمكن إجمالها فيما يأتي:

القول الأول:

ذهب العديد منهم إلى ما روي عن السلف في ذلك، من أن المراد بالموتة الأولى هي التي قبل خلقهم، أي عندما كانوا عدما خاملين لا ذكر لهم.

والحياة الأولى خلقهم وإحياؤهم بنفخ الروح فيهم وهم في الأرحام.

والموتة الثانية: إماتتهم عند انقضاء آجالهم، والحياة الثانية: بعثهم وإحياؤهم يوم القيامة[٣١].

٢٨-سورة البقرة، الآية: ٢٨

٢٩-سورة الحج، الآية: ٦٦

٣٠-سورة غافر، الآية: ١١

٣١-انظر: جامع البيان للطبري: ١/١٨٨؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٢/١٦٥؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٦٨؛ وروح المعاني للآلوسي: ٢٤/٥١؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٢٤٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي: ٥/٨٦.

فعن ابن مسعود في تفسير قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: لم تكونوا شيئا فخلقكم، ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة[٣٢].

وعن مجاهد قال: لم تكونوا شيئا حين خلقكم ثم يميتكم الموتة الحق ثم يحيكم[٣٣].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، قال: كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان"[٣٤].

ويكون إطلاق اسم الميت على الجماد من باب المجاز على رأي الأكثرين كما صرح بذلك الإمام الرازي[٣٥].

فالعرب تسمى الشيء الدارس والأمر الخامل الذكر: ميتا، فيقولون: هذا شيء ميت يراد بوصفه بالموت خمول ذكره ودرس أثره من الناس.

وكذلك يقال في ضد ذلك، فيسمون الشخص النابه المذكور بين الناس: حيا، فيقولون شخص حي أي شخص نابه له ذكر بين الناس[٣٦].

والميت ما يحل به الموت، ولابد وأن يكون بصفة من يجوز أن يكون حيا في العادة، وهذا هو الأقرب، لأنه يقال في الجماد إنه موات وليس بميت، فيشبه أن يكون استعمال أحدهما في الآخر على سبيل التشبيه.

القول الثاني:

إن المراد بالموتتين والحياتين، عندما كانوا نطفا في أصلاب آبائهم،

٣٢- جامع البيان للطبري: ١/١٨٦؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٦٨.

٣٣- جامع البيان للطبري: ١/١٨٦

٣٤- جامع البيان للطبري: ١/١٨٧؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٦٨.

٣٥- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢/١٦٥.

٣٦- انظر: جامع البيان للطبري: ١/١٨٧؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٢/١٦٥

فأحياهم الله، ثم يميتهم في قبورهم ثم يحييهم عند البعث[٣٧].

وإطلاق الموت هنا يكون من باب المجاز أيضا، بناء على أن حقيقة الموت هو انعدام الحياة من الحي بعد أن اتصف بالحياة، فيكون إطلاقه على حالة انعـــدام الحياة، قبل حصولها فيه من باب المجاز[٣٨].

وذلك أن الإماتة تأتي بمعنيين، الأول: جعل الشيء ميتا سواء سبق بحياة أم لا، والثاني: تصيير الشيء ميتا بعد أن كان حيا[٣٩].

فالمراد من موت النطفة على هذا، خلق النطفة ميتة، لا تصييرها ميتة بعد أن كانت حية.

القول الثالث:

أن الموتة الأولى عند انخرام الأجل، والثانية في القبر بعـــد الإحيـــاء فـــي السؤال، والإحياء الأول ما في القبر، والإحياء الثاني عند البعث[٤٠].

القول الرابع:

الإماتة الأولى قبل كونهم في صلب آدم، والحياة الأولى نفخ الروح فيهم في صلب آدم، والإماتة الثانية نقلهم من صلب آدم إلى أصلاب آبائهم، والحياة نفخ الأرواح فيهم في بطون أمهاتهم.

والإماتة الثالثة قبض أرواحهم عند موتهم، والحياة الثالثة بعثهم من قبورهم

٣٧- انظر: جامع البيان للطبري: ١/١٨٧؛ والدر المنثور للسيوطي: ٢٧٨/٧؛ ومفـــاتيح الغيـــب للرازي: ١٦٥/٢؛ وفتح القدير للشوكاني: ٤٨٤/٤

٣٨- انظر: روح المعاني للألوسي: ٥١/٢٤؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٧٦/١.

٣٩- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي: ٨٦/٥؛ وفتح القدير للشوكاني: ٤٨٤/٤؛ والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٧٥/١-٣٧٦

٤٠- انظر: جامع البيان للطبري: ١٨٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيـــضاوي: ٨٦/٥؛ وفـــتح القـــدير للشوكاني: ٤٨٤/٤؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٤٩/١

يوم القيامة[٤١].

وهذا الوجه لا يخفى على أحد بطلانه، لأنه على هذا التأويل يكون هناك ثلاث موتات، وثلاث إحياءات، وهذا خلاف نص الآية.

أما من ذهب إلى أن المراد أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال ثم أميتوا ثم أحياهم الله في الآخرة، فغير مقبول، والحياة التي تكون في القبر هي في حكم الحياة الدنيا، أو أنه لم يعتد بها[٤٢].

وقد رد على هؤلاء الطبري فقال إن وجه من تأول ذلك أن يكون قد ذهب إلى أن قوله تعالى: "وكنتم أمواتا" هو خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم في قبورهم وذلك معنى بعيد لأن التوبيخ هناك إنما هو توبيخ على ما سلف وفرط من إجرامهم لاستعتاب واسترجاع وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا...﴾ توبيخ مستعتب عباده وتأنيب مسترجع خلقه من المعاصي إلى الطاعة ومن الضلالة إلى الإنابة، ولا إنابة في القبور بعد الممات ولا توبة فيها بعد الوفاة[٤٣].

كما أنه يمكن الرد عليهم بما أثبته العلم الحديث من كون النطفة فيها حياة.

فالنطفة على ثلاثة أنواع:

النطفة المذكرة وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.

والنطفة المؤنثة وهي البويضة.

والنطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة، أي (البويضة الملقحة)

والحيوان المنوي والبويضة، ليسا إلا خلية حية من خلايا الجسم المتعددة، فبويضة المرأة هي أكبر خلية حية، حيث يبلغ قطرها مائتي ميكرون (خمس ميليمتر) بينما لا يزيد الحيوان المنوي عن خمسة ميكرونات.

٤١- انظر: جامع البيان للطبري: ١/١٨٧؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٢٤٩

٤٢- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/٢٤٩

٤٣- انظر: جامع البيان للطبري: ١/١٨٨

وكل من الحيوان المنوي والبويضة يتمتعان بالحياة والحركة والقــدرة علــى الانقسام، كما أنهما يموتان ويذويان ويفقدان حياتهما إذا لم يتم التلقيح[٤٤].

وعلى هذا فالنطفة ليست ميتة بل هي تنعم بالحياة، وهم لم يكونــوا أمواتــا عندما كانوا نطفا، بل كانوا أمواتا عندما كانوا معدومين أموات الذكر، خمولا فــي أصلاب آبائهم، لايُعرفون ولا يذكرون، فأحياهم بنفخ الروح فيهم وخلقهم وإنشائهم بشرا سويا.

وبمثل هذا يرد على القول بأن المراد من الموتة الأولى عندما كانوا نطفا في أصلاب الآباء.

فيكــون أولى هــذه الأقوال وأصحها، هو القول الأول المروي عــن ابــن عباس وابن مسعود وقد رجح هذا القول كل من الطبري[٤٥] والــرازي[٤٦] وابــن كثير[٤٧] والشوكاني[٤٨] والقرطبي[٤٩] وغيرهم وذكروا أن علماء السلف والجمهور قد ذهبوا إلى مثل هذا القول ورجحوه على غيره.

وقد أثبت العلم الحديث ما يتفق مع ما ذهب إليه السلف ورجحه العلماء والمفسرون من أن المراد بالإحياء خلقهم ونفخ الروح فيهم بعد أن كانوا عدما لا ذكر لهم.

ولو رجعنا إلى قول العلم في كيفية تكوين النطفة من العــدم أدركنــا أنــه لا

٤٤- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد البار: ١٠٩، ١٧٣، ١٨٩، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م؛ ودليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، محمد توفيق: ٧٨، ٨٤، ١٠٢، دارالسلام - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٤٥- جامع البيان: ١٨٩/١

٤٦- مفاتيح الغيب: ١٦٥/٢

٤٧- تفسير القرآن العظيم: ٦٨/١

٤٨- فتح القدير: ٤٨٤/٤

٤٩- الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٩/١

خلاف بين العلم والدين.

فالنطفة المذكرة وهي الحيوان المنوي يتم تكوينها في الخصية وهي مكونة من مجموعة من الفصوص في كل فص ثلاث قنوات منوية صغيرة تتولد فيها النطف، وتتكون من جدارها[٥٠].

كما أن النطفة المؤنثة وهي البويضة يتم تكوينها في المبيض، الذي يحتوي على أجسام كروية مختلفة الأحجام، متفاوتة في درجة نموها، وتعرف بالحويصلات المبيضية، وتحتوي كل حويصلة على بويضة واحدة، وينمو في كل شهر حويصلة واحدة، فتخرج بويضة واحدة مرة في الشهر[٥١].

وكل من الخصية والمبيض يعتمدان في نموهما وتغذيتهما، وإمدادهما بالدماء والأعصاب على الشرايين المحيطة بهما والتي تتفرع من الشريان الأورطي[٥٢].

ومعلوم أن مصدر الدماء هو الغذاء، فكيف تحولت هذه الأغذية التي لا حياة فيها، إلى دماء تكونت منها هذه النطف الحية؟

هذا هو المراد من إحياء النطفة، وهو إيجادها حية من مواد ميتة.

يقول ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ..﴾: إن الإنسان مركب من أشياء موصوفة بالموت أي لا حياة فيه، إذ كان قد أخذ من العناصر المتفرقة في الهواء والأرض، فجمعت في الغذاء وهو موجود ثان ميت، ثم استخلصت منه الأمزجة من الدم وغيره وهي ميتة، ثم استخلص منه النطفتان للذكر والأنثى، ثم امتزج فصار علقة ثم مضغة، كل هذه أطوار أولية لوجود الإنسان وهي موجودات ميتة"[٥٣].

والله تعالى أعلم بالصواب.

٥٠- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن د. محمد البار: ٢٧-٣٠

٥١- انظر: المرجع السابق: ٣٦-٣٧

٥٢- انظر: المرجع السابق: ١٢٠-١٢١

٥٣- التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/٣٧٥

المطلب الثاني: إخراج الحي من الميت

يقول تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[٥٦].

لوعدنا إلى أقوال السلف والمفسرين في المراد بالحي والميت في الآيات السابقة لوجدنا أن مجمل كلامهم يدور حول قولين:

القول الأول: حمل هذين اللفظين على الحقيقة، وعلى هذا القول فهو يحتمل وجهين:

الوجه الأول: يخرج الشيء الحي من النطفة الميتة ويخرج النطفة الميتة من الشيء الحي، واستدلوا على ذلك بما روي عن ابن عباس قوله: "يخرج من النطفة بشرا حيا ثم يخرج من البشر الحي نطفة ميتة"[٥٧].

وما روي عن ابن مسعود في معنى الآية قوله: "هي النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ويخرج الرجل منها حيا وهي ميتة"[٥٨].

وقول مجاهد: الناس الأحياء من النطف، والنطف ميتة من الناس الأحياء[٥٩].

٥٤- سورة آل عمران، الآية: ٢٧

٥٥- سورة الأنعام، الآية: ٩٥

٥٦- سورة يونس، الآية: ٣١

٥٧- انظر: جامع البيان للطبري: ٢٨٢/٧؛ والدر المنثور للسيوطي: ١٧٣/٢؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٩٧/١٣

٥٨- جامع البيان للطبري: ٢٢٤/٣

٥٩- جامع البيان للطبري: ٢٢٤/٣؛ والدر المنثور للسيوطي: ١٧٣/٢

الوجه الثاني: يخرج الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة، ويخرج البيضة وهي ميتة من الدجاجة وهي حية[٦٠].

القول الثاني: حمل هذين اللفظين على المعنى المجازي، وهذا القول يحتمل أيضا وجهين:

الوجه الأول: إخراج النبات الغض الطري الخضر من الحب اليابس، وإخراج الحب اليابس من النبات الحي النامي، فيخرج النخلة من النواة ويخرج النواة من النخلة، ويخرج السنبلة من الحبة ويخرج الحبة من السنبلة[٦١].

الوجه الثاني: إخراج المؤمن وهو حي الفؤاد من الكافر وهو ميت الفؤاد، كما في حق إبراهيم عليه السلام، وإخراج الكافر من المؤمن كما في حق ابن نوح عليه السلام[٦٢].

غير أن مذهب الجمهور، هو حمل كل من الموت والحياة في الآيات على الحقيقة لا على المجاز[٦٣].

وأرى أن الراجح هو ما رجحه الطبري أن المراد بهما إخراج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميتة، وإخراج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم.

أما استعمال لفظي الحي والميت بشأن الحَبِّ والسنابل، أو البيض والدجاج أو المؤمن والكافر، فليس هذا هو الأغلب الظاهر في الاستعمال بين الناس، بل الأغلب

٦٠- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣/٩٧؛ جامع البيان للطبري: ٣/٢٢٤؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣٥٧

٦١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٣/٩٧؛ والدر المنثور للسيوطي: ٢/١٧٣؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/٣٥٧

٦٢- انظر: جامع البيان للطبري: ٣/٢٢٤؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ١٣/١٩٧؛ والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي: ١/٢٥٥؛ وفتح القدير للشوكاني: ١/٣٣٠

٦٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي: ١/٢٥٥

هو استعمال الحي والميت في الإنسان الحي والنطفة الميتة، وتوجيه معاني كتاب الله إلى الظاهر المستعمل في كلام الناس أولى من توجيهها إلى الخفي القليل في الاستعمال(٦٤).

وهذا لا يمنع من كون الآية عامة، يدخل في عمومها كل حي أخرجه الله من جسم ميت، وكل ميت أخرجه الله من جسم حي.

والمراد من موت النطفة هو مفارقتها للجسد إذ أن كل حي فارقه شيء من جسده، فذلك الجزء الذي فارقه منه ميت، فالنطفة ميتة لأنها فارقت جسد من خرجت منه، وكذلك حكم كل شيء حي زايله وفارقه شيء منه فهو ميت.

ويدل على هذا قراءة عاصم(٦٥) ونافع(٦٦) والكسائي(٦٧) وحمزة(٦٨): الميّت

٦٤- انظر: جامع البيان للطبري: ٣/٢٢٦

٦٥- هو عاصم بن أبي النجود الأسدي مولاهم، الكوفي، القاري، أحد القراء السبعة، قرأ القرآن على أبي عبدالرحمن السلمي وزر بن حبيش الأسدي وحدث عنهما، تصدى لإقراء كتاب الله تعالى، إليه انتهت الإمامة في القراءة بالكوفة بعد شيخه أبي عبدالرحمن، توفي سنة سبع وعشرين ومائة، (انظر: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، محمد بن أحمد الذهبي: ١/٨٨-٩٤، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: بشار معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي).

٦٦- هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم الليثي مولاهم، أحد الأعلام، أصله من أصبهان، قرأ على طائفة من تابعي أهل المدينة، وكان يقول: قرأت على سبعين من التابعين، وأقرأ الناس دهرا طويلا، كان إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فلما سئل قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ في فيّ، فمن ذلك الوقت أشم من فيّ هذه الرائحة، كان صاحب دعابة وطيب أخلاق، مات سنة تسع وستين ومائة، (انظر: مشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي: ١/١٤١، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٩٥٩م، تحقيق: م. فلا يشهمر؛ ومعرفة القراء الكبار للذهبي: ١/١٠٧-١١١)

٦٧- هو علي بن حمزة أبوالحسن الكسائي الأزدي مولاهم ولد سنة عشرين ومائة، سمع من جعفر الصادق والأعمش، وقرأ القرآن وجوده على حمزة الزيات واختار لنفسه قراءة ورحل إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد، كتب الكثير من اللغات والغريب عن الأعراب، وكان عالما بالقراءات، قال فيه يحيى بن معين: ما رأيت بعيني أصدق لهجة من

بتشديد الياء، الذي يشمل ما قد مات وما سيموت، بمعنى: أن الله يخرج الشيء - الحي من الشيء الذي قد مات، ومن الشيء الذي لم يمت. وهذه القراءة أعم- في لغة العرب من قراءة (الميت) الذي لا يطلق إلا على ما قد مات فعلا[٦٩].

وإذا عرفنا من قبل أن النطفة -سواء أكانت حيوان منوي أو بويضة- عبارة عن خلية حية تتصف بالحياة والحركة، أدركنا أن المراد من موت النطفة هنا ليس هو عدم اتصافها بالحياة وإنما هو مفارقتها لجسد صاحبها مع حفاظها على حياتها وتمتعها بالقدرة على الحركة والانتقال.

والله تعالى أعلم بالصواب.

الكسائي.

له من التصانيف كتاب"معاني القرآن"، "القراءات"، توفي بالري بقرية أرنبوية، سنة تسع وثمانين ومائة. (انظر: التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل البخاري: ٢٦٨/٦، دارالفكر (بدون تاريخ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي؛ والكنى والأسماء لمسلم بن الحجاج: ٢١٨/١، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، تحقيق: عبدالرحيم محمد القشقري؛ ومعرفة القراء الكبار للذهبي: ١٢٠/١-١٢٩).

٦٨- هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل التميمي الزيات، أحد القراء السبعة، ولد سنة ثمانين، وأدرك الصحابة بالسن فلعله رأى بعضهم تصدر للإقراء مدة، وقرأ عليه عدد كثير، كان إمام حجة، قيما بكتاب الله تعالى، حافظا للحديث، بصيرا بالفرائض والعربية، عابدا، خاشعا، قانتا، كان يجلب الزيت من العراق إلى حلوان، ويجلب من حلوان الجوز والجبن إلى الكوفة. مات سنة ست وخمسين ومائة. (انظر: الثقات لمحمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: ٢٢٨/٦، دارالفكر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد؛ ومعرفة القراء الكبار للذهبي: ١٠٩/١-١١٥).

٦٩- انظر: جامع البيان للطبري: ٢٢٦/٣-٢٢٧

المطلب الثالث: مراحل تكوين الجنين:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ...﴾(٧٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(٧١).

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا...﴾(٧٢).

وبنظرة تأمل لهذه الآيات نجد أنها قد استعرضت مراحل خلق الإنسان في شريط متكامل يبدأ من الطين ثم إلى النطفة ثم إلى العلقة، فالمضغة فالعظام ثم المراحل الأخرى التي تتشكل فيها جميع أعضاء الجسم.

المرحلة الأولى هي خلق الإنسان من تراب، قيل المراد بها أنه خلقهم من تراب في ضمن خلق أبيهم آدم عليه السلام منه.

وقيل أن كل إنسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني مخلوق من الدم، والدم إنما يتولد من الأغذية التي تأتي من النبات، والنبات إنما يكون من التراب، فثبت أن كل إنسان يتكون من التراب(٧٣).

وفي تفسير قوله: ﴿مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ يقول ابن عاشور: "وهذه السلالة هي ما يفرز جهاز الهضم من الغذاء حيث يصير دما، فدم الذكر حين يمر على غدتي

٧٠- سورة الحج، الآية: ٥

٧١- سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٤

٧٢- سورة غافر، الآية: ٦٧

٧٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٨٦/٢٧؛ وروح المعاني للألوسي: ١١٦/١٧.

التناسل (الأنثيين) تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية، تحتفظ بها وهي التي تتحول إلى مني حين حركة الجماع، وهي مخرجه من الطين لأنها من الأغذية التي أصلها من الأرض.

ودم المرأة إذا مر على قناة في الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة، ومن اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون الجنين، فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين[٧٤].

ثم مرحلة النطفة، وهي اسم لمني الرجل، والنطف: الفطر والصب، والنطفة القطرة، يقال: نطف ينطف أي قطر[٧٥].

وهذا التخصيص لماء الرجل لا يدل على أن الإنسان مخلوق من ماء الرجل فقط.

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٧٦].

أي خلقنا ذرية آدم من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، قال ابن عباس: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾، يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، ومن حال إلى حال، ومن لون إلى لون"[٧٧]. قال الراغب " من نطفة امشاج نبتليه، أي: أخلاط من الدم وذلك عبارة عما جعله الله تعالى بالنطفة من القوى المختلفة" {المفردات:٧٦٩}

وبعد أن يتم تلقيح البويضة، تأتي مرحلة العلقة، وهي كما فسرها بعض المفسرين القدامى عبارة عن قطعة من الدم الجامد[٧٨].قال الراغب " العلق من الدم

٧٤- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٢/١٨

٧٥- انظر: فتح القدير للشوكاني: ٤٣٦/٣؛ وروح المعاني، للآلوسي: ١١٦/١٧

٧٦- سورة الإنسان، الآية: ٢

٧٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٥٤/٤

٧٨- انظر: الكشاف للزمخشري: ١٤٤/٣؛ وفتح القدير للشوكاني: ٤٣٦/٣؛

الجامد" {المفردات: ٧٦٩}.

وقد أثبت العلم الحديث أن العلقة هي المرحلة التي تلي تكون النطفة الأمشاج، وتبدأ منذ تعلقها بالرحم، حيث تنشب هذه النطفة الأمشاج وتعلق في جدار الـرحم، وتتغرز فيه، وتكون محاطة بالدم المتجمد من كل جهاتها[٧٩]. ومن هنا ندرك السبب في تعريف المفسرين القدامى للعلقة بأنها الدم المتجمد.

ولو رجعنا للمعنى اللغوي للفظ العلقة لوجدنا أنها تؤيد ذلك، فهي مشتقة مـن الفعل (علق)، وعلِقَ بالشيء علقا وعَلِقَهُ: نشب فيه، والعَلَق: النشوب في الشيء[٨٠].

فلفظ العلقة يطلق على كل ما ينشب ويعلق، وكذلك تفعل العلقـة إذ تنـشب وتعلق في جدار الرحم وتتغرز فيه.

يقول ابن عاشور: "ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية هذا الكائن باسم العلقة، فإنه وضع بديع لهذا الاسم، إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم، بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم[٨١].

ثم تأتي مرحلة المضغة، وهي القطعة الصغيرة من اللحم، مقدار اللقمة التـي تمضغ[٨٢].

ففي هذه المرحلة تبدأ البدايات الأولى للأعضاء المهمة في الظهـور، وهـذه البداية في التكوين العضوي، تبدأ على شكل كتل لحمية صغيرة، تكون هي الأساس

وروح المعاني للألوسي: ١١٦/١٧

٧٩- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد البار: ٢٠٢-٢٠٤؛ ودليل الأنفـس بـين القرآن الكريم والعلم الحديث، محمد توفيق: ١١٢-١١٤

٨٠- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٢٦١/١٠؛ والمصباح المنير للفيومي: ٤٢٥/٢

٨١- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٤/١٨

٨٢- انظر: الكشاف للزمخشري: ١٤٤/٣؛ وفتح القدير للشوكاني: ٤٣٦/٣؛ وروح العاني للألوسي: ١١٦/١٧

الذي يقوم عليه الجهاز الهيكلي والعضلي.

وعندما تظهر هذه الكتل يبدو الجنين فعلا مضغة صغيرة، والنقط الأولى لبداية الفقرات والأطراف كأنها مواضع الأسنان في لحم ممضوغ[٨٣].

ثم مرحلة تكوين العظام واللحم، حيث تتحول تلك الكتل البدنية إلى عظام وعضلات، فكل كتلة بدنية تتكون لها قطعتان: هيكلية التي تكون الغضروف والعظم، وعضلية التي تكون العضلات والجلد، ويستمر نمو العظام والعضلات والجلد والأعضاء الداخلية شيئا فشيئا إلى أن يكتمل نموها في نهاية الشهر الثالث[٨٤].

يقول ابن عاشور: "وخلق المضغة عظاما، هو تكوين العظام في داخل تلك المضغة، وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني من عظم ولحم"[٨٥].

ثم تكون المرحلة النهائية بنفخ الروح فيه، وبذلك يتهيأ الجنين للحياة.

يقول الطبري في تفسير قوله ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بذلك نفخ الروح فيه، وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول إنسانا، وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها، من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، وبنفخ الروح فيه، يتحول عن تلك المعاني كلها إلى معنى الإنسانية"[٨٦].

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني نفخنا فيه الروح[٨٧].

٨٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار: ٢٤٣-٢٤٧؛ ودليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، محمد توفيق: ١١٨-١١٩.

٨٤- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار: ٢٧٧-٢٨٧، دليل الأنفس بين القرآن والعلم الحديث، محمد توفيق: ١٢١-١٢٢

٨٥- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٤/١٨

٨٦- جامع البيان للطبري: ١١/١٨

٨٧- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٤٢/٣

وقد ورد العديد من الأحاديث النبوية، التي تبين مراحل الخلق والتكوين التي يمر بها الجنين في بطن أمه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح..." (٨٨).

قال الإمام ان حجر في شرحه : قال بعض الأطباء إن المني إذا حصل في الرحم حصل له زبدة ورغوة في ستة أيام.من غير استمداد من الرحم ثم يتسمد من الرحم، ويبتدئ في الخطوط بعد ثلاثة أيام أو نحوها، ثم في الخامس عشر ينفذ الدم إلى الجميع، فيصير علقة، ثم تتميز الاعضاء وتمتد رطوبة النخاع وينفصل الرأس عن المكنبين ولأطراف عن الأصابع تميزاً يظهر في بعض وينتهي ذلك إلى ثلاثين يوماً في الأقل وخمسة وأربعين في الأكثر٨٩.

كما شرح لنا ابن القيم ما يحدث في هذه الأربعين فقال: إن داخل الرحم خشن كالاسفنج وجعل فيه قبولاً للمني كطلب الأرض العطشى للماء فجعله طالبا مشتقاً إليه بالطبع فلذلك يمسكة ولا يزلقه بل ينضم عليه لئلا يفسده الهواء، فيأذن الله لملك الرحم في عقده وطنجه أربعين يوماً وفي تلك الأربعين - يجمع خلقه. قالو : إن المني إذا اشتمل عليه الرحم ولم يقذفه استدار على نفسه واشتد إلى تمام ستة الأيام فينقط فيه ثلاث نقط في مواضع القلب والدماغ والكبد ثم يظهر فيما بين تلك النقط خطوط خمسة إلى تمام ثلاثة أيام ثم تنفذ الدموية فيه إلى تمام خمسة عشرة يوماً فتتميز الاعضاء الثلاثة ثم تتمد رطوبة النخاع إلى تمام خمسة عشر يوماً ثم ينفصل الرأس عن المكنبين بحيث يظهر للحس في أربعة أيام، فيكمل أربعين يوماً" فهذا

٨٨- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب القدر: ٦/٢٤٣٣، حديث رقم: ٦٢٢١

٨٩ - فتح الباري لابن حجر: ١١/٤٨٥

معنى قوله صلى الله عليه وسلم: " يجمع خلقة في أربعبن يوماً" وفيه تفصيل ما أجمل"[٩٠].

مما تقدم من شروح أئمة علماء الحديث لهذا الشخص يتضخ لنا أن الجنين يجمع خلقه في أربعين يوماً. ومما يؤيد ذلك رواية مسلم الحديث هكذا: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات....."[٩١].

وقد أكد الطب الحديث صحة هذا القول، فمن خلال تحديد فترة كل مرحلة نجد أن هناك توافقاً بين ما ذكره علماؤنا السابقون وما أثبته العلم الحديث.

فمرحلة النطفة المقصود بها الخلية الأولى،التي تنشأ من تلقيح الحيوان المنوي للبويضة ثم تبدأ بعد ذلك بالانقسام وهي في طريقها إلى الرحم، ومن أن تصله حتى تكون قد انقسمت ما يقرب من خمسين أنقساماً أو أكثر وتستغرق هذه المرحلة حوالي ستة أيام"[٩٢].

وأما مرحلة العلقة فتبدأ في اليوم السابع تقريباً، وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تقريباً، أي تنتهي في نهاية الأسبوع الثالث"[٩٣].

وأما مرحلة المضغة فتبدأ في نهاية الأسبوع الثالث وربما في بداية الرابع[٩٤].

وأما مرحلة العظام فتظهر بداية الفقرات في الأسبوع السادس وتظهر باية العضلات التي تكسو الأطراف في الاسبوع السابع[٩٥].

٩٠- التباين في أقسام القرآن لابن القيم: ٣٣٧

٩١- أخرجه البخاري في صحيحه٤/٢٤٣٣، كتاب القدر، الباب الأول،: حديث رقم: ٢٦٤٣

٩٢- خلق الإنسان بن الطب والقرآن: ٢٠٠.

٩٣- أنظر المرجع السابق: ٣٦٧

٩٤- انظر المرجع السابق: ٢٣٩، ٢٤٧

٩٥- أنظر المرجع السابق: ٢٥٦، ٣٥٣، ٣٧٠

أما مرحلة اللحم فتبدأ بعد المرحلة السابقة ببضعة أيام وغالباً تظهر بداية العضلات التي تكسو الفقرات في الأسبوع السادس وتظهر بداية العضلات التي تكسو الأطراف في الأسبوع السابع[96].

ويكون تخليق الأعضاء في أوج نشاطه في الأسبوع السادس، أما بعد الأسبوع الثامن فتصبح التبدلات قليلة وبطيئة بينما تزداد سرعة النمو في الحجم والوزن كثيرا.

فمرحلة النطفة والعلقة والمضغة والعظام العضلات كلها تكون في الأربعين الأولى، أما نفخ الروح في الجنين فيكون بعد الأربعين.

المطلب الرابع :الاستدلال على الإحياء في الآخرة

إن المتأمل لآيات خلق الإنسان، وإيجاده من العدم، يجد أن الكثير منها قد ربط بين خلقه وبعثه، وقد جعل سبحانه وتعالى الآيات العجيبة في خلق الإنسان وأطواره التي يمر بها من النطفة إلى العلقة من المضغة إلى العظام وكسوها باللحم، هي أحد الأدلة الباهرة على البعث والنشور، وإعادة الخلق وإحيائهم في الآخرة.

ومن الآيات التي استعرضت مراحل خلق الإنسان، بدءا من مرحلة الطين فمراحل الخلق فالموت ثم البعث والنشور:

قوله تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ...﴾**، إلى أن قال: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾**[97].

فقد ذكر سبحانه وتعالى الدليل على قدرته على المعاد بما يشاهد من بدئه

٩٦- انظر المرجع السابق: ٣٧٨، ٣٧٩

٩٧-سورة الحج، الآية: ٥-٧

للخلق.

أي إن ارتبتم في قدرتنا على البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم وانتقالكم من حال إلى حال، ففكروا بذلك واعتبروا لتعلموا أن إعادتكم بعد الموت هو نظير نشأتكم الأولى في الإمكان والوقوع فكيف تتكرون إحدى النشأتين مع مشاهدتكم لنظيرها[٩٨].

وقوله تعالى: "لنبين لكم" أي لنبين لكم بهذا التدريج، قدرتنا وحكمتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ثم من نطفة ثانيا، وقدر على أن يجعل النطفة علقة، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاما، قدر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة من تلك وأهون في القياس.

والبعث في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة، ولكنه بالقياس إلى قدرة الله، لا شيء أيسر ولا شيء اصعب، فالبدء كالإعادة ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر هذا الشيء المشهود والمعهود لهم، وهو يقع لهم في كل لحظة[٩٩].

ثم يأتي موضع الاستدلال، بقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾**.

وهو كلام مستأنف جيء به إثر تحقيق حقية البعث، وإقامة البرهان عليه، لبيان أن ذلك من آثار ألوهيته تعالى، وأن ما ينكرون وجوده وإمكانه من إتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الأنفس والآفاق[١٠٠].

٩٨- انظر: الكشاف للزمخشري: ١٤٤/٣؛ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٠٧/٣؛ وجامع البيان للطبري: ١٢٠/١٧؛ وإعلام الموقعين لابن القيم: ١٣٩/١.

٩٩- انظر: الكشاف للزمخشري: ١٤٤/٣، في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٤٠٩/٤

١٠٠- انظر: روح المعاني للألوسي: ١١٩/١٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي: ٩٥/٦

ويرى الأستاذ سيد قطب أن هذه الآيات تدل على البعث بطريقة أخرى، فيقول: إن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور، لتشير إلى أن إرادة الله وتدبيره لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، ولابد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان.

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدل على البعث لأن إرادة الله وتدبيره تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة(١٠١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(١٠٢).

يلاحظ أن الآيات قد أكدت أمر الموت بثلاث تأكيدات، ولم يبالغ في تأكيد أمر البعث، اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد، من خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقا آخر، فإن في ذلك أول دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته(١٠٣).

ويقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(١٠٤).

فقوله ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ علة وبيان للإنكار، مسوق للاستدلال

١٠١- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب: ٢٤١١/٤

١٠٢- سورة المؤمنون، الآيات: ١٢-١٦

١٠٣- انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٢٩٩/٦؛ وروح المعاني للآلوسي: ١٧/١٨

١٠٤- سورة القيامة، الآيات: ٣٦-٤٠

بقوله ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ...﴾ الذي جعل تكريرا وتأييدا لمضمون قولـــه ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي أن خلق الإنسان من مادة ضـــعيفة وتدرجـــه فـــي أطوار كيانه دليل على إثبات القدرة على إنشائه إنشاءا ثانيا، بعد تفـــرق أجزائـــه واضمحلالها.

فمعنى الكلام: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، ألم نبدأ خلقه إذ كوّنـــاه نطفة، ثم تطور خلقه أطوارا فماذا يعجزنا أن نعيد خلقه ثانيا كذلك[١٠٥].

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ واقعة موقع النتيجـــة مـــن الدليل، لأن خلق جسم الإنسان من عدم وهو أمر ثابت بضرورة المـــشاهدة، أحـــق بالاستبعاد من إعادة الحياة إلى الجسم بعد الموت، سواء بقي الجسم غير ناقص أو نقص بعضه أو معظمه، فهو بث الحياة، وإعادة ما في أجزائه أقرب مـــن إيجـــاد الجسم من عدم.

فموضع الدلالة هو قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أي أليس ذلك العظيم الشأن الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر علـــى أن يعيده كما بدأه، وأن يحيي الموتى من قبورهم ويعيدهم كما كانوا قبل مماتهم؟!

إن الذي فعل هذا بالإنسان أول مرة، قادر على أن يفعله به مرة أخرى[١٠٦].

فإحياء الإنسان وإيجاده من العدم بعد أن لم يكن شيئا مذكورا، دليل واضـــح على إمكان البعث وإحياء الأجساد بعد موتها يوم القيامة، فمن لم يعجزه هذا وقـــدر عليه، فهو قادر من باب أولى على الإعادة.

وسأقتصر على هذه الآيات التي ذكرتها خوف الإطالة.

والله تعالى الموفق للصواب.

١٠٥- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٦٦/٢٩

١٠٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٥٣/٤؛ وروح المعاني للآلوسي: ١٥٠/٢٩؛ وجامع البيان للطبري: ٢٠١/٢٩

المبحث الثالث: الإحياء بالقيام من النوم

المطلب الأول : تعريف النوم والوفاة والعلاقة بينهما

أولا: تعريف النوم

أ- النوم لغة:

مأخوذ من نام ينام نوما ونياما، فهو نائم، وجمعه نيام[١٠٧].

والنوم معروف قال ابن سيده: النوم النعاس[١٠٨].

وفي القاموس المحيط: النوم: النعاس أو الرقاد[١٠٩].

ب - النوم اصطلاحا:

ورد في تعريف النوم عدة تعريفات، أذكر منها:

١- **النوم**: حالة تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ، بحيث تقف المشاعر الظاهرة عن الإحساس رأسا[١١٠].

٢- أنه استرخاء أعضاء الدماغ، حتى يفقد معه العقل بل وجميع الإدراكات سائر المشاعر[١١١].

٣- أنه حالة طبيعية تتعطل معها القوى بسبب ترقي البخارات إلى الدماغ[١١٢].

٤- غشية ثقيلة تهجم على القلب، فتقطعه عن المعرفة بالأشياء، ولهذا قيل هو آفة

١٠٧- انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٢/٥٩٥؛ ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١/٢٨٥

١٠٨- لسان العرب لابن منظور: ١٢/٥٩٥

١٠٩- القاموس المحيط للفيروزآبادي: ١/١٥٠٣

١١٠- إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ١/٢٤٨

١١١- فتح القدير للشوكاني: ١/٢٧١

١١٢- انظر: التعريفات للجرجاني: ١/٣١٨، دارالكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، تحقيق إبراهيم الأبياري. والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ١/٧١٣

لأن النوم أخو الموت[١١٣].

٥- حالة عارضة للحيوان يعجز فيها عن الاحساسات والحركات الغير ضرورية والغير إرادية[١١٤].

ولو تأملنا هذه التعريفات، لوجدنا أنها قد تضافرت على أن النوم حالة يتعرض لها كل حي، تقف فيها المشاعر الظاهرة عن الإحساس، ويفقد خلالها القوة، والقدرة على الإدراك والمعرفة.

هذا ما يمكن أن يقال في تعريف النوم أما حقيقته؟ وماذا يحدث للروح؟ وهل تفارق الجسد عند النوم أم لا؟ فهذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تبارك وتعالى.

يقول سيد قطب: "وهو -أي النوم- السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث، وإن عرفوا ظواهره وآثاره، وهو "الغيب" في صورة من صوره الكثيرة المحيطة بالإنسان"[١١٥].

ثانيا: تعريف الوفاة

أ - الوفاة لغة:

"الوفاة" مصدر مشتق من "وفى" بمعنى تم وكثر، وَفَى الشيء يفي وُفِيا أي تم وكثر.

وتَوَفّى الميت: استيفاء مدته التي وفيت له، وعدد أيامه وشهوره وأعوامه في الدنيا[١١٦].

أو هو مأخوذ من "الوفاء"، بمعنى أداء الحق، فالوفاة استخلاص الحق من

١١٣- المصباح المنير للفيومي: ٦٣١/٢

١١٤- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ١٣٩٨/٣، دارصادر - بيروت، (بدون تاريخ).

١١٥- في ظلال القرآن: ١١٢١/٢

١١٦- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٠٠/١٥؛ ومختار الصحاح لابن أبي بكر الرازي: ٣٠٤/١

حيث وضع، فالله أودع الروح في الجسد، ليستوفيها بعد أجل من حيث أودعها، فكان ذلك توفيا[١١٧].

ب - الوفاة اصطلاحا:

التوفي: استيفاء الشيء، وتُوفّي الميت: استوفى عدد أيام عمره.

والوفاة: المنية أو الموت، وتوفي فلان وتوفاه الله إذا قبض روحه.

والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة[١١٨].

فالمتوفي يكون قد وفّى وأتم العمر والأجل الذي قدره الله له في هذه الدنيا.

كما أنه عز وجل قد أودع الروح في الجسد، فإذا توفاها يكون قد استخلص الحق من حيث أودعها.

ثالثا: العلاقة بين النوم والوفاة

حالة النوم واليقظة التي تتعاقب على الإنسان كل يوم، تدل على أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن هناك بعثا لجميع الخلق، يحاسبون فيه على أعمالهم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ورغم أن النائم حي في جميع الأحوال، فإطلاق لفظ "التوفي" عليه، يدل على وجود صلة وعلاقة ورابط، يجمع بين كل من النوم والوفاة، حتى جاز إطلاق لفظ "التوفي" المختص بالموت على النوم.

ولعل الرابط الأساس الذي ذكره العديد من المفسرين، هو زوال الإحساس والتمييز، وحصول الآفة بهما.

ولأن في النوم والوفاة انقطاع عن الإدراك والعمل[١١٩]. لذلك استعير التوفي

١١٧- انظر: التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ١/ ٧٣٠

١١٨- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧/ ٥؛ وزاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٣٩٦

من الموت للنوم.

"فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس، هي الوفاة في صورة من صورها بما يعتري الحواس من غفلة، وما يعتري الحس من سهوة، وما يعتري العقل من سكون، وما يعتري الوعي من سبات -أي انقطاع-"[١٢٠].

وقد ذكر الرازي وجها آخر يشترك فيه كل من النوم والموت أو الوفاة، فالجسد عند النوم يكون معطلا في الظاهر عن بعض الأعمال، بينما عند الموت يكون جملة البدن معطلا عن كل الأعمال، ويقول أن النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء، ففي وقت النوم ينقطع تعلقه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه، ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن، مما يدل على أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام كامل، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، فحصل بين النوم والموت مشابهة من هذا الاعتبار، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه[١٢١].

وقد جاءت الأحاديث النبوية موافقة ومؤيدة لهذا المعنى، فقد ربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين النوم والموت. عندما سئل صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله! أينام أهل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون"[١٢٢].

كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة في النوم والاستيقاظ

١١٩- انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ١٤٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي: ٤١٦/٢؛ فتح القدير للشوكاني: ٤٦٥/٤؛ والجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري: ٣٧/٤؛ ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، الطبعة الثانية، ١٣٠٥هـ.

١٢٠- في ظلال القرآن لسيد قطب: ١١٢١/٢

١٢١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ١٢/١٣، ٢٨٤/٢٦

١٢٢- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٤١٥/١٠، وقال: رواه الطبراني في الأوسط والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح.

عبر فيها النبي عليه الصلاة والسلام عن النوم والاستيقاظ بالموت والإحياء، لما بينهما من تشابه.

منها ما رواه حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: "باسمك اللهم أموت وأحيا" وإذا قام قال: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"[١٢٣].

المطلب الثاني: تعريف النفس والروح، وهل هما شيء واحد أم لا؟

أولا: تعريف النفس

أ - النفس لغة:

النفس: الروح[١٢٤] الذي به حياة الجسد، وجمعها نفوس، يقال خرجت نفسه أي روحه[١٢٥].

وسميت النفس نفسا، لتولد النَّفَس منها، واتصاله بها.

قال الزجاج: لكل إنسان نفسان: إحداهما نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها، والأخرى نفس الحياة وإذا زالت زال معها[١٢٦].

ب - النفس اصطلاحا:

ورد في تعريف النفس عدة تعريفات، منها:

١- النفس هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة

١٢٣- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام: ٥/٢٣٢٦، حديث رقم: ٥٩٥٣

١٢٤- وردت للنفس معان لغوية عديدة، اقتصرت على هذا المعنى لأنه الذي يعنينا في هذا المقام.

١٢٥- انظر: مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي: ١/٢٨٠؛ والعين للخليل بن أحمد: ٧/٢٧٠؛ والمصباح المنير للفيومي: ٢/٦١٧

١٢٦- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٦/٢٣٣

الإرادية، فهي جوهر مشرق للبدن، عند الموت ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن وباطنه، وأما في وقت النوم فينقطع عن ظاهر البدن دون باطنه[127].

٢- أنها عبارة عن بخار ضبابي منبعث من باطن القلب الصنوبري، حامل لقوة الحياة[128].

فكلا التعريفين قد بينا أن النفس تضفي على البدن الحياة والحس والحركة.

وإذا انقطع ضوؤها عن ظاهر البدن دون باطنه فهو النوم وإذا انقطع عن ظاهره وباطنه فهو الموت.

ثانيا: تعريف الروح

أ - الروح لغة:

الروح: النفس التي يحيا بها البدن، يقال خرجت روحه أي نفسه.

وهو يذكر ويؤنث، والجمع أرواح، وتأويل الروح أنه ما به حياة النفس[129].

قال ابن الأثير[130]: وقد تكرر ذكر الروح في الحديث، كما تكرر في القرآن، ووردت فيه على معا، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة[131].

١٢٧- انظر: مفاتيح الغيب للرازي: ٢٨٤/٢٦؛ والتعريفات للجرجاني: ٤١٢/١؛ والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ٧٠٥/١

١٢٨- روح المعاني للآلوسي: ١٥٨/١٥

١٢٩- انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤٦٣/٢؛ والعين للخيل بن أحمد: ٢٩١/٣

١٣٠- ابن الأثير: هو عز الدين أبوالحسن علي بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الجزري الشيباني، مصنف التاريخ الكبير الملقب بالكامل، ومصنف كتاب معرفة الصحابة، مولده بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وخمسين ونشأ بها، ثم تحول إلى الموصل فسمع بها واشتغل وبرع وساد، كان إماما علامة، أخباريا أديبا، أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالا تاما. توفي سنة ثلاثين وست مائة. (انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٥٣/٢٢-٣٥٦، طبقات الحفاظ للسيوطي: ٤٩٥/١).

١٣١- لسان العرب لابن منظور: ٤٦٣/٢

ب - الروح اصطلاحا:

ذكر العلماء عدة تعريفات للروح منها:

١- الروح هي النفس الناطقة، المستعدة للبيان وفهم الخطاب، لا تفنى بفناء الجسد، وأنها جوهر لا عرض، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١٣٢) والمراد أرواحهم(١٣٣).

٢- جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم(١٣٤).

٣- أن الروح هي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، تعجز العقول عن إدراك كنهها(١٣٥).

ومن هذه التعريفات ندرك أن للروح خصائص عديدة، فهي لطيفة عالمة ومدركة، وهي مستعدة للبيان وفهم الخطاب، وهي لا تفني بفناء الإنسان، وهي ملازمة للجسد، وهي قبل هذا وذاك "غيب" تعجز العقول عن إدراك كنهها وحقيقتها.

يقول التهانوي(١٣٦): "وهي -أي الروح- مما لا نعلم حقيقته، ولا يصح وصفه، وهو مما جهل العباد بعلمه مع التيقن بوجوده بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ(١٣٧) قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(١٣٨)(١٣٩).

١٣٢- سورة آل عمران، الآية: ١٦٩

١٣٣- المصباح المنير للفيومي: ٢٤٦/١

١٣٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٤/١٠

١٣٥- التعريفات للجرجاني: ١٥٠/١، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: ٣٧٧/١

١٣٦- هو محمد بن علي، ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي، باحث هندي له كشاف اصطلاحات الفنون، وسبق الغايات في نسق الآيات، (الأعلام للزركلي ١٨٨/٧).

١٣٧- اختلف الناس في الروح المسؤول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن، الذي تكون به حياته وبهذا قال أكثر المفسرين. قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان، لم يخبر الله سبحانه به أحدا من خلقه، ولم يعط علمه أحدا من عباده، فقال: "قل الروح من أمر ربي" أي أنكم لا تعلمونه، وقيل الروح المسؤول عنه جبريل وقيل القرآن وقيل ملك من الملائكة

ثالثا: هل الروح والنفس شيء واحد ؟

اختلف الناس في الروح والنفس، هل هما شيء واحد، أم شيئان متغايران.

فذهب بعض الصوفية إلى أنهما شيئان متغايران، فالروح هو النَفَس المتردد في الإنسان، والنَفْس أمر غير ذلك، فهي التي تلتذ وتتألم وتفرح وتحزن، وهي التي تتوفى في المنام، وتبقى الروح بالجسد وحدها.

وقالوا أن للإنسان نفس وروح، بينهما مثل شعاع الشمس فالنَفْس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النَفَس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نَفْسه ولم يقبض روحه(١٤٠).

بينما رفض البعض الخوض في هذه المسألة، وآثر السكوت والإمساك عن القول بشيء فيها، اقتداء بالسلف الصالح، يقول ابن الجوزي: "اختلف الناس في النفس والروح هل هما شيء واحد، أم هما شيئان، فلا يحتاج إلى ذكر اختلافهم، لأنه لا برهان على شيء من ذلك، وإنما هو شيء أخذوه عن الطب والفلاسفة، فأما السلف فإنهم أمسكوا عن ذلك والوحي ينزل، والرسول حي، علموا أن السكوت عما لم يحيطوا بحقيقة علمه أولى"(١٤١).

ويرى ابن القيم أن النفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد غير أنه فرق

عظيم الخلق وقيل غير ذلك من الأقوال، (انظر: جامع البيان للطبري: ١٥/١٥٦؛ و تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٦٢؛ وفتح القدير للشوكاني: ٣/٢٥٤؛ وإرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٥/١٩٢)، ولعل الظاهر هو القول الأول، يقول الشوكاني: تم الظاهر أن السؤال عن حقيقة الروح، لأن معرفة حقيقة الشيء أهم وأقدم من معرفة حال من أحواله، (فتح القدير: ٣/٢٥٤).

١٣٨- سورة الإسراء، الآية: ٨٥

١٣٩- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ٢/٥٤٠

١٤٠- انظر: الروح لابن القيم: ١/٢١٨؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٥/٢٦١؛ وروح المعاني للألوسي: ١٥/١٥٧-١٥٨

١٤١- زاد المسير: ٥/٨٢

بينهما من حيث الصفات لا من حيث الذات، فقال: "النفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾[١٤٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾[١٤٣]. وتطلق على الروح وحدها قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[١٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[١٤٥].

أما الروح فلا تطلق على البدن، لا بانفراده، ولا مع النفس ... وسميت الروح روحا لأن بها حياة البدن ... وسميت النفس روحا لحصول الحياة بها، وسميت نفسا إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا...

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات"[١٤٦].

وذهب الأكثرون على أنهما شيء واحد، وأن النفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد يطلق كل منهما على الآخر، واستدلوا على ذلك بعدة أحاديث، منها:

١- حديث أم سلمة قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: "إن الروح إذا قُبض تبعه البصر"[١٤٧].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره، فذلك حين يتبع بصره نفسه"[١٤٨].

٢- قوله صلى الله عليه وسلم: "الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحا،

١٤٢- سورة النور: الآية: ٦١

١٤٣- سورة النحل، الآية: ١١١

١٤٤- سورة الفجر، الآية: ٢٧

١٤٥- سورة الأنعام، الآية: ٩٣

١٤٦- الروح لابن القيم: ٢١٨/١

١٤٧- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر: ٦٣٤/٢، حديث رقم: ٩٢٠

١٤٨- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب في شخوص بصر الميت يتبع نفسه: ٦٣٥/٢، حديث رقم: ٩٢١

قالوا: أخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب..." [١٤٩].

وفي رواية أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها" [١٥٠].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من غزوة خيبر سار ليله حتى إذا أدركه الكرى [١٥١] عرس [١٥٢]، وقال لبلال أكلأ [١٥٣] لنا الليل، فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر [١٥٤]، فغلبت بلالا عيناه، وهو مستند إلى راحلته فلم يستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بلالا ولا أحد من أصحابه، حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم استيقاظا، ففزع [١٥٥] رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بلال: "أخذ بنفسي -بأبي أنت وأمي يا رسول الله- الذي أخذ بنفسك" [١٥٦].

١٤٩- أخرجه ابن ماجه في سننه: ١٤٢٣/٢، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم: ٤٢٦٢، دارالفكر - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (بدون تاريخ)
وذكره الكناني في مصباح الزجاجة: ٢٥٠/٤؛ وقال: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، دارالعربية - بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية، تحقيق محمد المنتقى الكشناوي.

١٥٠- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه: ٢٢٩٢/٤، حديث رقم: ٢٨٧٢

١٥١- الكرى: بفتح الكاف: النعاس، وقيل: النوم، (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٨٣/٥)

١٥٢- التعريس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة، (المرجع السابق: ١٨٣/٥)

١٥٣- اكلأ لنا الليل: أي ارقبه واحفظه واحرسه، (المرجع السابق: ١٨٣/٥)

١٥٤- مواجه الفجر: أي مستقبله بوجهه، (المرجع السابق: ١٨٣/٥)

١٥٥- ففزع: انتبه وقام، (المرجع السابق: ١٨٣/٥).

١٥٦- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها: ٤٧١/١، حديث رقم: ٦٨٠

وفي رواية أخرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ياأيها النـــاس إن الله قبض أرواحنا، ولو شاء ردها إلينا في حين غير هذا"[157].

والراجح هو ما ذهب إليه أكثر العلماء كما ذكر ذلك الآلوسي في تفسيره[158]، وابن القيم في كتابه "الروح"[159] من القول بأن الروح والنفس شـــيء واحـــد، وأن معناهما واحد.

وإن كنت أميل إلى ما ذهب إليه ابن الجوزي من الإمساك عن القول بـــشيء في هذه المسألة وعدم الخوض فيها، اقتداء بالسلف الصالح، لأن القرآن لم يـــصرح بشيء من ذلك، كما أن علمنا عاجز عن الإحاطة بمثل هذه المسائل.

والله تعالى أعلم بالصواب.

المطلب الثالث: شرح الآيات الواردة في الإحياء بالقيام من النوم

أولا:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[160].

فالله عز وجل هو الذي ينيمهم بالليل، فيتوفى أنفسهم[161] التي بهـــا يقـــدرون على الإدراك والتمييز، ويعلم ما كسبوا بالنهار فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر، فهؤلاء هـــم البـــشر مـــراقبين فـــي

١٥٧- رواه مالك في موطأه، كتاب الصلاة، باب وقوت الصلاة: ١٤/١، حديث رقم: ٢٦ وذكره ابن عبدالبر في التمهيد وقال: جاء معناه متصلا مسندا من وجـــوه صـــحاح ثابتـــة: ٢٠٣/٥

١٥٨- انظر: روح المعاني للآلوسي: ١٥٧/١٥

١٥٩- انظر: الروح لابن القيم: ٢١٧

١٦٠- سورة الأنعام، الآية: ٦٠

١٦١- ذكر أبوحيان لطيفة هنا وهو أن التوفي لما كان المراد به النوم الذي هو سبب للراحـــة أسـندته تعالى إليه، ولما كان بمعنى الموت مؤلما قال: "قل يتوفاكم ملك الموت". (البحر المحيط: ١٤٦/٤)

الحركات والسكنات، لا يند عن علم الله معرفة شيء مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار.

ثم يرد إليهم أرواحهم في النهار، ليبلغوا آجالهم التي قدرها الله لهم في الدنيا، ثم إليه مرجعهم بعد الموت ليخبرهم، بما كانوا يعملون في حياتهم الدنيا، ويجازيهم به، فهو عرض السجل الذي وعى ما كان، وهو العدل الدقيق الذي لا يظلم في الجزاء(١٦٢).

والمراد بالوفاة هنا النوم على التشبيه، وفائدته أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتم التقريب في قوله: ﴿ثم يبعثكم فيه﴾(١٦٣).

ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه ينيمهم أولا ثم يوقظهم ثانيا، كان ذلك جاريا مجرى الإحياء بعد الإماتة، لا جرم استدل بذلك على صحة البعث والقيامة، فقال: ﴿ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون﴾.

وقد دلت هذه الآية على الإحياء في الآخرة، إذ أن فيها احتجاج من الله عزّوجلّ على المشركين الذين كانوا ينكرون قدرة الله على إحيائهم بعد موتهم وبعثهم بعد فنائهم، فالله الذي يقبض أرواحهم بالليل، ويبعثهم في النهار لحين انتهاء آجالهم، وهم يرون ذلك كل يوم، ويعلمون صحته، هو نفسه القادر على قبض أرواحهم، ثم ردها إلى أجسادهم، وإنشائهم بعد مماتهم، فالذي لم يشاهدوه ولم يعاينوه من البعث، نظير ما شاهدوه وعاينوه كل يوم في النوم والاستيقاظ(١٦٤).

فهذه الحوادث المتكررة التي لا مفر منها، تشعر بطريق البرهان الإقناعي والقياس الظاهري أن هذا النوم وهذه اليقظة، قد ضربا مثلا للنوم الأكبر واليقظة

١٦٢- انظر: جامع البيان للطبري: ٢١٤/٧، مفاتيح الغيب للرازي: ١٢/١٣، وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ١١٢٢/٢

١٦٣- التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٧٥/٧

١٦٤- انظر: جامع البيان للطبري: ٢١٤/٧

الكبرى، وإن ذلك إلا تمرين على الموت والحياة، فإن مُتّم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة لأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة، ولكن اجزعوا من غفلاتكم فأنتم لا بد مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم[١٦٥].

ثانيا:

قوله تعالى: **﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**[١٦٦].

فالله تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم، إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى النائمة إلى وقت ضربه لموتها.

فالأنفس متوفاة عند النوم والموت، ولكنها في النوم متوفاة إلى حين، فالتي حان أجلها يمسكها فلا تستيقظ، والتي لم يحن أجلها بعد، يرسلها فتصحوا إلى أن يحل أجلها المسمى[١٦٧].

قال ابن عباس وغيره من المفسرين: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام فتتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى الأجساد، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها"[١٦٨].

فعندما ينام الناس، يمسك الله أرواح الذين جاء أجلهم وقضى عليهم بالموت، ويحبسها عنده، فيصبحوا جثثا هامدة، ويرسل أرواح الآخرين الذين لم يأت أجلهم ويعيدها إلى أجسامهم إلى حين مجيء الأجل.

والأحاديث النبوية تؤكد هذا المعنى، فمن الأدعية المأثورة عن النبي صلى

١٦٥- الجواهر في تفسير القرآن: طنطاوي جوهري: ٣٧/٤

١٦٦- سورة الزمر، الآية: ٤٢

١٦٧- انظر: جامع البيان للطبري: ٨/٢٤؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٢٨٤/٢٦؛ وفي ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٠٥٥/٦

١٦٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٦٠/١٥؛ وانظر: جامع البيان للطبري: ٨/٢٤.

الخاتمة

اللهم لك الحمد على هذه النعمة العظيمة حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، وأسألك اللهم أن تغفر لي زلة قلمي، وتتجاوز عن سيئآتي، فما أردت إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بأمرك، عليك توكلت وإليك أنيب.

وهكذا أكون قد أكملت هذا البحث المتواضع، وسأختمه بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها من خلاله، سائلة المولى عزوجل الخير والنفع للإسلام والمسلمين.

١- إن قضية البعث لها أهميتها في بناء العقيدة الإسلامية، لارتباطها بالإيمان بالله عزوجل وتوحيده، لذلك نجد أن القرآن الكريم قد اهتم بتقرير هذه العقيدة وتثبيتها في النفوس، من خلال عرض قصص الإحياء في الدنيا، التي قربت قضية البعث للأذهان، حيث رُدت فيها الحياة لأجساد بعد مفارقتها لها.

٢- التأكيد على صفة القدرة لله عزوجل من خلال قصص الإحياء في القرآن الكريم، فإعادة الحياة للميت بعد مرور فترة من الزمن عليه، إنما يدل دلالة عظيمة على قدرة الله عزوجل المطلقة، التي لا يحدها شيء، والقادر على ذلك قادر بلا شك على إعادة الحياة لأجساد جميع الخلق يوم القيامة.

٣- إن في قصص الإحياء إشارة إلى أهمية ملاحظة أثر الدليل العملي والمثال الحسي في تثبيت الحقائق النظرية.

فالتجارب العملية الميدانية، تثبت عند صاحبها العلم اليقيني الجازم، ومن المعلوم أن مشاهدة حادثة عملية بالعين، أو القيام بتجربة واقعية بالفعل يقود إلى زيادة الإيمان والتصديق واليقين، ويزيد في تأكيد الحقيقة النظرية، وترسيخها وتثبيتها.

ومن هنا فلابد من ضرورة الالتفات إلى الأمثلة والنماذج والتجارب العملية التي تصدّق وتثبّت المعلومات النظرية، وأن نستخدمها في عرض حقائق الدين وقضاياه.

٤- إن الإيمان بالله عزوجل فطري في النفس، والقلب في أصله حيٌّ بالإيمان، ولكنه ينحرف باتباع الهوى والشيطان، والسير وراء الشهوات والملذات، وحب الدنيا والتعلق بها، وبالتالي فإن هذا القلب يمرض شيئا فشيئا، حتى ينتهي به الحال إلى الموت، وإذا ما أدركه صاحبه وزوّده بالإيمان، حصلت له الحياة، فيتم إحياؤه، وإعادته للفطرة من جديد.

٥- إحياء القلب بالإيمان، هو إيقاظ القلب، وإنعاشه به بعد أن مات، وانغمس في الضلال، وذلك عن طريق تقوية الإيمان بالله عزوجل، وما يقود إليه من فعل المأمورات، واجتناب المحظورات، حتى تتحقق الحياة الكاملة لهذا القلب.

٦- إن إحياء القلب بالإيمان، يحقق حياة السعادة والسرور لصاحبه، وهي أعلى مراتب الحياة، ففي القلب فاقة لا يسدها إلاّ محبة الله عزوجل، والإقبال عليه، والإنابة إليه، ومن لم يظفر بذلك، فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات.

٧- إن في إقامة حد القصاص، إحياء للنفوس جميعها، لأنه يؤدي إلى ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضا، والنفوس قد جُبلت على حب البقاء، وعلى إرضاء القوة الغضبية، فإذا علم الإنسان أنه يقتل قصاصا، إذا قتل آخر، كفّ عن القتل، وارتدع عن الوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية، كما أنه يدفع سبب الموت والهلاك عن أولياء القاتل.

كما أن فيه حياة لأولياء القتيل، لأن القاتل يخاف على نفسه منهم، فيقصد قتلهم وإفناءهم، لإزالة الخوف عن نفسه.

كما أن فيه إحياء معنوي بالنسبة للقاتل، لأنه إذا نزل به العقاب، أقبل مطمئنا إلى عدالته، إما إذا لم يقتص منه، فإنه يبقى فاراً من العدالة.

ومن هنا ندرك عدل الإسلام، وحكمة تشريعاته، فما أن تم استبدال القوانين الوضعية بهذا الحد، حتى جرّت على المجتمعات الهلاك والويلات، وانتشرت الجرائم، وكثر الاعتداء على حياة الآخرين، وما زالت معدلات الجرائم والقتل في ازدياد وارتفاع، لاستهانة القاتلين بالعقوبة المترتبة على جرائمهم، وأصبحت حياة الآخرين رخيصة سهلة المنال.

ولو أدرك المسؤولون ما في القصاص، ومعاقبة الجاني من ردع للمجرمين وإحياء لنفوس الآخرين، لما فكروا في تركه، ولما استبدلوا به غيره.

٨- إن الموت ليس فناءً ولا عدماً، بل هو مرحلة انتقال من دار الدنيا إلى دارالبرزخ للوصول للآخرة، تفارق فيه الروح الجسد الذي كانت تعمره وتعيش فيه، ولا ينقطع تعلقها به، فالروح تبقى حية، إما منعمة وإما معذبة، ويصيب الجسد شيئا من ذلك رغم تلف وبلاه، وإن كنا لا نشعر نحن بهذه الحياة لكونها من عالم الغيب.

٩- إن الميت يحيى في قبره، وترد روحه إلى جسده وقت السؤال، ولكن ذلك لا يستلزم عودة الحياة المادية، بكل معانيها المحسوسة في عالمنا الدنيوي، كما أنه لا يستلزم أن يتبعها موت آخر، بل هي حياة برزخية، وإعادة برزخية، لا يعلم كنهها إلا الله تبارك وتعالى.

١٠- إن البرزخ عالمٌ حيٌ متكامل، يتفاوت فيه البشر ما بين منعّم ومعذّب، فليسوا كلهم بمنزلة واحدة، بل إن نوع الحياة فيه يختلف بحساب اختلاف الفرد، وما قدمه في دنياه من أعمال.

وأفضل مراتب الحياة وأشرفها على الإطلاق، هي حياة الأنبياء عليهم السلام، فالشهداء، فالمؤمنون الصالحون.

أما العصاة من المؤمنين، فينالهم نصيبٌ من العذاب، تختلف شدته ومدته بحسب اختلاف المعاصي ونوعها.

وأما الكفار فهم -والعياذ بالله- يعيشون في البرزخ، حياة عذاب وجحيم.

١١- الصحيح أن للصور نفختان، الأولى نفخة الصعق، التي يُصعق ويموت بها كل الأحياء، والثانية نفخة البعث، التي يُبعث فيها الموتى من قبورهم، وترد أرواحهم إلى أجسادهم، بعد أن يُنزل الله عزوجل مطرا، تنبت به أجسادهم، وتعود لما كانت عليه قبل الموت.

١٢- اتفق المسلمون على أن البعث يكون بالروح والجسد معا، فمن مقتضى العدل أن ينعّم أو يعذّب الجسد الذي صدرت منه الطاعة أو المعصية ولا يقتصر الأمر على الروح.

١٣- يبعث الإنسان على ما مات عليه، فنهاية الإنسان وخاتمته التي مات عليها، لها أثرها في حاله وهيئته عند البعث، وخروجه من قبره، فإن مات مجاهدا صابرا محتسبا، بُعث على تلك الهيئة، وإن مات مرائيا منافقا كذاباً بُعث على تلك الحالة.

١٤- للقرآن الكريم أسلوبه الفريد في التأثير والإقناع، وقد استدل على الإحياء في الآخرة، بأساليب متعددة وبراهين متنوعة، وقدم للمنكرين والمكذبين أدلة محسوسة وملموسة، تلمس قلوبهم قبل أن تلمس عقولهم.

١٥- إن في إحياء الأرض بالمطر، دليل واقعي وعملي على إحياء الموتى يوم القيامة، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم، لأنه يقرب للأذهان صورة

الإحياء بعد الإماتة، فالذي أحيى هذه الأرض الدارسة فأخرج منها النبات، بالمطر الذي أنزله عليها، قادر على إحياء الموتى بعد مماتهم.

١٦- إن القرآن الكريم، قد ربط بين خلق الإنسان وبعثه، فجعل الآيات العجيبة في خلق الإنسان، والمراحل التي يمر بها، من النطفة فالعلقة فالمضغة، ومن ثم تكوين العظام وكسوها باللحم، إحدى الأدلة الباهرة على البعث والنشور، وإحياء الخلق في الآخرة.

١٧- إن حالة النوم واليقظة، التي تتعاقب على الإنسان كل يوم، دليل على أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن هناك بعثا لجميع الخلق، وهذا النوم وهذه اليقظة، قد ضربا مثلا للنوم الأكبر واليقظة الكبرى، فالذي لم يشاهدوه ولم يعاينوه من البعث، نظير ما يشاهدونه ويعاينونه كل يوم في النوم والاستيقاظ.

١٨- يتوفى الله الأنفس عند النوم وعند الموت، ولكنها في النوم متوفاة إلى حين، فالتي حان أجلها وقضى عليها بالموت، يمسكها ويحبسها عنده فلا تستيقظ، والتي لم يحن أجلها بعد، يرسلها ويعيدها إلى الجسد إلى أن يحين مجيء الأجل.

١٩- إن قصة أصحاب الكهف، وبعثهم بعد نومهم هذه المدة الطويلة، من أقوى الأدلة القرآنية العملية على البعث والإحياء في الآخرة، فهؤلاء الفتية ضرب الله على آذانهم، ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، وبقيت أجسامهم كما هي لم تتغير، كما احتفظوا بحواسهم وشعورهم وملابسهم، لم يُنقص منها شيء طوال تلك المدة، فالذي قدر على أن يبعثهم بعد نومهم الطويل، قادر على بعث الناس يوم القيامة.

هذا والله تعالى أعلم، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وأعوذ بالله من

فتنة القول والعمل، ومن فتنة الهوى وسوء الفهم، وأتوجه بهـذا العمـل إلـى الله عزوجل، راجية منه القبول والأجر والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



المراجع والمصادر

مرتبة حسب الحروف الهجائية

١ أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبدالله ابن العربي ، دارالمعرفة – بيروت، تحقيق: علي اليجاوي (بدون تاريخ)

٢ إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي، دارإحياء التراث العربي (بدون تاريخ).

٣ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبوالسعود محمد بن محمد العمادي، دارإحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

٤ أسباب النزول: للواحدي، دارالقبلة للثقافة الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، تحقيق: السيد أحمد صقر.

٥ **أعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، دارالجيل – بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق: طه عبدالرؤوف.**

٦ الإبهاج للسبكي، دارالكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق جماعة من العلماء.

٧ الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين السيوطي، دارالجيل – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، تحقيق: عصام فارس الحرستاني.

٨ الأساس في التفسير: لسعيد حوى، دارالسلام، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

٩ الأساس في السنة وفقهها (العقائد الإسلامية): سعيد حوّى، دارالسلام – مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

١٠ **الإسرائيليات في التفسير والحديث:** د. محمد حسين الذهبي، دار التوفيق النموذجية - مصر، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

١١ **الإصابة في تمييز الصحابة:** لابن حجر العسقلاني، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، تحقيق: محمد البجاوي.

١٢ **الأعلام:** لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

١٣ **الأم** : محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

١٤ **البحر المحيط:** لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

١٥ **البداية والنهاية:** لابن كثير، مكتبة المعارف - بيروت (بدون تاريخ).

١٦ **البرهان في نظام القرآن:** د. محمد سبحاني، دار الكتب ودار المجتمع، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٧ **التاريخ الكبير:** محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر - بيروت، بدون تاريخ، تحقيق: السيد هاشم الندوي.

١٨ **التذكرة في أحوال الموتى والآخرة:** للقرطبي، المكتبة التوفيقية - مصر (بدون تاريخ)

١٩ **الترغيب والترهيب:** أبومحمد عبدالعظيم المنذري، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.

٢٠ **التصوير الفني في القرآن:** سيد قطب، دار المعارف - مصر، ١٩٦٣م.

٢١ **التعريفات:** علي بن محمد بن علي الجرجاني، دارالكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، تحقيق: إبراهيم الأبياري.
٢٢ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج:** تـأليف الـدكتور وهبة الزحيلي، دارالفكر المعاصر - بيروت، ١٩٩١م.
٢٣ **التفسير والمفسرون:** د. محمد حسين الـذهبي، الطبعـة الثانيـة ١٩٧٦م، بدون دار نشر.
٢٤ **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:** لأبي عمر يوسـف بن عبدالله بن عبدالبر، وزارة الأوقاف والـشؤون الإسـلامية - المغرب ١٣٨٧هـ، تحقيق: مصطفى العلوي، محمود البكري.
٢٥ **التوقيف على مهمات التعاريف:** لمحمد عبـدالرؤوف المنـاوي، دارالفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: د. محمد الداية.
٢٦ **الثقات:** لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي دارالفكر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد
٢٧ **الجامع لأحكام القرآن:** أبي عبدالله محمد بـن أحمـد القرطبـي، انتشارات ناصر خـسرو، طهـران - إيـران، أعـادت طبعـه بالأوفست، دارإحياء التراث العربي - بيروت (بدون تاريخ).
٢٨ **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي:** لابن قيم الجوزيـة، دارالكتب العلمية - بيروت (بدون تاريخ)
٢٩ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن:** عبدالرحمن بن محمـد بـن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (بـدون تاريخ)

٣٠ **الجواهر في تفسير القرآن الكريم:** للشيخ طنطاوي جوهري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية ١٣٠٥هـ.

٣١ **الخطط المقريزية:** تقي الدين أحمد بن علي المعروف بالمقريزي، مطبعة النيل – مصر، ١٣٢٥هـ.

٣٢ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** للإمام جلال الدين السيوطي، دارالفكر – بيروت، ١٩٩٣م.

٣٣ **الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء:** شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، دارالكتب العلمية – بيروت.

٣٤ **الزاهر:** لأبي منصور الهروي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ، تحقيق: د. محمد الألفي.

٣٥ **الطبقات الكبرى:** لأبي عبدالله محمد بن سعد الهاشمي، دارصادر – بيروت (بدون تاريخ)

٣٦ **العقائد الإسلامية:** لسيد سابق، دارسابق – طبعة خاصة بالمؤلف (بدون تاريخ)

٣٧ **العقوبة في الفقه الإسلامي:** محمد أبوزهرة، دارالفكر العربي، (بدون تاريخ).

٣٨ **العقيدة أصولها التاريخية وأسسها الإسلامية:** د. محمد جلاء إدريس، لمركز القومي للدراسات العربية والإسلامية "فجر" الجيزة ١٩٩٢م.

٣٩ **العين:** للخليل بن أحمد الفراهيدي، دارومكتبة الهلال (بدون تاريخ) تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي.

٤٠ **الفتح الرباني:** ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا، دارالشهاب – القاهرة (بدون تاريخ)

٤١ **الفصل في الملل والأهواء والنحل:** علي بن أحمد المعروف بابن حزم، دارالجيل - بيروت، ١٩٨٥م، تحقيق: محمد نصر وعبدالرحمن عميرة.

٤٢ **الفهرست:** لمحمد بن إسحاق المعروف بابن النديم دارالمعرفة - بيروت ١٩٧٨م.

٤٣ **الفوائد:** شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن القيم الجوزية، دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣م.

٤٤ **القاموس المحيط:** لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي.

٤٥ **القصص القرآني:** عرض وقائع وتحليل أحداث: د. صلاح الخالدي دارالقلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٤٦ **الكامل في التاريخ:** أبي الحسن علي بن عبدالواحد المعروف بابن الأثير، دارصادر - بيروت، ١٩٨٢م.

٤٧ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:** جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، دارالكتاب العربي، بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

٤٨ **الكليات "معجم في المصطلحات والفروق اللغوية":** لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

٤٩ **الكنى والأسماء:** لمسلم بن الحجاج، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، تحقيق: عبدالرحيم محمد القشقري.

٥٠ **المبسوط** :محمد بن أبي سهيل السرخسي، دارالمعرفة - بيروت، ١٤٠٦هـ.
٥١ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** ابن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي، فاس، ١٩٩٢م.
٥٢ **المحلى:** لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، دارالآفاق الجديدة - بيروت، تحقيق: لجنة التراث العربي (بدون تاريخ).
٥٣ **المستخلص في تزكية الأنفس:** سعيد حوى، دارالسلام - مصر، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
٥٤ **المستدرك على الصحيحين:** أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٠م، الطبعة الأولى، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا.
٥٥ **المصباح المنير:** لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت، (بدون تاريخ).
٥٦ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن:** لمحمد فؤاد عبدالباقي، سهيل أكيدمي، لاهور - باكستان، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م.
٥٧ **المغني:** عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دارالفكر - بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى.
٥٨ **المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى:** أبي حامد الغزالي، دارالجنان والجابي - قبرص، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، تحقيق: بسام الجابي.
٥٩ **المنهل الروي:** محمد بن إبراهيم بن جماعة، دارالفكر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، تحقيق: د. محي الدين رمضان.

٦٠ **النموذج الجليل في أسئلة وأجوبة آي التنزيل:** محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق وتصحيح إبراهيم عطوه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.

٦١ **النهاية في غريب الأثر:** أبوالسعادات المبارك الجزري، المكتبة العلمية - بيروت ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي.

٦٢ **الوابل الصيب من الكلم الطيب:** شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المروف بابن قيم الجوزية، دارالكتاب العربي - بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى، تحقيق محمد عوض.

٦٣ **أمراض القلوب وشفاؤها:** لابن تيمية
المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٩٩هـ، الطبعة الثانية.

٦٤ أنبياء الله: أحمد بهجت، دارالشروق - القاهرة، الطبعة الثانية عشر، ١٩٨٤م.

٦٥ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل:** ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، دارالفكر للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، تحقيق الشيخ عبدالقادر حسونة.

٦٦ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:** لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، ١٣٨٥هـ، تحقيق: محمد علي النجار.

٦٧ **تاريخ الأنبياء، في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية:** د. محمد الطيب النجار، دارالاعتصام، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

٦٨ **تحرير ألفاظ التنبيه:** أبي زكريا النووي، دارالعلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، تحقيق: عبدالغني الدقر.

٦٩ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي:** للإمام عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف.

٧٠ **تذكرة الحفاظ:** لمحمد بن طاهر بن القيسراني، دارالصميعي - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي.

٧١ **تربيتنا الروحية:** سعيد حوّى، دارالسلام - مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.

٧٢ **تفسير التحرير والتنوير:** للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدارالتونسية للنشر، ١٩٦٩م.

٧٣ **تفسير الطبري، تقريب وتهذيب:** د. صلاح الخالدي، دارالقلم - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٧٤ **تفسير القرآن الحكيم:** الشهير بتفسير المنار: محمد رشيد رضا، دارالمعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان (بدون تاريخ).

٧٥ **تفسير القرآن العظيم:** إسماعيل بن عمر ابن كثير، مطبعة الاستقامة - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م.

٧٦ **تفسير المراغي:** أحمد مصطفى المراغي، دارإحياء التراث العربي - بيروت.

٧٧ **تفسير النسفي:** للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، دارإحياء الكتب العربية (بدون تاريخ)

٧٨ **تقريب التهذيب:** لابن حجر العسقلاني، دارالرشيد - سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، تحقيق: محمد عوامة.

٧٩ **تلبيس إبليس:** أبوالفرج عبدالرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، دارالكتاب العربي - بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي.

٨٠ **تهذيب التهذيب:** لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالفكر - بيروت، ١٩٨٤م، الطبعة الأولى.

٨١ تهذيب مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية، تهذيب عبد المنعم صالح العربي، المكتبة العلمية (بدون تاريخ).

٨٢ **توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم:** لأحمد بن إبراهيم ابن عيسى، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ، تحقيق: زهير الشاويش.

٨٣ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن:** محمد بن جرير الطبري، دارالفكر - بيروت، ١٤٠٥هـ.

٨٤ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، دارالكتب العلمية - بيروت، (بدون تاريخ).**

٨٥ **حاشية السندي:** لأبي الحسن نور الدين بن عبدالهادي السندي، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، تحقيق: عبدالفتاح أبوغدة.

٨٦ **حقيقة الإيمان:** عمر قريشي، دارالهدي - مصر (بدون تاريخ)

٨٧ **حلية الأولياء:** أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، دارالكتاب العربي بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٨٨ **خلق الإنسان بين الطب والقرآن:** د. محمد البار، الدارالسعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤م.

٨٩ **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث:** محمد توفيق، دارالسلام – القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

٩٠ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،** أبوالفضل محمود الآلوسي، دارإحياء التراث العربي – بيروت (بدون تاريخ).

٩١ **زاد المسير في علم التفسير:** عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

٩٢ **سنن ابن ماجه:** لمحمد بن يزيد أبوعبدالله القزويني، دارالفكر – بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٩٣ **سنن أبي داود:** سليمان بن الأشعث أبوداود السجستاني الأزدي، دارالفكر، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، (بدون تاريخ).

٩٤ **سنن الترمذي:** محمد بن عيسى الترمذي، دارإحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق أحمد شاكر، (بدون تاريخ).

٩٥ **سنن الدارمي:** لعبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، دارالكتاب العربي – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، تحقيق: فواز أحمد وخالد العلمي.

٩٦ **سير أعلام النبلاء:** للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم.

٩٧ **شرح الحافظ جلال الدين السيوطي لسنن النسائي،** مكتبة المطبوعات – حلب، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، تحقيق: عبدالفتاح أبوغدة.

٩٨ **شرح العقيدة الطحاوية:** لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٤م، تحقيق: جماعة من العلماء.

٩٩ **شرح المقاصد في علم الكلام:** لسعد الدين التفتازاني، دارالمعارف النعمانية - لاهور ١٩٨١م.

١٠٠ **شعب الإيمان:** أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد بسيوني زغلول.

١٠١ **صحيح ابن حبان:** لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم البستي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

١٠٢ **صحيح البخاري:** للإمام محمد بن إسماعيل البخاري
دارابن كثير للنشر - بيروت، ١٩٨٧م، الطبعة الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ريب البغا.

١٠٣ **صحيح مسلم بشرح الإمام النووي:** للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دارإحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

١٠٤ **صحيح مسلم:** مسلم بن الحجاج أبوالحسين النيسابوري، دارإحياء التراث العربي- بيروت، (بدون تاريخ)، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

١٠٥ **طبقات الحفاظ:** لجلال الدين السيوطي، دارالكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٠٦ **عقيدة المسلم:** محمد الغزالي، دارالقلم - دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٨٩م.

١٠٧ **عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:** أحمد شاكر، مكتبة التراث الإسلامي - القاهرة (بدون تاريخ).

١٠٨ **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ:** لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد المعروف بالسمين الحلبي، دارالسيد للنشر - استنبول، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: محمد السيد الدغيم.

١٠٩ **عون المعبود شرح سنن أبي داود:** لأبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية، دارالكتب العلمية - بيروت.

١١٠ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري:** لابن حجر العسقلاني، دارالمعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب.

١١١ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري:** لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دارالمعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب.

١١٢ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير:** محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دارالفكر - بيروت، ١٩٨٣م.

١١٣ **في ظلال الإيمان:** محمد المجذوب، مكتبة الضياء - جدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١١٤ **في ظلال الإيمان:** د. صلاح الخالدي، دارالقلم - دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

١١٥ **في ظلال القرآن:** سيد قطب، دارالشروق، الطبعة التاسعة، ١٩٨٠م.

١١٦ **فيض القدير على شرح الجامع الصغير:** عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

١١٧ **كتاب التوحيد:** عبدالمجيد الزنداني، دارالمجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

١١٨ **كتاب السنن:** لسعيد بن منصور الخراساني، الدارالسلفية – الهند، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

١١٩ **كتب ورسائل ابن تيمية (في التفسير):** لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية – السعودية، تحقيق: عبدالرحمن قاسم، (بدن تاريخ)

١٢٠ **كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية (في الفقه)**، مكتبة ابن تيمية – السعودية، تحقيق: عبدالرحمن قاسم (بدون تاريخ).

١٢١ **كشاف اصطلاحات الفنون:** محمد أعلى بن علي التهانوي، دارصادر – بيروت.

١٢٢ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:** مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة، طبع بعناية وكالة المعارف، ١٩٤٣م.

١٢٣ **لسان العرب:** جمال الدين أبي الفضل المعروف بابن منظور، دارصادر – بيروت، الطبعة الأولى.

١٢٤ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:** للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي، دارالريان للتراث ودارالكتاب العربي – القاهرة – بيروت، ١٤٠٧هـ.

١٢٥ **مجموع الفتاوى:** لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، جمع وترتيب عبدالرحمن الحنبلي، مكتبة ابن تيمية – السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ

١٢٦ **مختار الصحاح:** لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٩٥م، تحقيق: محمود خاطر.

١٢٧ **مسند الإمام أحمد:** لأحمد بن حنبل، أبوعبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - مصر (بدون تاريخ)
١٢٨ **مشاهد القيامة في القرآن:** لسيد قطب، دارالمعارف - مصر، ١٣٨٦هـ.
١٢٩ **مشاهير علماء الأمصار:** لمحمد بن حبان بن أحمد، أبوحاتم التميمي البستي، دارالكتب العلمية - بيروت، ١٩٥٩، تحقيق: م. فلا يشهمر
١٣٠ **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه:** لأحمد بن أبي بكر الكناني دارالعربية - بيروت، ١٤٠٣هـ، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي.
١٣١ **مع قصص السابقين في القرآن الكريم:** د. صلاح الخالدي دارالقلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.
١٣٢ **معالم التنزيل:** أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي دارالمعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، تحقيق: خالد سوار.
١٣٣ **معجم المؤلفين:** عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي - دمشق، ١٩٥٧م.
١٣٤ **معجم مفردات ألفاظ القرآن:** الراغب الأصفهاني، دارالكاتب العربي، تحقيق نديم مرعشلي، نشر المكتبة المرتضوية (بدون تاريخ).
١٣٥ **معجم مقاييس اللغة:** لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مركز النشر - مكتب الأعلام الإسلامي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤هـ، تحقيق عبدالسلام هارون.

١٣٦ **معرفة الثقات:** للإمام أحمد بن عبدالله بن صالح العجلي،مكتبة الدار – المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، تحقيق: عبدالعليم البستوي.

١٣٧ **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار:** محمد بن أحمد أبوعبدالله الذهبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: بشار معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي.

١٣٨ **مفاتيح الغيب:** فخر الدين الرازي، دارإحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة.

١٣٩ **مفتاح دارالسعادة:** شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن القيم، دارالكتب العلمية بيروت (بدون تاريخ)

١٤٠ **منازل الصديقين والربانيين:** سعيد حوى
دارعمار – بيروت، ١٩٨٩م.

١٤١ **مناهل العرفان في علوم القرآن:** لمحمد عبدالعظيم الزرقاني
دارالفكر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

١٤٢ **منهج الإمام الشوكاني في العقيدة:** للدكتور عبدالله نومسوك، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.

١٤٣ **مواهب الجليل من أدلة خليل:** أحمد بن أحمد المختار الشنقيطي ، دارالفكر – بيروت، ١٣٩٨هـ، الطبعة الثانية.

١٤٤ **موطأ مالك:** أبوعبدالله مالك بن أنس الأصبحي، دارإحياء التراث العربي – مصر، تحقيق: محمد عبدالباقي (بدون تاريخ)

١٤٥ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال:** للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، دارالكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: علي معوض وعادل عبدالموجود.

١٤٦ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف – استانبول، ١٩٥١م.

١٤٧ هذا القرآن: د. صلاح الخالدي، دار المنار للنشر – عمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.



فهـــرس الآيـــات

مرتبة حسب الحروف الهجائية

م	الآيــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
١.	"إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .."	البقرة	٢٥٨	٨٨
٢.	"أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ"	المؤمنون	١١٥	٢١٤
٣.	"أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ"	النحل	١٧	١٠٠
٤.	"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ .."	البقرة	٢٤٣	٦٧/٤٠
٥.	"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ .."	الحديد	١٦-١٧	١٢٥/٣٠
٦.	"أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى"	القيامة	٤٠	٢٧
٧.	"أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا، إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا، .."	الكهف	٩-٢٦	١١٢
٨.	"أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .."	يونس	٣١	٢٥٦
٩.	"أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ"	النحل	٢١	١٣٧

م	الآيــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
١٠.	إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ"	يس	٦٩-٧٠	١٣٢
١١.	"إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا .."	فاطر	٦	١٥١
١٢.	"إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .."	النساء	٩٧	١٧٨
١٣.	"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ .."	الأعراف	٤٠	١٨١
١٤.	"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .."	الأنعام	٩٥	٢٥٦
١٥.	"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ"	آل عمران	١٩٠	١٤٥
١٦.	"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ"	ق	٣٧	١٣٣
١٧.	"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ .."	الإسراء	٩	٣٧
١٨.	"إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ .."	الإنسان	٢	٢٦١
١٩.	"إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ .."	النمل	٨٠	١٤٠
٢٠.	"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.."	فاطر	٢٨	١٤٥
٢١.	"أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا .."	البقرة	٢٥٩	٧٧

م	الآيـــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
٢٢.	"أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ .."	الأنعام	١٢٢	١٤٢/١٣٨
٢٣.	"أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ"	القيامة	٣-٤	٢٢٤
٢٤.	"أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى"	القيامة	٣٦	٢٦٨/٢١٤
٢٥.	"اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ .."	البقرة	٨٦	٣١
٢٦.	"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ .."	الأنعام	١	٨٥١٠٠
٢٧.	"اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا .."	الروم	٤٨-٥٠	٢٤٣
٢٨.	"اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا.."	الزمر	٤٢	٢٨٢/١٨٥
٢٩.	"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ .."	الأنعام	١٠١	١٠٠
٣٠.	"بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ"	الرحمن	٢٠	١٧٤
٣١.	"تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .."	آل عمران	٢٧	٢٥٦
٣٢.	"ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا .."	الأعراف	١٠٣	٢١١/٥١
٣٣.	"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي.."	المؤمنون	٩٩-١٠٠	٤١
٣٤.	"ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ .."	يوسف	١٠٢	٤٣

م	الآيـــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
٣٥.	"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلامَهُمْ .."	آل عمران	٤٤	٤٣
٣٦.	"سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ"	التوبة	١٠١	٢٠٧
٣٧.	"فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .."	النور	٦١	٢٧٨
٣٨.	"فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ"	المدثر	٨	٢١٧
٣٩.	"فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ .."	القمر	٦-٨	٢٣٢
٤٠.	"فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا .."	الكهف	١١-١٢	٥٠
٤١.	"فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .."	طه	١٢٣-١٢٤	١٣٤
٤٢.	"فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ.."	غافر	٤٥-٤٦	٢٠٧
٤٣.	"قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا"	الكهف	٦٤	١٥٤
٤٤.	"قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا.."	غافر	١١	٢٥٠/١٨٤
٤٥.	"قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ .."	الجاثية	٢٦	٣١
٤٦.	"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.."	آل عمران	١٨٥	٢١٤/١٧٨

م	الآيـــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
٤٧.	"كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا.."	النساء	٥٦	٢٢٧
٤٨.	"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .."	البقرة	٢٨	٢٥٠/١٨٤
٤٩.	"لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى .."	الدخان	٥٦	٦٩/٤١ ٧٠
٥٠.	"لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ.."	الروم	٥٦	٢١٢
٥١.	"لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ.."	يونس	٢٦	٤٥
٥٢.	"لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا .."	الفرقان	٤٩	٣٠
٥٣.	"مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ .."	يس	٤٩-٥٠	٢٢١
٥٤.	"مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ .."	المائدة	٣٢	٦٠/٣١ ١٦٠
٥٥.	"مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ .."	البقرة	٢٥٥	٢٠٧
٥٦.	"مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .."	النحل	٩٧	١٤٧/١٣٤
٥٧.	"مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى"	طه	٥٥	٢٢٦
٥٨.	"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .."	غافر	٦٧	٢٦٠

م	الآيـــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
٥٩.	"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .."	الأعراف	١٧٢	١٣٠
٦٠.	"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِـي كَيْـفَ تُحْـيِ الْمَوْتَى .."	البقرة	٢٦٠	٨٦
٦١.	"وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً .."	البقرة	٦٧-٧٣	٥٦
٦٢.	"وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً .."	البقرة	٥٥-٥٦	٤٥٥١
٦٣.	"وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ .."	البقرة	٤٩	٣٢
٦٤.	"وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ"	التكوير	٧	٢٢٦
٦٥.	"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّـهُ مَنْ يَمُوتُ .."	النحل	٣٨	٣٨
٦٦.	"وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَـانُوا يَعْلَمُونَ"	العنكبوت	٦٤	٢١٠
٦٧.	"وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّـهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"	الحج	٧	٢١١
٦٨.	"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِـنْكُمْ خَاصَّةً .."	الأنفال	٢٥	٥٥
٦٩.	"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيـرُ سَـحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ .."	فاطر	٩	٢٤٥
٧٠.	"وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ .."	الأنعام	٩٣	٢٧٨
٧١.	"وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ .."	الكهف	٩٩	٢٢٥/٢٣٠

م	الآيـــــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
٨٦.	"ولا تنفعُ الشفاعةُ عندَهُ إلاّ لمَنْ أذنَ لَـهُ .."	سبأ	٢٣	٢٠٦
٨٧.	"ولقدْ خلقنَا الإنسَانَ منْ سُلالَةٍ منْ طينٍ.."	المؤمنون	١٢-١٤	٢٦٨/٢٦٠
٨٨.	"ولكُمْ في القصَاصِ حيَاةٌ يَاأولِي الألبَـابِ لعَلَّكُمْ تتَّقُونَ"	البقرة	١٧٩	١٢٥/٣١
٨٩.	"ولَنُذيقنَّهُمْ منَ العَذابِ الأدنَى دُونَ العَذابِ الأكبَرِ لعَلَّهُمْ يرْجعُونَ"	السجدة	٢١	٢٠٨
٩٠.	"ولَوْ ترَى إذْ يتَوفَّى الَّذينَ كفَرُوا المَلائكَـةُ يضْربُونَ وُجُوهَهُمْ وأدبَارَهُمْ .."	الأنفال	٥٠	٢٠٨
٩١.	"وليَعْلَمَ الَّذينَ أوتُوا العلْمَ أنَّهُ الحَـقُّ مِـنْ ربِّكَ .."	الحج	٥٤	١٤٥
٩٢.	"ومَا أنتَ بمُسْمعٍ مَنْ فِي القُبُورِ"	فاطر	٢٢	٣٠/ ١٤٠
٩٣.	"ومَا الحَيَاةُ الدُّنيَا فِي الآخرَةِ إلاَّ متَاعٌ"	الرعد	٢٦	٣١
٩٤.	"ومِنْ آيَاتهِ أنَّكَ ترَى الأرْضَ خَاشعَةً فَـإذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهتَزَّتْ ورَبَتْ .."	فصلت	٣٩	٢٠٦/١٦
٩٥.	"ومِنْ ورَائهِمْ برْزَخٌ إلَى يوْمِ يُبْعَثُونَ"	المؤمنون	١٠٠	١٧٤
٩٦.	"ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فكَأنَّمَا خرَّ منَ الـسَّمَاءِ فتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أوْ تَهوِي بِهِ الـرِّيحُ فِـي مكَانٍ سَحيقٍ"	الحج	٣١	١٨١
٩٧.	"ومَنْ يَقتُلْ مُؤمنًا متَعَمِّدًا فَجَـزَاؤُهُ جهَـنَّمُ خَالدًا فيهَا .."	النساء	٩٣	١٣٥
٩٨.	"ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَإذَا هُمْ منَ الأجْدَاثِ إلَى ربِّهِمْ ينسِلُونَ"	يس	٥١	٢٣٢

م	الآيـــــات	السـورة	رقم الآية	الصفحة
٩٩.	"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ .."	الزمر	٦٨	٢١٦
١٠٠.	"وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ"	الحج	٦٦	/٣١
١٠١.	"وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ .."	الأنعام	٦٠	٢٤٠/٥٠
١٠٢.	"وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِهِ .."	الأعراف	٥٧	٢٤٠
١٠٣.	"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً"	الإسراء	٨٥	١٨٤
١٠٤.	"وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا"	مريم	٦٦	١٧٥
١٠٥.	"وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَـزِعَ مَـنْ فِـي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ .."	النمل	٨٧	٢٢٠/٢١٧
١٠٦.	"يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ"	الفجر	٢٧	
١٠٧.	"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .."	الأنفال	٢٤	٥٤/٣١ ١٥٠/١٤٣
١٠٨.	"يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْـيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ.."	المائدة	١٠١	٦٦
١٠٩.	"يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْـثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ .."	الحج	٥-٧	٢٦٠/٢٤١ ٢٦٦
١١٠.	"يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي"	الفجر	٢٤	٣١
١١١.	"يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِـي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ .."	إبراهيم	٢٧	٢٠١

م	الآيـــات	السورة	رقم الآية	الصفحة
١١٢.	"يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ .."	الصف	٨	١٦
١١٣.	"يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا .."	النحل	١١١	٢٧٨
١١٤.	"يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ"	النازعات	٦-٧	٢١٩
١١٥.	"يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَـأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ"	المعارج	٤٣	٢٣١
١١٦.	"يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِـكَ يَـوْمُ الْخُرُوجِ"	ق	٤٢	٢٢٥
١١٧.	"يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا"	النبأ	١٨	٢٢٨
١١٨.	"يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ"	الزلزلة	٦	٢٢٩



فهرس الأحاديث

مرتبة حسب الحروف الهجائية

م	طرف الحديث	المصدر	رقم الصفحة
١٤.	"إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ..."	صحيح مسلم	١٨٧
١٥.	"إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ..."	مسند أحمد	١٧٩
١٦.	"إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة ..."	صحيح ابن حبان	٢٠٤
١٧.	"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قفل من غزوة خيبر..."	صحيح مسلم	٢٧٩
١٨.	"إن لكل شيء قلبا، وقلب القرآن يس"	سنن الدارمي	١٢٦
١٩.	"إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ..."	صحيح البخاري	٤٦
٢٠.	"إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده ..."	صحيح البخاري	١٩٠
٢١.	"إنه ليغان على قلبي فأستغفر في اليوم ..."	صحيح مسلم	١٤٦
٢٢.	"إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ..."	صحيح مسلم	٢٠٦
٢٣.	"اغسلوه بماء وسدر وكفنوه ..."	صحيح البخاري	٢٣١
٢٤.	"الحمد لله الذي عافاني في جسدي ..."	سنن الترمذي	
٢٥.	"الراجفة النفخة الأولى ..."	صحيح البخاري	٢١٩
٢٦.	"الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ..."	مسند أحمد	١٩٨
٢٧.	"القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ..."	مسند أحمد	١٣٨
٢٨.	"القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ..."	سنن الترمذي	١٢٧/ ١٣٥

م	طرف الحديث	المصدر	رقم الصفحة
٤٦.	"ما بين النفختين أربعون ..."	صحيح البخاري	٢٢٢
٤٧.	"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه ..."	صحيح مسلم	١٣١
٤٨.	"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه ..."	صحيح البخاري	١٤٨
٤٩.	"مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث ..."	صحيح مسلم	١٤٤
٥٠.	"من أحيا مواتا فهو أحق به ..."	مجمع الزوائد	٢٨
٥١.	"نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ..."	صحيح البخاري	
٥٢.	"نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ..."	مسند أحمد	١٩٧/ ٢٠١
٥٣.	"نعم وأنت صابر محتسب .."	صحيح مسلم	١٩٨
٥٤.	"وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول ..."	صحيح البخاري	٢٠٩
٥٥.	"وقف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ثلاثة أيام من معركة بدر ..."	صحيح مسلم	٢٨٨
٥٦.	"ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون"	صحيح مسلم	٢٠٢
٥٧.	"يا أيها الناس ق فرض الله عليكم الحج ..."	صحيح مسلم	٦٦
٥٨.	"يا أيها الناس إن الله قبض أرواحنا..."	موطأ مالك	٢٣٩٢٨
٥٩.	"يا جابر، مالي أراك منكسرا ..."	سنن الترمذي	٢٤
٦٠.	"يا عبدالله إن قاتلت صابرا محتسبا ..."	سنن أبي داود	٢٣١
٦١.	"يبعث كل عبد على ما مات عليه ..."	صحيح مسلم	٢٣٠

م	طرف الحديث	المصدر	رقم الصفحة
٦٢.	"يخلص المؤمنون من النار فيحبسون ..."	صحيح البخاري	٢١٥
٦٣.	"يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين ..."	صحيح مسلم	١٩٦




www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

فهرس الأعلام

مرتب حسب الحروف الهجائية